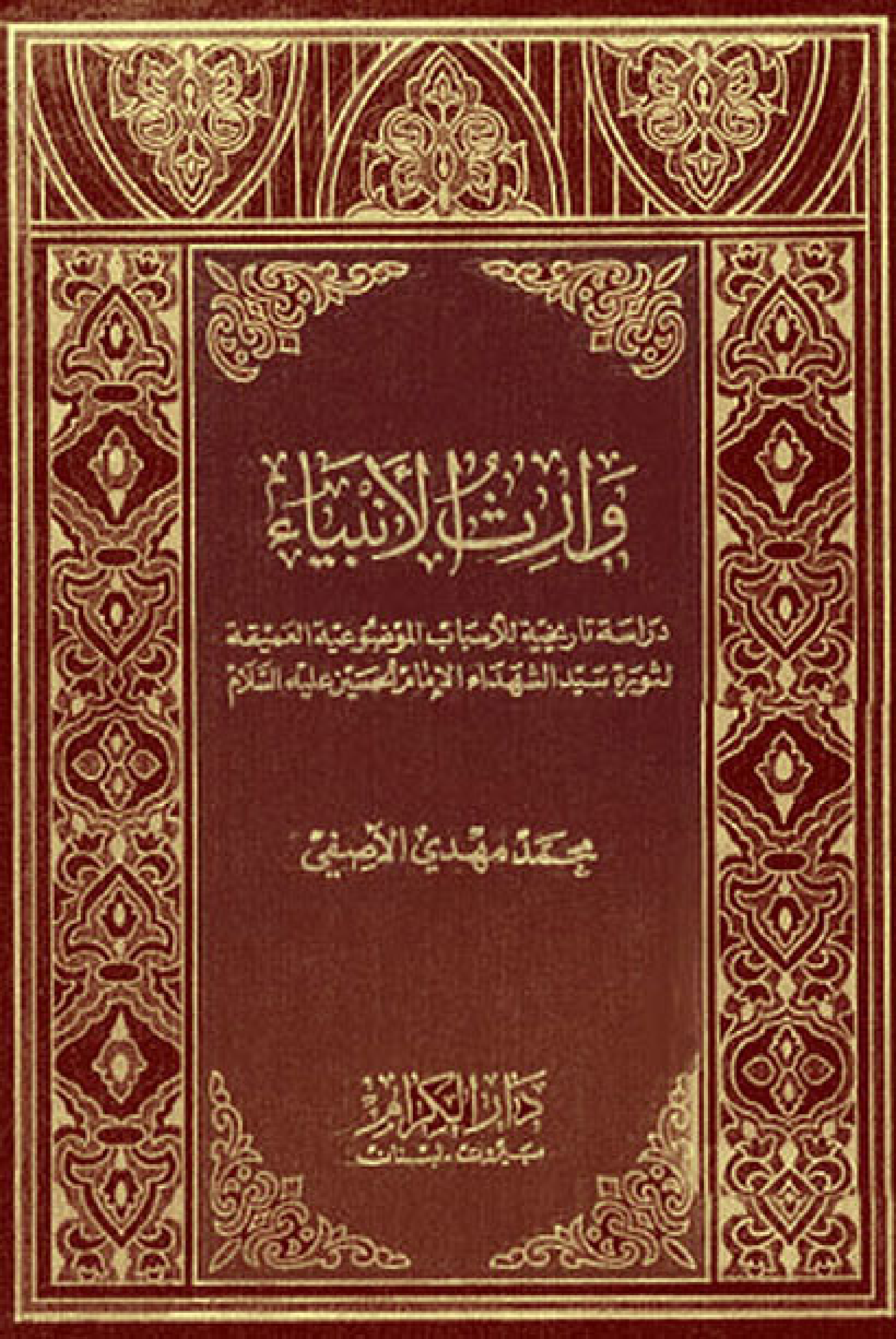
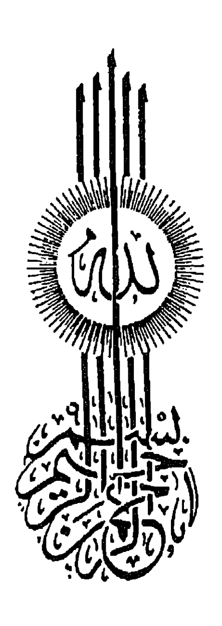

وارث الأنبياء
دراسة تاريخية للأسباب الموضوعية العميقة
لثورة سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام
محمد مهدي الآصفي
دار الكرام
بيروت - لبنان


وارث الأنبياء


الله
بسم الله الرحمن الرحيم



الكتاب الأول

وارث الأنبياء

دراسة تاريخية للاسباب الموضوعية العميقة لثورة سيد الشهداء الامام الحسين عليه السلام

محمد مهدي الآصفي


دار الكرام
بيروت - لبنان

مركز دراسات نهضة الإمام الحسين(ع)

الطبعة الأولى

١٤١٦ هجرية - ١٩٩٥ ميلاديه

الإهداء

لاول مرة سمعتُ زيارة (وارث) من أُميَ رحمها الله، عندما كنت صغيراً، ويومئذٍ لم أكن أعي معنى (وارث)، ولكنني احببت هذه الزيارة التي طالما كنت أسمعها منها، وهي تترنم بها في البيت.

واحببت يومئذٍ الأنبياء والأوصياء(عليهم السلام)، الذين ورد اسمهم في هذه الزيارة، واحببت الحسين(عليه السلام) «وارث الأنبياء».

فالى روحها الطاهرة أرفع ثواب هذا المجهود واسال الله تعالى أن يتقبله مني، وأن يتغمّدها برحمته الواسعة.

المؤلف

في ١٦/ ج٢/ ١٤١٢هـ

شكر وتقدير

قررت دار الكرام اعادة طبع كتاب (وارث الأنبياء) لسماحة العلامة الشيخ محمد مهدي الآصفي والذي نشر طبعته الأولى مركز دراسات نهضة الامام الحسين(ع) نظراً لاهمية الكتاب ورغبةً في نشره على اوسع نطاق ممكن.

تتقدم الدار بشكرها وتقديرها للاستاذ الشاعر مصطفى المهاجر على مابذله من جهود في الاشراف على طبع الكتاب وفي تنقيح وتصحيح اصوله ومسوداته متمنية له التوفيق والسداد في خدمة الكتاب الاسلامي، ومن الله التوفيق.

دار الكرام

مقدمة المركز

اذا كان لكل حدث أصول وجذور يمتد اليها، وعلل يرتبط بها، ناجماً عنها منفعلاً بها كافراز لها.. فان حدث الحركة الحسينية(بقيادة سبط نبي الأمة) بعد منتصف القرن الأول للّهجرة، هو أكثر الأحداث جذوراً، واوفرها اصولاً، واعمقها عللاً وأسباباً.. وكذلك هي اشدها اشعاعاً واثراها ثماراً لدى النظر إلى نتائجها.

ان كبريات الوقائع خلال عمر الانسانية تفرض على الدارسين لها التوقف الطويل عندها لبحث خلفياتها الخطيرة التي بلغت من الأهمية حداً بحيث أوجبت وقوعها.

الباحثون الانسانيون - فضلاً عن الاسلاميين - يتساءلون باهتمام عن الكيفية التي آلت اليها الأوضاع، إذ الاعداء الألدّاء لخاتم الأنبياء، يصبحون خلفاء له فيما بعد، وهم لم يلقوا السلاح ضده إلا بعد ان انتصر عليهم واطلق سراحهم، فهم لم يستقبلوا الاسلام برضى وقناعة، وانما هم مغلوبون استسلموا للأمر الواقع بعد هزيمة منكرة، ثم يصبحون هم - لاغيرهم - خلفاء لسيد المرسلين(ص)، ويقومون بقتل وتصفية أبناء خاتم الأنبياء وملاحقتهم باسم الدين والخلافة، ترى أية خلفية، أو

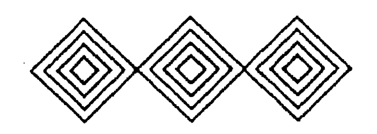
خلفيات كامنة وراء ذلك؟! وأية خلفيات تكمن وراء تفجير الحسين السبط(ع) لثورته الكبرى؟.

ويقوم هذا الكتاب بمحاولة جادة وعميقة لتناول هذا الموضوع: الخلفيات والجذور وهو من تأليف باحث كبير، عرف لدى القارئ المعاصر بحسن اختياره لموضوع بحثه وتحرّيه لتحليل الدوافع والعلل والأسباب، وتشهد للعلامة الشيخ محمد مهدي الآصفي مؤلفاته الكثيرة في مختلف الشؤون الاسلامية، خصوصاً مايتعلق بالمعارف القرآنية، والتي صدرت منها عدة أجزاء وما برح يلقي دروسه القرآنية باستمرار، وستصدر له اجزاء أخرى بهذا الشأن..

و«وارث الأنبياء(ع)» هو أول كتاب للعلامة الآصفي يصدر بهذه القضية الحسينية، ويليه الكتاب الثاني والثالث تباعاً ان شاء اللّه.. على اننا في هذه السطور لسنا نسعى للتعريف بالكاتب الكبير، فالشخصيات الحية لاتحتاج إلى تعريف للقارئ المعاصر بما قدمته له من عطاءات في دنيا التنوير الفكري..

وآخر دعوانا ان الحمد للّه رب العالمين

مركز دراسات
نهضة الإمام الحسين(عليه السلام)



- ١ -

وارث الأنبياء





تخصيص الحسين(ع) بصفة (وارث الأنبياء) من دون سائر الأئمة(ع) في زيارة «وارث» وفي غيرها من النصوص الواردة في زيارة الحسين(ع).. أمر يستوقف الإنسان ويثير في النفس التساؤل عن الخصوصية التي تستوجب هذا التخصيص، مع أنّ كل الأنبياء وكل الأئمة وكل الصالحين من عباد اللّه من حملة الدعوة.. هم ورثة الأنبياء.. من دون فرق.

فما الذي اقتضى تخصيص هذا اللقب بسيد الشهداء(ع) في الكثير من النصوص الواردة في زيارته؟

ان في الأمر سراً، وإن ايضاح ذلك يقتضي أن نعيد النظر باجمال وإمعان في تاريخ الصدر الأول من الإسلام حتى استشهاد الإمام الحسين(ع)، وفي طبيعة الحركة والثورة التي نهض بها وحققها بشهادته.

انقلاب شامل في القيم والتصورات

قام رسول اللّه(ص) بانقلاب شامل في حياة الناس بأمر من اللّه تعالى في كل من القيم والأفكار، والأعراف والأحكام والأخلاق والعلاقات وقام بهدم كامل للحياة الجاهلية بتصوراتها وقيمها وأعرافها وأحكامها، وبناء كامل للإسلام بكل تصوراته وأعرافه وأحكامه الجديدة.

وأعاد إلى حياة البشر ما انقطع من رافد الرسالات الالهية، وحمل إلى الناس تراث الأنبياء وميراثهم بعد أن حجبته الجاهلية عن حياة الناس.

وقد خطب رسول اللّه(ص) في حجة الوداع في مسجد نمرة من عرفات بالمسلمين وقال: «ان الزمان والسموات قد استدارا كهيئة يوم خلق اللّه السموات والأرض»(١).

وكأنما يريد رسول اللّه(ص) أن يقول بأن الزمان قد استدار دورة كاملة، وأن الإسلام قد أنهى كل ماتراكم على حياة الناس وتاريخهم من الجاهلية في هذه الفترة الطويلة، وأعاد الإسلام الفطرة الإنسانية الصافية والنقية إلى حياة الناس من جديد وهدم كل ما أقامته الجاهلية على وجه الأرض، فعاد كل شيء في حياة الناس إلى موضعه حيث وضعه اللّه تعالى من الفطرة والتكوين.

وقال صلى اللّه عليه وآله في نفس الموقف: «ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع»(٢). وهذا إعلان للإنهاء الكامل للجاهلية والتصفية الكاملة لها بكل أبعادها وأعماقها التاريخية والفكرية، وإحلال الإسلام محلّها في كل شيء، وهذا هو الإنقلاب الكبير في حياة البشرية في كل شيء، من الأصول إلى الفروع ومن الفكر إلى السلوك، وهو الذي يحدّثنا عنه القرآن الكريم في هذه الآية الكريمة: ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً** ﴾(٣).

وانقلاب آخر في المواقع

وإلى جانب هذا الإنقلاب الشامل في القيم والأفكار جاء رسول اللّه(ص) بانقلاب آخر من عند اللّه، في المواقع السياسية والإجتماعية والقيادية في حياة الناس، فرفع أُناساً تأصّلت وتكوّنت نفوسهم وتصوّراتهم في الإسلام، وفي الغالب كانت هذه الفئة مُستضعفة خاملة الذكر في الجاهلية، ووضع أُناساً آخرين كانوا

(١) السيرة الحلبية، ٣ / ٢٥٦ .
(٢) السيرة الحلبية، ٣ / ٣٦٥ .
(٣) الآية الثالثة من سورة المائدة نزلت بعد تنصيب الإمام أمير المؤمنين عليّ(ع) إماماً بعد رسول الله يوم غدير خم في ١٨ ذي الحجّة. راجع الغدير، ١ / ٢٣٠ .

في قمة الهرم الاجتماعي من قبلُ وفي مراكز القيادة والسيادة في الحياة الجاهلية، وكانوا يتوارثون أمجاد الجاهلية ومواقعها السياسية والإجتماعية، فالغى الإسلام دورهم والغى امتيازاتهم ومواقعهم التي كانوا يتمتّعون بها من قبل. وقد كان هذا الإنقلاب الثاني في المواقع الإجتماعية والسياسية ضرورياً لحماية الإنقلاب الأول في القيم والأفكار. فلابدّ لمثل هذا الإنقلاب الفكري الشامل ممّن يحميه ويدعمه وينفّذه ويحوّله إلى واقع متحرّك ملموس في الحياة الإجتماعية.

وقد كان جُلّ تفكير رسول اللّه(ص) واهتمامه هو ترسيخ هذه الثورة الربانية في حياة الناس، ولا يتم شيء من ذلك مالم يعهد أمر هذه الثورة في حياته ومن بعده إلى أيدٍ أمينة، تكوّنت في ظروف هذه الثورة الالهية وآمنت بها وتجرّدت لها، وتفاعلت معها... وهذه الفئة هي وحدها التي يمكن إناطة مسؤوليات قيادة وادارة وحماية الثورة بها، على الأقل في فترة الانتقال، ولا يمكن ائتمان الفئات التي تكوّنت في ظروف الحياة الجاهلية بأمر هذا الدين، إلا بمقدار ما يتم تأليفها به، وذلك أمر آخر لا يرتبط بهذه المهمة.

والمقاييس هنا في اختيار الأشخاص وإبرازهم تختلف اختلافاً كبيراً عن المقاييس الجاهلية في التقييم.

وكذلك كان الناس يتلقون الاختيارات النبوية بالاستغراب والانكار في بعض الأحيان، وكان الأمر يبلغ حدود التمرد أحياناً مما كان يؤذي رسول اللّه (ص).

أمثلة عن الإنقلاب في المواقع

نعرض هنا بعض النماذج من هذا الإنقلاب الإجتماعي في تقييم الأشخاص واختيارهم وإناطة المسؤوليات بهم:

١ – يروي الطبرسي[١]، أن أسعد بن زرارة وذكوان بن عبد قيس – وهما من الخزرج – أقبلا إلى مكة فالتقيا برسول اللّه (ص) به وطلبا منه أن يبعث إليهم مَن

(١) إعلام الورى للطبرسي، ص ٦٧ – ٦٨، وبحار الأنوار، ١٩ / ١٠

يعلّمهم القرآن.

(فقال رسول اللّه لمصعب بن عمير، وكان فتىً حدثاً مترفاً بين أبويه يكرمانه ويفضّلانه على أولادهما ولم يخرج من مكة. فلّما أسلم جفاه أبواه، وكان مع رسول اللّه(ص) في الشّعب حتى تغيّر وأصابه الجهد، فأمره رسول اللّه بالخروج مع أسعد، وقد كان تعلّم القرآن كثيراً، فخرج هو - ذكوان - مع أسعد إلى المدينة ومعهما مصعب بن عمير، وقدموا على قومهم وأخبروهم بأمر رسول اللّه وخبره، فأجاب من كل بطنٍ الرجل والرجلان)[1].

٢ - وولّى رسول اللّه على مكة - بعدما فتحها اللّه تعالى له - عتاب بن أُسيد، قد ثقل ذلك على ذوي المكانة والجاه من قريش من أهل مكة، وأسمعوا رسول اللّه(ص) في ذلك عتاباً ونقداً.

يقول الحلبي في السيرة:

«وولّى صلّى اللّه عليه وآله وسلّم عتاب بن أُسيد(رض) وعمره إحدى وعشرون سنة أمر مكة وأمره أن يصلي بالناس، وهو أول أمير صلّى بمكة بعد الفتح جماعة، وترك(ص) معاذ بن جبل(رض) بمكة معه معلّماً للناس السنن والفقه.

وفي الكشّاف عنه(ص) أنه استعمل عتاب بن أُسيد على أهل مكة، وقال: انطلق فقد استعملتك على أهل اللّه.. فكان رضي اللّه تعالى عنه شديداً على المريب ليّناً على المؤمن وقال: واللّه لا أعلم متخلّفاً يتخلّف عن الصلاة في جماعة إلا ضربت عنقه فانه لا يتخلّف عن الصلاة إلّا منافق.

فقال أهل مكة: يا رسول اللّه لقد استعملت على أهل اللّه عتاب بن أُسيد أعرابياً جافياً فقال(ص): إني رأيت في ما يرى النائم كأن عتاب بن أُسيد أتى باب الجنّة فأخذ بحلقة الباب فقلقلها قلقالاً شديداً حتى فُتح له، فدخلها فأعز اللّه به الإسلام»[2].

---

(١) إعلام الورى للطبرسي، ص ٦٧ - ٦٨، وبحار الأنوار ١٩ / ١٠ .
(٢) السيرة الحلبية، ٣ / ١٠٤ - ١٠٥، المكتبة الاسلامية - بيروت.

٣ - وأمر رسول اللّه (ص) عند فتح مكة: بلال الحبشي أن يؤذن للظهر على ظهر الكعبة، وأبو سفيان وخالد بن أُسيد والحرث بن هشام جلوس بفناء الكعبة، فقال خالد: لقد أكرم اللّه أُسيداً أن لا يسمع من هذا العبد ما يغيظه. وقال الحرث - في رواية -: وما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذّناً... فخرج عليهم النبي(ص) فقال: لقد علمتُ الذي قلتم(١).

٤ - واستعمل رسول اللّه أُسامة بن زيد على الجيش الذي انتدبه لغزو الروم في آخر حياته، وكان في الجيش كبار الصحابة وشيوخهم ووجوههم. يقول المجلسي: «فلم يبق أحد من وجوه المهاجرين والأنصار إلا انتدب في تلك الغزاة فيهم: أبو بكر، وعمر، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وأبو عبيدة، وقتادة بن النعمان، فتكلّم قوم وقالوا: يستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأولين. فغضب رسول اللّه(ص) غضباً شديداً، فخرج وقد عصّب على رأسه عصابة وعليه قطيفة، فصعد المنبر فحمد اللّه وأثنى عليه، ثم قال:

أما بعد أيها الناس فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأمير أسامة. ولئن طعنتم في تأميري أسامة فقد طعنتم في تأميري أباه قبله، وأيم اللّه إنه كان للإمارة خليقاً وإن ابنه من بعده لخليق للإمارة»(٢).

٥ - ومن بين كثير من وجوه قريش وصناديدها وزعمائها ووجوه المسلمين من العرب يفضل رسول اللّه فارسياً جاء من فارس (سلمان)، ورومياً (صهيب) وعبداً حبشياً (بلال) اشتراه أبو بكر وأعتقه، وقبطياً أسلم وعذب في سبيل اللّه (خباب).

روى المفيد قال: جرى ذكر سلمان وذكر جعفر الطيار بين يدي جعفر بن محمد عليه السلام وهو متكئ، ففضّل بعضهم جعفراً عليه وهناك أبو بصير، فقال بعضهم: «إن سلمان كان مجوسياً فأسلم» فاستوى أبو عبد اللّه جالساً مغضباً، وقال: يا أبا بصير جعله اللّه علوياً بعد أن كان مجوسياً وقرشياً بعد أن كان

---

(١) راجع تفصيل ذلك في السيرة الحلبية، ٣ / ١٠٤ .
(٢) بحار الأنوار، ٢١ / ٤١٠ .

فارسياً، فصلوات اللّه على سلمان، وإن لجعفر شأناً عند اللّه يطير مع الملائكة في الجنة[١].

روى مسلم، عن عائذ بن عمر، أن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال في نفر، فقالوا: واللّه ما أخذت سيوف اللّه من عنق عدو اللّه مأخذها، قال: فقال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟ فأتى النبي(ص) فأخبره. فقال: يا أبا بكر لعلك أغضبتهم؟ لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك؟ فأتاهم أبو بكر فقال: يا إخوتاه أغضبتكم؟ فقالوا: لا، يغفر اللّه لك يا أخي[٢].

وروي عن رسول اللّه(ص) في عمار بن ياسر رحمه اللّه: إن عماراً مُلئ ايماناً من قرنه إلى قدمه واختلط الإيمان بلحمه ودمه[٣].

عن عائشة قالت: ما أحد من أصحاب رسول اللّه إلا لو شئت لقلت فيه، ما خلا عماراً، فإني سمعت رسول اللّه(ص) يقول: مُليء إيماناً من قرنه إلى قدمه، وفي لفظ ابن عمر: مليء عمار إيماناً إلى أخمص قدميه. وفي لفظ له: إن عمار بن ياسر حُشّي مابين أخمص قدميه إلى شحمة أذنيه إيماناً[٤].

وأخرج الترمذي من فضائل أبي ذر رحمه اللّه عن رسول اللّه(ص) قال: قال رسول اللّه(ص): ما أظلّت الخضراء ولا أقلّت الغبراء من ذي لهجة أصدق ولا أوفى من أبي ذر شبه عيسى بن مريم، فقال عمر بن الخطاب كالحاسد: يارسول اللّه أفتعرف ذلك له؟ قال: نعم فاعرفوه له[٥].

وعن بريدة، عن رسول اللّه: إن اللّه عزوجل أمرني بحب أربعة وأخبرني أنه

---

(١) الإختصاص للمفيد، ٣٤١ . وبحار الأنوار ٢٢ / ٣٤٨ - ٣٤٩ .
(٢) صحيح مسلم ٧ / ١٧٣ ، دار الفكر - بيروت.
(٣) الغدير ٩ / ٢٤، عن حلية الأولياء لأبي نعيم ١ / ١٣٩، والكشاف ٢ / ١٧٦، وتفسير الصافي ١ / ٦٨٣ . وغيرها من المصادر.
(٤) الغدير ٩ / ٢٤ - ٢٥، عن الهيثمي في مجمع الزوائد ٩ / ٢٩٥ وقال رجاله رجال الصحيح.
(٥) سنن الترمذي ٥ / ٦٦٩ - ٦٦٧، طبعة مصطفى البابي.

يحبهم: عليّ وأبو ذر والمقداد وسلمان[١].

٦ - روى الحويزي في تفسير قوله تعالى: ﴿**واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه ولاتَعدُ عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تُطعْ من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتّبع هواه وكان أمره فُرُطا..**﴾[٢]. عن ابن مسعود قال سلمان وخباب: فينا نزلت هذه الآية. جاء الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصين الفزاري وذووهم من المؤلّفة (من مستكبري قريش الذين كان رسول اللّه(ص) يحاول أن يكسبهم بحطام الدنيا إلى الاسلام) فوجدوا النبي قاعداً مع بلال وصهيب وعثمان وخبّاب في ناس من ضعفاء المؤمنين فحقّروهم فقالوا: يارسول اللّه لو نحّيت هؤلاء عنك حتى نخلو بك، فأنزل اللّه عزوجل ﴿**واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم**﴾ فكان رسول اللّه(ص) يقعد معنا ويدنو حتى كادت ركبتنا تمسّ ركبته، فاذا بلغ الساعة التي يقوم فيها قمنا وتركناه حتى يقوم[٣].

وقال الطبرسي: نزلت الآية في سلمان وأبي ذر وصهيب وعمار وخباب وغيرهم من فقراء أصحاب النبي(ص) وذلك أن المؤلّفة قلوبهم جاؤوا إلى رسول اللّه (عيينة بن الحصين والأقرع بن حابس وذووهم) فقالوا: يارسول اللّه إنْ جلست في صدر المجلس ونحيّت عنا هؤلاء وروائح صنانهم[٤]، وكانت عليهم جباب الصوف، جلسنا نحن اليك وأخذنا عنك، فلا يمنعنا من الدخول عليك إلا هؤلاء. فلما نزلت الآية قام النبي(ص) يلتمسهم فأصابهم في مؤخر المسجد يذكرون اللّه عزّ وجل. فقال الحمد للّه الذي لم يُمِتني حتى أمرني أن أُصبّر نفسي مع رجال من أمتي، معكم المحيا ومعكم الممات[٥].

---

(١) الغدير ٨ / ٣١٤، عن الترمذي في الصحيح ٢ / ٢١٣، وابن ماجه في السنن ١ / ٦٦ والحاكم في المستدرك ٣ / ١٣٠ وصحّحه أبو نعيم في الحلية ١ / ١٧٢، وأبو عمرو في الإستيعاب ٢ / ٥٥٧ .

(٢) سورة الكهف ٢٨ .

(٣) تفسير نور الثقلين للحويزي ٣ / ٢٥٧ .

(٤) أي نتن آباطهم.

(٥) مجمع البيان للطبرسي ٣ / ٤٦٥ .

وفي تفسير علي بن ابراهيم: وأما قوله عزوجل: ﴿**واصْبر نفسك**﴾ فهذه نزلت في سلمان الفارسي(رض)، وكان عليه كساء يكون فيه طعامه وهو دثاره ورداؤه، وكان كساء من صوف، فدخل عيينة بن حصين على النبي(ص) وسلمان(رض) عنده، فتأذّى عيينة.. فقال: يارسول اللّه إذا نحن دخلنا عليك فأخرج هذا واصرفه من عندك، فاذا نحن خرجنا فأدخل من شئت، فأنزل اللّه عزوجل ﴿**ولا تُطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا**﴾ وهو عيينة بن حصين بن حذيفة بن بدر الفزاري[١].

انقلاب شامل في الهرم الاجتماعي

والذي يتتبّع سيرة رسول اللّه(ص) يجد في حياته إلى جانب الإنقلاب الشامل الذي جاء به من عند اللّه في الفكر والسلوك وفي حياة الناس، انقلاباً آخر في الهرم الإجتماعي والتركيب السياسي للمجتمع، جعل الداني عالياً والعالي دانياً، والحاكم محكوماً والمحكوم حاكماً، ورفع إلى قمة الهرم الإجتماعي من كان يقع في قاعدة الهرم من المستضعفين والمحرومين ووضع من كان في قمة الهرم[٢] من المستكبرين المترفين.

ولعل الآيات الأوائل من سورة القصص التي تشرح أبعاد الإنقلاب الالهي التي جاء بها موسى عليه السلام من عند اللّه إلى قومه من بني اسرائيل تعطينا تصوّراً كافياً عن عمق وأبعاد الإنقلاب الذي جاء به رسول اللّه(ص) في بناء المجتمع الاسلامي الجديد على أنقاض المجتمع الجاهلي.

﴿**ونريد أن نمنَّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين ونمكّن لهم في الأرض ونُري فرعون وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون**﴾[٣]، وكان هذا الإنقلاب الثاني ضرورياً لحماية وحراسة الإنقلاب

---

(١) تفسير علي بن ابراهيم القمي ٢ / ٣٥، ط مطبعة النجف ١٣٨٧هـ
(٢) التعبير بالهرم تعبير مستعار وغير دقيق عن طبيعة وتركيبة المجتمع الاسلامي التجأنا اليه لضرورة بيان عمق وأبعاد الإنقلاب الاسلامي في المجتمع.
(٣) سورة القصص، ٥ و٦ .

الأوّل ولعله ليس ببعيد عن ذلك قوله تعالى لإبراهيم عليه السلام عندما طلب الإمامة لأبنائه وذريته: ﴿لاينال عهدي الظالمين﴾[١]، فلا يمكن أن ينال عهد اللّه الظالمين الذين قضوا شطراً من حياتهم في الانحراف والظلم، وترسّبت الجاهلية في أعماق نفوسهم وتمكّنت منهم، وتفاعلوا معها.

وقد كان أبو سفيان وزوجته ومعاوية ابنه وطغاة بني أمية في الجاهلية من الذين حاربوا رسول اللّه(ص) وأعلنوا الحرب عليه وعلى دعوته وألّبوا عليه الناس فازالهم الإسلام عن مواقعهم التي كانوا عليها في المجتمع الجاهلي والغى دورهم في الحياة الاجتماعية والسياسية في المجتمع الاسلامي الجديد القائم على أنقاض المجتمع الجاهلي. فلا يمكن أن يأتمن هذا الدين أناساً عادَوا هذه الدعوة ووقفوا في وجهها، وألّبوا الناس في الأمس القريب على قيم الدعوة وأفكارها وقواعدها وإمكاناتها.

فإن الإسلام قد رفع أُناساً كانوا من قبل موضع احتقار المجتمع الجاهلي ووضع أُناساً كانوا من قبل على قمّة الهرم الإجتماعي.

قال المسعودي: بلغ أبا بكر(رض)، عن أبي سفيان صخر بن حرب أمر فأحضره، وأقبل يصيح عليه وأبو سفيان يتملّقه ويتذلّل له، وأقبل أبو قحافة فسمع صياح أبي بكر فقال لقائده: على من يصيح ابني؟ فقال له: على أبي سفيان فدنا من أبي بكر وقال: أعلى أبي سفيان ترفع صوتك ياعتيق اللّه؟ وقد كان بالأمس سيد قريش في الجاهلية، لقد تعدّيت طورك وجزت قدرك. فتبسّم أبو بكر ومن حضره من المهاجرين والأنصار. وقال له: يا أبتي إن اللّه قد رفع بالإسلام قوماً وأذلّ آخرين[٢].

وفي رواية أخرى:

قال أبو بكر: يا أبا قحافة إن اللّه بنى بالإسلام بيوتاً كانت غير مبنيّة وهدم به بيوتاً كانت في الجاهلية مبنية، وبيت أبي سفيان مما هدم[٣].

---

(١) سورة البقرة، ١٢٤ .
(٢) مروج الذهب للمسعودي ٢ / ٢٩٩، دار الأندلس بفهارس يوسف أسعد داغر.
(٣) الغدير ٢ / ٢٥٣، الطبعة الثانية.

- ٢ -

الانتكاسة



فماذا جرى في حياة المسلمين بعد رسول اللّه(ص)؟

لقد حدثت انتكاسة مريرة في تاريخ هذه الدعوة بعد وفاة رسول اللّه(ص) واستطاعت هذه الفئة المستكبرة والمترفة من بني أمية وغيرهم من الذين عادوا الإسلام طويلاً وحاربوا رسول اللّه(ص) وألّبوا الناس عليه أن يستعيدوا مواقعهم ونفوذهم ومركزهم في المجتمع الإسلامي الجديد، بعد أن عزلتهم الدعوة عن مواقعهم وجرّدتهم من نفوذهم وسلطانهم وألغت دورهم السياسي والاجتماعي إلغاءً كاملاً، ومنهم من أهدر رسول اللّه(ص) دمه. وإذا علمنا أن هذه الانتكاسة كانت في الأدوار الأولى من حياة الدعوة، نعرف مدى خطر عودة هذه الطبقة إلى قمة الهرم الإجتماعي في المجتمع الإسلامي والأثر السلبي الذي تتركه في أفكار الدعوة وقيمها وتصوراتها وأحكامها.

وإذا علمنا أن هذه الفئة عادت إلى مراكزها الأولى من موقع الخلافة الإسلامية وما لها من قدسية وشرعية في نظر المسلمين، وأنها حاولت وعملت لتغيير مفاهيم وتصورات وأحكام الدعوة من خلال موقع الخلافة الإسلامية وما لها من الشرعية والقوة والنفوذ في المجتمع الاسلامي.. عرفنا الخطر الذي كان يهدد الرسالة من جرّاء عودة هذه الطبقة إلى مواقع النفوذ والتأثير في المجتمع.

لقد قامت هذه الفئة، بعزل الطبقة التي تكوّنت في فترة نشأة هذه الدعوة ومعاناتها وعملت على تصفية هذه الطبقة والقضاء عليها، وإحلال آخرين كانوا يحاربون هذا الدين ويكيدون لرسول اللّه(ص) محلها، وقامت بتغيير وتحريف الكثير من الأعراف والتصورات والمفاهيم والأحكام التي جاءت بها الدعوة في

حياة الناس، ومارست كل هذه العملية التحريفية الواسعة من خلال الموقع الشرعي والرسمي للمجتمع الإسلامي الجديد (الخلافة الإسلامية) وبلغ هذا الخطر الذي كان يهدد الدعوة الإسلامية أقصاه في عهد يزيد بن معاوية الحاكم الأموي المعروف.

وقد كان يزيد يباشر المنكرات بصورة علنية من السُكر واللّهو المحرم والاستهانة بحُرمات اللّه وقتل النفوس البريئة وتحريف الإسلام، وكان يفعل كل ذلك من خلال الموقع الرسمي والشرعي الذي أحلّه أبوه معاوية فيه.. وكان ذلك يشكّل الخطر الحقيقي على أصل الدعوة وميراث الأنبياء والمرسلين.

فلم يكن يزيد بأفعاله وأفكاره يعتبر خطراً على الرسالة لو كان يُقدم على كل ما أقدم عليه من غير هذا المنطلق ومن غير هذا الموقع. وما أكثر الذين حاربوا الإسلام أو حاولوا تحريفه وتعكيره دون أن يتمكّنوا من أن يفعلوا شيئاً ولكن يزيد بن معاوية كان يرتكب هذه المنكرات ويشيع الفساد في البر والبحر، ويعبث في دين اللّه من موقع خلافة رسول اللّه(ص).

وهذا الخطر هو الذي كان الحسين(ع) يشعر به، ويحذّر منه، وقد قال للوليد بن عتبة بن أبي سفيان عامل بني أمية على المدينة لما دعاه إلى مبايعة يزيد: «أيها الأمير إنا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة بنا فتح اللّه وبنا ختم. ويزيد رجل فاسق، شارب الخمر، قاتل النفس المحترمة، معلن للفسق، ومثلي لايبايع مثله»[1].

وكان الحسين(ع) يشعر أنه الوارث لهذه المسيرة الربانية الكبرى على وجه الأرض، وأن يزيد بن معاوية، ومن خلال موقع الخلافة يعمل على تحريف هذه المسيرة ومصادرة مواريث الأنبياء والمرسلين، وتغيير أفكارها وتصوراتها وأصولها وأعرافها بما يأتي وما يشيع وما يدعو إليه من الفساد والمنكرات.

ولابد أن يعمل الحسين(ع) لإنقاذ هذه المسيرة الالهية على وجه الأرض من

(١) الوثائق الرسمية لثورة الإمام الحسين، للسيد عبد الكريم القزويني، ٤٣ نقلاً عن مقتل الحسين للسيد محسن الأمين، ٢٣ .

يزيد.. والحسين(ع) أكثر من غيره يشعر بثقل المسؤولية.. فهو ابن هذه المسيرة الطويلة المباركة في التاريخ، وهو يرى نفسه جزءاً لايتجزأ من هذه الأسرة ومن هذه المسيرة وأنه يتحمّل ثقل المسؤولية في المحافظة على هذا الميراث من الضياع والإنحراف، وفي المحافظة على الأمة التي جعلها اللّه تعالى أمّة وسطاً شاهدة على سائر الأمم وحافظة لها من السقوط والضياع.. في ممر ضيّق من ممرات التاريخ، وفي وسط عاصفة سياسية كادت أن تذهب بكل شيء.. لولا ثورة الطف العظيمة.

وهذا إجمال لابد له من تفصيل، وإيجاز لابد له من شرح وتبسيط وشواهد واليك ذلك:

استغلّ بنو أمية ضعف الخليفة الثالث في استعادة كل مواقعهم الإجتماعية والمالية والسياسية التي كانوا يتمتعون بها في الجاهلية والتي جرّدهم الإسلام منها.. فوجدوا في ميل الخليفة إلى أهله وذويه وحبه وايثاره لهم، وفي ضعفه وكبر سنه فرصة ليستعيدوا مافقدوا من مكانة وعزّة وسلطان ومال في الإسلام، ووجدوا فيما منحهم الخليفة من ثقته المطلقة ومن السلطان والمال مايكفي لاستعادة عزّهم ونفوذهم وسلطانهم في المجتمع الجديد.

روى ابن عبد البر: أن أبا سفيان دخل على عثمان حين صارت الخلافة إليه فقال: قد صارت إليك بعد تيم وعدي، فأدرها كالكرة، واجعل أوتادها بني أمية، فإنما هو الملك ولا أدري ما جنّة ولا نار.

فصاح به عثمان: قم عني فعل اللّه بك وفعل[1].

وقد مكّن الخليفة أهله وذويه من بني أمية وآل أبي معيط من بيت مال المسلمين، ومن أعمالهم وولاياتهم واستطاع بنو أمية أن يتسلّقوا سلّم المال والسلطان إلى كل ما تشتهيه أنفسهم وتطمح اليه أهواؤهم.

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البر لهامش الاصابة مطبعة السعادة، الطبعة الأولى ١٣٢٨هـ المجلد ٤ / ٨٧ . ثم قال ابن عبد البر: وله أخبار من نحو هذا رديئة، ذكرها أهل الأخبار لم أذكرها، وفي بعضها مايدل على أن إسلامه لم يكن اسلاماً صحيحاً.

يقول الشيخ محمد مهدي شمس الدين: «إن عثمان أسند إلى آله وذويه الولايات الكبرى في دولة الخلافة وهي البصرة والكوفة والشام ومصر. وهذه الولايات الأربع هي الولايات ذات المنزلة العظيمة في الحرب والاقتصاد والاجتماع، فهي مركز الثروة المالية والزراعية لدولة الخلافة، منها تُحمل الأموال والأقوات وهي مركز تجمع الجيوش الاسلامية الوافدة من شتى بقاع الدولة.

لقد ولّى عثمان على البصرة ابن خاله عبد الله بن عامر بن كريز، وعمره خمس وعشرون سنة، وولّى على الكوفة أخاه الوليد بن عقبة بن أبي معيط، ثم عزله تحت ضغط الرأي العام بعد أن ثبت عليه شرب الخمر والتهتّك وولّى مكانه سعيد بن العاص.

وكان معاوية عاملاً لعمر على دمشق والأردن، فضمّ اليه عثمان ولاية حمص وفلسطين والجزيرة، وبذلك مدّ له من أسباب السلطان إلى أبعد مدى مستطاع، وولّى مصر أخاه من الرضاعة عبد الله بن سعد بن أبي سرح»[1].

(ولم يكن ولاة عثمان هؤلاء من ذوي السابقة في الدين والجهاد في الاسلام، وانما كانوا متّهمين في دينهم بل كان فيهم من أمره في الفسق ورقّة الدين معروف مشهور. كان فيهم عبد الله بن سعد الذي بالغ في إيذاء النبي والسخرية منه، وبالغ في الهزء بالقرآن حتى نزل القرآن بكفره، والوليد بن عقبة ممن أمرهم في الفسق معروف مشهور، وقد نزل فيه قرآن يعلن فسقه)[2].

ولم يكن عثمان يؤْثر فقط بني أمية وآل أبي معيط والطبقة المترفة من قريش بالسلطان والولاية، وإنما كان يؤثرهم بما اؤتمن عليه من أموال بيت المال بكميات كبيرة خارجة عن مألوف الهبات والعطايا في تلك الأيام، مما أثار سخط المسلمين واستنكارهم وغضبهم ومما أدّى إلى ظهور طبقة مترفة في الوسط الإسلامي.

يقول ابن أبي الحديد المعتزلي في خلافة عثمان بن عفان:

«بايعه الناس بعد انقضاء الشورى واستقر الأمر له وصحّت فيه فراسة عمر، فانه

---

(١) ثورة الحسين للشيخ محمد مهدي شمس الدين، ص ٤٠ .
(٢) نفس المصدر، ص ٤١ - ٤٢ .

أوطأ لبني أمية رقاب الناس وولّاهم الولايات وأقطعهم القطائع وافتتحت افريقية في أيّامه، فأخذ الخمس كلّه فوهبه لمروان، وطلب منه عبد اللّه بن خالد بن أسيد صلة فأعطاه أربعمائة ألف درهم، وأعاد الحَكم بن أبي العاص بعد أن كان رسول اللّه(ص) قد سيّره ولم يردّه أبو بكر ولا عمر وأعطاه مائة ألف درهم، وتصدّق رسول اللّه(ص) بموضع سوق بالمدينة يُعرف بمهزور على المسلمين فأقطعه عثمان الحارث بن الحكم أخا مروان بن الحكم، وأقطع مروان (فدكاً) وقد كانت فاطمة عليها السلام طلبتها بعد وفاة أبيها صلوات اللّه عليه تارة بالميراث وتارة بالنحلة فدُفِعَت عنها. وحمى المراعي حول المدينة كلها من مواشي المسلمين كلهم إلا عن بني أمية، وأعطى عبد اللّه بن أبي سرح جميع ما أفاء اللّه عليه من فتح افريقية بالمغرب، وهي من طرابلس الغرب إلى طنجة من غير أن يشركه فيه أحد من المسلمين.

وأعطى أبا سفيان بن حرب مائتي ألف من بيت المال، وقد كان زوّجه ابنته أم ابان. فجاء زيد بن أرقم صاحب بيت المال بالمفاتيح فوضعها بين يدي عثمان وبكى فقال عثمان: أتبكي أن وصلت رحمي؟ قال: لا، ولكن أبكي لأني أظنك إنك أخذت هذا المال عوضاً عما كنت أنفقته في سبيل اللّه في حياة رسول اللّه(ص) واللّه لو أعطيت مروان مائة درهم لكان كثيراً. فقال: الق المفاتيح يا بن ارقم فإنا سنجد غيرك.

وأتاه أبو موسّى بأموال من العراق جليلة فقسّمها كلها في بني أمية وأنكح الحارث بن الحكم ابنته عائشة فأعطاه مائة ألف من بيت المال أيضاً بعد صرفه زيد بن أرقم عن خزنه»[1].

ومروان بن الحكم الذي استوزره الخليفة والذي كان يغدق له العطاء قد صحّ عن رسول اللّه(ص) لعنه[2].

وأما أبوه الحكم فقد روى البلاذري: «أن الحكم بن أبي العاص كان جاراً

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١ / ١٩٨ - ١٩٩، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.
(٢) عن الحاكم في المستدرك ٤ / ٤٩٧ .

لرسول اللّه في الجاهلية، و كان أشد جيرانه أذىً له في الإسلام.. فكان يمر خلف رسول اللّه فيغمز به ويحكيه ويخلج بأنفه وفمه وإذا صلّى قام خلفه فأشار بأصابعه.. واطّلع على رسول اللّه ذات يوم وهو في بعض حجر نسائه فعرضه، وخرج اليه بعنزه، وقال: من هذا الوزغ اللعين؟ ثم قال: لايساكنني ولا ولده فغرّبهم إلى الطائف.

فلما قبض رسول اللّه كلّم عثمان أبا بكر فيهم وسأله رّهم فأبى ذلك وقال: ماكنت لآوي طُرداء رسول اللّه، ثم لما استخلف عمر كلّمه فيهم، فقال مثل قول أبي بكر، فلما استخلف عثمان أدخلهم المدينة، وقال: قد كنت كلمت رسول اللّه فيهم وسألته ردّهم فوعدني أن يأذن لهم فقبض قبل ذلك، فأنكر المسلمون عليه ادخاله إياهم المدينة»[١].

وأما عبد اللّه بن سعد بن أبي سرح أخو الخليفة من الرضاعة، والذي أعطاه الخليفة خمس غنائم افريقية، فقد أسلم قبل الفتح وهاجر ثم ارتدّ مشركاً، فلما كان يوم الفتح أهدر رسول اللّه(ص) دمه فيمن أهدر من مجرمي قريش حتى لو وجد تحت ستار الكعبة فتوسّط عثمان في أمره عند رسول اللّه فقبل رسول اللّه(ص) شفاعته بعد لأي وصمت[٢].

وأعطى الخليفة لسعيد بن العاص بن أمية مائة ألف درهم. وقد كان أبوه العاص من أكثر الناس ايذاءً لرسول اللّه في مكة[٣].

وأعطى أخاه من أمه الوليد بن عقبة بن أبي معيط ما استقرضه من عبد اللّه بن مسعود من بيت مال المسلمين في الكوفة.

وعهذا غيض من فيض عطايا الخليفة من بيت المال لذويه وأهل بيته من بني أمية وآل أبي معيط، ولا سبيل لإنكار ذلك أو التشكيك - فيما ذكره المؤرخون -

---

(١) الغدير، ٨ / ٢٣٤، وعلي ومناوئوه للدكتور نوري جعفر، ص ٩٥ نقلاً عن أنساب الأشراف للبلاذري ٥ / ٢٧ .

(٢) راجع الغدير ٨ / ٢٨٠، نقلاً عن سنن أبي داود ٢ / ٢٢٠، وأنساب الأشراف ٥ / ٤٩ والمستدرك للحاكم ٣ / ١٠٠، والاستيعاب ١ / ٣٨١ .

(٣) راجع الغدير ٨ / ٢٦٩ - ٢٧٠ .

من تبذير الخليفة في بيت المال وإيثاره أهله وذويه بأموال المسلمين.

يقول الدكتور طه حسين:

«ولسنا بحاجة إلى أن نناقش في صحة ماجاءت به الرواية من أن عثمان أعطى مروان بن الحكم خمس الغنيمة التي غنمها المسلمون في أفريقية، ومن أنه أعطى الحكم عمّه وأعطى ابنه الحارث ثلاث مائة ألف وأعطى عبد اللّه بن خالد بن أُسيد الأموي ثلاث مائة ألف.

وأعطى كل واحد من الذين وفدوا مع عبد اللّه بن خالد مائة ألف.

وأعطى الزبير بن العوّام ستمائة ألف.

وأعطى سعيد بن العاص مائة ألف وزوّج ثلاثاً أو أربعاً من بناته لنفر من قريش فأعطى كل واحد منهم مائة ألف دينار»[1].

ويطول الحديث بنا إذا أردنا أن نستقصي عطايا الخليفة وهباته لأهله وذويه من بني أمية وتمكينه لهم في البلاد.

فقد أتاح الخليفة لبني أمية فرصة العودة إلى الحياة السياسيه والاجتماعية في المجتمع الإسلامي من جديد، وجمع لهم بين المال والسلطان والنفوذ. وفي أيامه عادت هذه الطبقة إلى مواقعها الإجتماعية قبل الإسلام، وأعادت إلى المجتمع الإسلامي القيم الطبقية والترف والبذخ والإسراف التي كان قد قضى عليها الإسلام، وما يستتبع الترف والبذخ في حياة الطبقة المترفة من بطر ورياء وغرور وطيش وانشطار المجتمع إلى أقلية مترفة وأكثرية محرومة ومستضعفة.

يقول المسعودي:

«وفي أيام عثمان اقتنى جماعة من الصحابة الضياع والدور، منهم: الزبير بن العوام، بنى داره بالبصرة وهي المعروفة في هذا الوقت - وهو سنة ٣٣٢هـ - .. وابتنى أيضاً دوراً بمصر والكوفة والإسكندرية وبلغ مال الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار، وخلّف الزبير ألف فرس وألف عبد وأمة وخططاً حيث ذكرنا من

(١) الفتنة الكبرى: عثمان بن عفان، طه حسين، ١٩٣ .

الأمصار.

وكذلك طلحة بن عبد اللّه التميمي ابتنى داره بالكوفة المشهورة به هذا الوقت والمعروفة بالكناسة بدار الطلحيين وكان غلته من العراق كل يوم ألف دينار وقيل أكثر من ذلك وبناحية الشراة أكثر مما ذكرنا، وشيّد داره بالمدينة وبناها بالآجر والجص والساج.

وكذلك عبد الرحمن بن عوف الزهري ابتنى داره ووسّعها وكان على مربطه مائة فرس، وله ألف بعير وعشرة آلاف شاة من الغنم، وبلغ بعد وفاته ربع ثمن ماله أربعة وثمانين ألفاً.

وقد ذكر سعيد بن المسيب أن زيد بن ثابت حين مات خلّف من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس غير ما خلّف من الأموال والضياع بقيمة مائة الف دينار، ومات يعلى بن منبه وخلّف خمسمائة ألف دينار وديوناً على الناس وعقارات وغير ذلك من التركة ماقيمته ثلاثمائة ألف دينار.

وهذا باب يتّسع ذكره ويكثر وصفه فيمن تملّك من الأموال في أيامه - أي أيام عثمان - »[1].

وجاءت هذه الطبقة المترفة من قريش إلى الحياة الإسلامية بالكثير من التصرفات والتصورات المجافية لروح الإسلام وأحكامه ونصوصه.. والتي واجهتها الأمة أول الأمر بالانكار والغضب وحتى الثورة ثم لما امتد سلطان بني أمية تطبّع الناس عليها وفقدوا المناعة الإسلامية التي كانت تحميهم منها من قبل.

ولقد كان الخليفة الثاني عمر بن الخطاب يتنبأ بما سوف يحدثه بنو أمية من فساد في الدين إذا تولوا أمور المسلمين.

يقول المغيرة بن شعبة: قال لي عمر يوما: «يامغيرة هل أبصرت بعينك العوراء منذ أصيبت؟ قلت: لا.

قال أما واللّه ليعورنّ بنو أميه (هذا الدين) كما اعورّت عينك، ثم ليعمينّه حتى

(١) مروج الذهب، ٢ / ٣٣٢ و٣٣٤، الطبعة التي وضع فهارسها يوسف أسعد داغر.

لايدري أين يذهب ولا أين يجيء»[١].

ويقول ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة فيما صنع الخليفة وما كان يقول وهو على فراش الموت: «ثم أقبل على عثمان، فقال: هيّا إليك كأني بك قد قلّدتك قريش هذا الأمر، فحملت بني أمية وبني أبي معيط على رقاب الناس وآثرتهم بالفيء»[٢].

يقول ولهاوزن: «والمأخذ الدائم الذي يؤخذ على الأمويين هو أنهم كانوا اصولاً وفروعاً أخطر أعداء للنبي(ص) وانهم اعتنقوا الإسلام في آخر ساعة مرغمين. ثم افلحوا في أن يحولوا إلى انفسهم ثمرة حكم الدين اولاً بضعف عثمان، ثم بحسن استخدام نتائج قتله»[٣].

ولسيد قطب كلام في تقييم خلافة عثمان بن عفان والآثار التي ترتبّت عليها في تاريخ الإسلام أود أن أنقله بطوله وتفصيله لما له من الأهمية في رسم معالم هذه الفترة من تاريخ الإسلام وآثار ذلك لما بعد هذه الفترة من تاريخ الاسلام.

يقول سيد قطب: «لقد ادركت الخلافة عثمان وهو شيخ كبير، ومن ورائه مروان بن الحكم يصرّف الأمر بكثير من الإنحراف عن الإسلام. كما أن طبيعة عثمان الرخيّة، وحدبه الشديد على أهله قد ساهما كلاهما في صدور تصرفات أنكرها الكثيرون من الصحابة من حوله وكانت لها معقّبات كثيرة وآثار في الفتنة التي عانى الإسلام منها كثيراً.

منح عثمان من بيت المال زوج ابنته الحارث بن الحكم يوم عرسه مائتي الف درهم فلما أصبح الصباح جاءه زيد بن الأرقم خازن مال المسلمين، وقد بدا في وجهه الحزن وترقرقت في عينه الدموع، فسأله أن يعفيه من عمله، ولما علم منه السبب وعرف انه عطيته لصهره من مال المسلمين، قال مستغرباً:

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ط دار الكتب العربية بمصر، عن الموفقيات للزبير بن بكار.
(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ط دار الكتب الكبرى بمصر، ٣ / ١٧٠ .
(٣) ثورة الحسين للشيخ محمد مهدي شمس الدين نقلاً عن الدولة العربية لولهاوزن، ٥٣ .

(أتبكي يا ابن ارقم أن وصلت رحمي؟) فرد الرجل الذي يستشعر روح الإسلام المرهف: (لا يا أمير المؤمنين. ولكن أبكي لأني أظنك أخذت هذا المال عوضاً عما كنت أنفقته في سبيل اللّه في حياة رسول اللّه. واللّه لو أعطيته منه درهماً لكان كثيراً)، فغضب عثمان على الرجل الذي لايطيق ضميره هذه التوسعة من مال المسلمين على أقارب خليفة المسلمين وقال له: (ألق بالمفاتيح يا ابن ارقم فإنا سنجد غيرك)!!

والأمثلة كثيرة في سيرة عثمان على هذه التوسعات، فقد منح الزبير ذات يوم ستمائة ألف ومنح طلحة مائتي ألف، ونفّل مروان بن الحكم خُمس خراج افريقية ولقد عاتبه في ذلك ناس من الصحابة على رأسهم عليّ بن أبي طالب، فأجاب: (ان لي قرابة ورحماً) فأنكروا عليه وسألوه: (فما كان لأبي بكر وعمر قرابة ورحم؟) فقال: (إن أبا بكر وعمر كانا يحتسبان في منع قرابتهما، وأنا احتسب في اعطاء قرابتي) فقاموا عنه غاضبين يقولون: (فهديهما واللّه أحب الينا من هديك).. وغير المال كانت الولايات تغدق على الولاة من قرابة عثمان وفيهم معاوية الذي وسّع عليه في الملك، فضم اليه فلسطين وحمص، وجمع له قياده الأجناد الأربعة، ومهّد له بعد ذلك أن يطلب الملك في خلافة عليّ، وقد جمع المال والأجناد. وفيهم الحكم بن العاص طريد رسول اللّه الذي آواه عثمان وجعل ابنه مروان بن الحكم وزيره المتصرّف، وفيهم عبد اللّه بن سعد بن أبي سرح أخوه من الرضاعة.. الخ.

ولقد كان الصحابة يرون هذه التصرفات الخطيرة العواقب، فيتداعون إلى المدينة لانقاذ تقاليد الاسلام، وانقاذ الخليفة من المحنة، والخليفة في كبرته لايملك أمره من مروان)[١]

(عندئذ ثار الروح الاسلامي في نفوس بعض المسلمين، يمثلهم أشدّهم حرارة وثورة أبو ذر ذلك الصحابي الجليل، الذي لم تجد هيئة الفتوى المصرية في الزمن الأخير، إلا أن تخطئه في اتجاهه، وإلا أن تزعم لنفسها بصراً بالدين أكثر من بصره

(١) العدالة الاجتماعية في الاسلام لسيد قطب، ٢١٠ و٢١١ .

بدينه! ثم عادت - في مناسبة أخرى - فأصدرت فتوى بصواب اتجاهه، عندما تغيّرت الظروف الأولى كأن دين اللّه سلعة تتجر بها الهيئة في سوق الرغبات.

قام أبو ذكر ينكر على المترفين ترفهم الذي لايعرفه الإسلام، وينكر على معاوية وأمية خاصة سياستهم التي تقر هذا الترف وتستزيد منه، وتتمرّغ فيه، وينكر على عثمان نفسه أن يهب من بيت المال المئات والألوف فيزيد في ثراء المثرين وترف المترفين.

علم أن عثمان أعطى مروان بن الحكم خمس خراج افريقية والحارث بن الحكم مائتي ألف درهم، وزيد بن ثابت مائة الف درهم.. وما كان ضمير أبي ذر ليطيق شيئاً من هذا كله فانطلق يخطب في الناس:

«لقد حدثت أعمال ما أعرفها واللّه ماهي في كتاب اللّه ولا في سنّة نبيه، واللّه إني لأرى حقاً يُطفأ وباطلاً يحيا، وصادقاً مكذّباً، وأثَرة بغير تقى.. يا معشر الأغنياء واسوا الفقراء، وبشّر الذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها في سبيل اللّه بمكاوي من النار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم.. ياكانز المال اعلم أن في المال ثلاثة شركاء: القدر لايستأمرك أن يذهب بخيرها أو شرها من هلاك أو موت، والوارث ينتظر أن تضع رأسك ثم يستاقها وأنت ذميم، وأنت الثالث، إن استطعت ألا تكون أعجز الثلاثة فلا تكن... إن اللّه عزوجل يقول ﴿**لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبّون**﴾ اتخذتم ستور الحرير ونضائذ الديباج، وتأملتم الإضطجاع على الصوف الأذربي وكان رسول اللّه ينام على الحصير، واختلف عليكم بألوان الطعام، وكان رسول اللّه لايشبع من خبز الشعير».

وروى مالك بن عبد اللّه بن الزيادي، عن أبي ذر: «أنه جاء يستأذن على عثمان بن عفان فأذن له وبيده عصاه. فقال عثمان: ياكعب، إن عبد الرحمن توفي وترك مالاً، فما ترى فيه؟ فقال: إن كان يصل فيه حق اللّه فلا بأس عليه. فرفع أبو ذر عصاه فضرب كعباً. وقال: سمعت رسول اللّه(ص) يقول: «ما أحب لو أن لي هذا الجبل ذهباً أنفقه ويتقبّل مني، أذر خلفي منه ست أواق» أنشدك اللّه ياعثمان أسمعته (ثلاث مرات)، قال: نعم»، وما كانت مثل هذه الدعوة ليطيقها

معاوية ولا ليطيقها مروان بن الحكم، فما زالا به عند عثمان يحرّضانه عليه حتى كان مصيره إلى الربذة منفياً من الأرض في غير حرب لله ولرسوله وفي غير سعي في الأرض بالفساد.

لقد كانت هذه الصيحة يقظة ضمير مسلم لم تخدّره الأطماع أمام تضخّم فاحش من الثروات، يفرّق الجماعة الإسلامية، ويحطّم الأسس التي جاء هذا الدين ليقيمها بين الناس وبحسبنا أن نعرض هنا نموذجاً للثروات الضخام)[1].

(مضى عثمان إلى رحمة ربه، وقد خلّف الدولة الأموية قائمة بالفعل بفضل ما مكن لها في الأرض وبخاصة في الشام وبفضل مامكّن للمبادئ الأموية المجافية لروح الإسلام، من إقامة الملك الوارثي والاستئثار بالمغانم والأموال والمنافع، مما أحدث خلخلة في الروح الاسلامي العام. وليس بالقليل مايشيع في نفس الرعية - إن حقاً وإن باطلاً - أنّ الخليفة يؤثر أهله ويمنحهم مئات الألوف، ويعزل أصحاب رسول الله، ليولّي أعداء رسول الله، ويبعد مثل أبي ذر لأنه أنكر كنز الأموال، وأنكر الترف الذي يخبّ في الأثرياء، ودعا إلى مثل ماكان يدعو إليه الرسول(ص) من الإنفاق والبر والتعفف... فان النتيجة الطبيعية لشيوع مثل هذه الأفكار - إن حقاً وإن باطلاً - أن تثور نفوس، وأن تنحلّ نفوس. تثور نفوس الذين أُشربت نفوسهم روح الدين إنكاراً وتأثماً، وتنحلّ نفوس الذين لبسوا الإسلام رداءً، ولم تخالط بشاشته قلوبهم، والذين تجرفهم مطامع الدنيا، ويرون الانحدار مع التيار. وهذا كله قد كان في أواخر عهد عثمان فلما أن جاء عليّ(ع) لم يك من اليسير أن يردّ الأمر إلى نصابه في هوادة. وقد علم المنتفعون على عهد عثمان وبخاصة من أمية، أن علياً لن يسكت عليهم، فانحازوا بطبيعتهم وبمصالحهم إلى معاوية.

جاء علي ليرد التصوّر الإسلامي للحكم إلى نفوس الحكام ونفوس الناس. جاء ليأكل الشعير تطحنه امرأته بيدها، ويختم هو على جراب الشعير ويقول: «لا أُحب أن يدخل بطني الا ما أعلم». وربما باع سيفه ليشتري بثمنه الكساء والطعام، وكره أن ينزل القصر الأبيض بالكوفة مؤثراً عليه الخصاص التي يسكنها الفقراء. جاء

(١) المصدر السابق، ٢٣١ - ٢٣٣ .

ليعيش كما روى عنه البصير بن منصور، عن عقبة بن علقمة قال: دخلت على عليّ عليه السلام، فإذا بين يديه لبن حامض، آذتني حموضته، وكسر يابس فقلت: «يا أمير المؤمنين أتأكل مثل هذا؟ فقال لي يا أبا الجنوب كان رسول الله يأكل أيبس من هذا ويلبس أخشن من هذا - وأشار إلى ثيابه - فإن لم آخذ بما أخذ به خفت ألا ألحق به». أو كما روى عنه هارون بن عنترة، عن أبيه قال: دخلت على عليّ بالخورنق، وهو في فصل شتاء، وعليه خلق قطيفة، وهو يرعد فيه فقلت: يا أمير المؤمنين إن الله قد جعل لك ولأهلك في هذا المال نصيباً، وأنت تفعل هذا بنفسك؟ فقال: واللّه ما أرزؤكم شيئاً، وما هي الا قطيفتي التي اخرجتها من المدينة)[1].

(وسار علي(ع) في طريقه يردّ للحكم صورته كما صاغها النبي(ص) وجد درعه عند رجل نصراني، فأقبل به إلى شريح قاضيه، يخاصمه مخاصمة رجل من عامة رعاياه، وقال: إنها درعي ولم أبع، ولم أهب. فسأل شريح النصراني: ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين، قال النصراني: ما الدرع إلا درعي، وما أمير المؤمنين عندي بكاذب! فالتفت شريح إلى عليّ يسأله يا أمير المؤمنين هل من بيّنة؟ فضحك عليّ وقال: أصاب شريح. مالي بينة! فقضى بالدرع للنصراني فأخذها ومشى، و(أمير المؤمنين) ينظر اليه... إلا أن النصراني لم يخطُ خطوات حتى عاد يقول: أما أنا فأشهد أن هذه أحكام الأنبياء... أمير المؤمنين يدينني إلى قاضيه فيقضي عليه! أشهد أن لاإله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

الدرع واللّه درعك يا أمير المؤمنين. أتبعت الجيش وأنت منطلق إلى صفين، فخرجت من بعيرك الأورق.

فقال علي: (أما إذا أسلمت فهي لك).

ولقد كان منهاجه الذي شرّعه هو ماقاله في خطبته عقب البيعة له:

أيها الناس: إنما انا رجل منكم، وعليّ ما عليكم، وإني حاملكم على منهج

(١) المصدر السابق، ٢١٣ - ٢١٤ .

نبيكم ومنفّذ فيكم ما أُمرت به.. ألا إن كل قطيعة أقطعها عثمان وكل مال أعطاه من مال اللّه فهو مردود إلى بيت المال. فان الحق لايبطله شيء. ولو وجدته قد تزوج به النساء، وملّك به الإماء وفرّق في البلدان لرددته. فإن في العدل سعة ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق.

«أيها الناس.. ألا لايقولن رجال منكم غداً – قد غمرتهم الدنيا فامتلكوا العقار وفجّروا الأنهار، وركبوا الخيل، واتخذوا الوصائف المرقّقة – إذا ما منعتهم ما كانوا يخوضون فيه، وأصرتهم في حقوقهم حتى يعلمون: (حرمنا ابن أبي طالب حقوقنا).

ألا وأيما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول اللّه يرى أن الفضل له على سواه بصحبته فإن الفضل غداً عند اللّه، وثوابه وأجره على اللّه.

ألا وأيّما رجل استجاب للّه ورسوله، فصدّق ملتنا ودخل ديننا واستقبل قبلتنا، فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده، فأنتم عباد اللّه، والمال مال اللّه يقسم بينكم بالسوية، ولا فضل فيه لأحد على أحد، وللمتقين عند اللّه أحسن الجزاء».

ولقد كان من الطبيعي ألا يرضى المستنفعون عن عليّ، وألا يقنع بشرعة المساواة من اعتاد التفضيل، ومن مردوا على الاستئثار، فانحاز هؤلاء في النهاية إلى المعسكر الآخر: معسكر أمية، حيث يجدون فيه تحقيقاً لاطماعهم على حساب العدل والحق اللذين يصر عليهما عليّ(ع) هذا الإصرار!

والذين يرون في معاوية دهاءً وبراعة لايرونهما في عليّ، ويعزون اليهما غلبة معاوية في النهاية، إنما يخطئون تقدير الظروف، كما يخطئون فهم عليّ وواجبه. لقد كان واجب عليّ الأول والأخير، أن يرد للتقاليد الاسلامية قوّتها، وأن يردّ إلى الدين روحه، وأن يجلو الغاشية التي غشت هذا الروح على أيدي بني أمية على كبر عثمان. ولو جارى وسائل بني أمية في المعركة لبطلت مهمته الحقيقية، ولما كان لظفره بالخلافة خالصة من قيمة في حياة هذا الدين.

إنّ عليّاً إما أن يكون عليّاً أو فلتذهب الخلافة عنه، بل فلتذهب حياته معها. وهذا هو المفهوم الصحيح الذي يعبر عنه(ع) وهو يقول فيما روي عنه إن صحت

الرواية: «واللّه مامعاوية بأدهى مني ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس»[(١)].

ومضى عليّ إلى رحمة ربه وجاء بنو أمية.

فلئن كان ايمان عثمان وورعه ورقته، تقف حاجزاً أمام امية، فإن هذا الحاجز قد انهار، وانفتح الطريق للانحراف.

لقد اتسعت رقعة الإسلام فيما بعد ولكن روحه انحسرت بلا جدال، ولولا القوة الكامنة في طبيعة هذا الدين، وفيض عارم في طاقته الروحية، لكانت أيام أميه كفيلة بتيغيير مجراه الأصيل، ولكن روحه ظلّت تقاوم وتغالب، وما تزال فيها الطاقة الكامنة للغلب والانتصار. غير أنه منذ أميه انساحت حدود بيت مال المسلمين، فصار نهباً مباحاً للملوك والحاشية والمتملّقين، وتخلخلت قواعد العدل الإسلامي الصارم، فأصبح للطبقة الحاكمة امتيازات ولأذيالها منافع ولحاشيتها رسوم، وانقلبت الخلافة ملكاً عضوضاً، كما قال عنه رسول اللّه(ص).

وعدنا نسمع عن الهبات للمتملّقين والملهّين والمطربين، فيهب أحد ملوك أمية اثني عشر الف دينار لمُعبد، ويهب هارون الرشيد - من ملوك العباسيين مثلاً - اسماعيل بن جامع المغني في صوت واحد أربعة الاف دينار، ومنزلاً نفيس الأثاث والرياش... وتنطلق الموجة في طريقها لاتقف إلا فترة بين الحين والحين.

ومهما يكن من أمر فقد ترك عثمان بن عفان من ورائه تركة ثقيلة كان على الإمام أمير المؤمنين أن يصفّي هذه التركة عندما تولّى الأمر من بعده، وأن يعيد المياه إلى مجاريها، ويعيد إلى المسلمين ماوهبه الخليفة الثالث لذويه من مال وسلطان ونفوذ وأن يأخذ الناس على النهج الذي وضعه لهم رسول اللّه(ص) وكانت مهمة الإمام هذه مهمة شاقة عسيرة.. تصطدم أولاً بمصالح الطبقة التي انتفعت من هذه الفترة بالمال والسلطان، وتصطدم بولاية معاوية في الشام ثانياً.

ومهما كان من أمر فقد قرر الإمام أن يواجه هذه الطبقة بقوة، وينتزع منها كل

---

(١) المصدر السابق، ٢١٥ - ٢١٨ .

ما أعطاهم الخليفة الثالث من نفوذ ومال وسلطان بغير حق، ويواجه كل ما استخدمته هذه الطبقة من بدعة في الإسلام بعنف.

اقرأوا كتابه عليه السلام إلى أهل مصر:

«ولن آسى أن يلي أمر هذه الأمة سفهاؤها وفجّارها، فيتخذوا مال الله دولاً وعباده خولاً، والصالحين حرباً، والفاسقين حزباً فإن منهم الذي قد شَرِبَ فيكم الحرام، وجُلِد حداً في الإسلام، وإنّ منهم من لم يُسلم حتى رضخت له على الإسلام الرضائخ، فلولا ذلك ما أكثرت تأليبكم وتأنيبكم وجمعكم وتحريضكم»[1].

وقال عليه السلام عندما أقبل عليه الناس للبيعة: «دعوني والتمسوا غيري فإنا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان لاتقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول، وأن الآفاق قد أغامت، والمحجة قد تنكّرت. واعلموا انّي إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، ولم اصغ إلى قول القائل وعتب العاتب، وإن تركتموني فأنا كاحدكم ولعلي أسمعكم وأطوعكم»[2].

ويقول عليه السلام فيما استرجعه من قطائع عثمان: والله لو وجدته قد تُزوّج به النساء ومُلك به الإماء لرددته، فإن في العدل سعة ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق[3].

وقرر الإمام امير المؤمنين ان يسير في الخط الذي رسم معالمه للمسلمين في الأيام الأولى من قيامه بأمر الحكم وقبوله لبيعة المسلمين، لا يرضخ للضغوط التي كانت تمارسها على حكمه الطبقة المنتفعة في أيام عثمان بن عفان.

ومضى الامام على طريقته التي يؤمن بها غير عابئ بما يقول عنه الناس، وما يفعله المتآمرون على سلطانه وحكمه، وقد دفع ضريبة سياسته هذه ثلاثة حروب طاحنة ومتعاقبة استوعبت كل الفترة التي حكم فيها.

---

(١) نهج البلاغة، كتاب رقم ٦٢، ص ٤٥٢، فهارس د. صبحي الصالح.
(٢) نفس المصدر، ١٣٦ .
(٣) نفس المصدر، ٥٧ .

وجاء من بعده ابنه الحسن الزكي سبط رسول اللّه(ص)، وهو يريد أن يستمر على طريقة والده في تنفيذ خط الإسلام الأصيل واسقاط معاوية والزمرة الطارئة على هذا الدين من بني أمية، ولكن تخاذل قادة جنده بفعل اغراءات معاوية لهم، واساليبه الملتوية الماكرة، واستعداد حكام الروم الشرقية للغارة على بلاد الشام والاستفادة من فرصة الحروب الداخلية لإرجاع الشام إلى سلطان الكنيسة الشرقية.. كل ذلك كان من العوامل التي دعت الإمام الحسن عليه السلام إلى إعلان الهدنة مع معاوية ليحفظ البقية من شيعته بعد التخاذل الذي حدث في قادة جنده، وانفرد معاوية بالحكم وانزاح القناع مرةً واحدة عن وجهه وانكشف على حقيقته وأسفر عن وجهه.

يقول المدائني: خطب معاوية في الكوفة بعد الصلح فقال: «يا أهل الكوفة، أتروني قاتلتكم على الصلاة والزكاة والحج؟ وقد علمت أنكم تصّلون وتزكّون وتحجّون.

ولكني قاتلتكم لأتأمّر عليكم وعلى رقابكم. وقد آتاني اللّه ذلك وأنتم كارهون. ألا إن كل دم أصيب في هذه الفتنة مطلول، وكل شرط شرطته تحت قدميّ هاتين»[1].

وقال: «وإن كل شيء أعطيت الحسن بن عليّ تحت قدميّ هاتين لا أفي به».

قال أبو اسحاق وكان واللّه غدّاراً[2].



(١) صلح الحسن، للشيخ راضي آل ياسين، ٢٨٥ نقلاً عن شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٤ / ١٦ .

(٢) نفس المصدر.

- ٣ -

صفحات من تاريخ بني أميّة





دولة بني أميّة في التاريخ الإسلامي

وهكذا انفتحت صفحة جديدة في تاريخ الإسلام لدولة بني أمية، استعاد فيها بنو أمية أمجادهم الجاهلية أولاً، واستعادوا فيها الكثير من الأعراف والقيم والأساليب الجاهلية في الحكم والمال والمجتمع.

وقد كان لذلك كله انعكاس سلبي سيئ على المجتمع الاسلامي.

وكان من شأن هذه الردّة الجاهلية أن تنعكس على الاسلام أكثر وأقوى من انعكاسها على المجتمع الاسلامي.. لولا ثورة الامام الحسين(ع)، فقد كان التأثير المباشر الأول للثورة - كما سنرى إن شاء اللّه - هو تجريد بني أمية من شرعية الولاية والحكم، وبذلك لم يتمكن بنو أمية بصفتهم حكّاماً وخلفاء على المسلمين من تسريب الانحرافات التي كانوا يمارسونها أيام سلطانهم ونفوذهم، إلى الاسلام نفسه.

ولكن بقيت هذه الفترة من التاريخ الاسلامي مصدر كثير من المآسي في حياة المسلمين في النظام والحكم والحياة والأخلاق والأعراف، واتّصلت هذه الجاهلية بالعصر العباسي وما بعد ذلك من عصور التاريخ الاسلامي في الكثير من جوانب حياة المسلمين.

وفيما يلي نستعرض جوانب من هذه الردّة الجاهلية التي تمّت على يد الحكام من بني أمية، وأطرافاً من السياسة الأمويّة وطريقتهم في الحكم والأساليب التي

اتخذوها في تحريف الاسلام والمجتمع الاسلامي، واستعادة الحياة الجاهلية من جديد إلى صلب المجتمع الاسلامي قبل وبعد ثورة الحسين(ع).

وأولى هذه النقاط الحديث عن النزعة الالحادية عند بني أمية:

النزعة الالحادية عند بني أمية

النزعة الالحادية نزعة قديمة وعريقة في بني أمية، لم يستأصلها الإسلام من نفوسهم وهذه النزعة تختفي حيناً في حياة بني أمية وتبرز حيناً آخر، وتظهر بين حين وحين على فَلَتات ألسنتهم.

ومعاوية ليس الأول ولا الأخير من هذه الأسرة في هذه النزعة الخبيثة. ورغم أن أجهزة اعلام الخلافة كانت تُضفي على أعضاء هذه الأسرة الكثير من الهيبة والقدسية وتُخفي الكثير من سقطاتهم وفلتات ألسنتهم.. فان التاريخ يحصي لنا الكثير من الشواهد على رسوخ وعمق هذه النزعة في نفوس بني أمية.

النزعة الالحادية عند أبي سفيان:

ولنبدأ بقصة الالحاد عند أبي سفيان سلف هذه الأسرة بعد أن أعلن الاسلام وانخرط في صفوف المسلمين.

روى ابن عبد البر:

«ان أبا سفيان دخل على عثمان حين صارت الخلافة اليه فقال: قد صارت اليك بعد تيم وعدي فأدرها كالكرة، واجعل أوتادها بني أمية، فانما هو الملك، ولا أدري ما جنّة ولا نار. فصاح به عثمان: قم عنّي فعل اللّه بك وفعل»[1].

وروى أبو الفرج قال: لما ولي عثمان الخلافة دخل عليه أبو سفيان فقال: يا

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البر بهامش الاصابة، مطبعة السعادة، ط الأولى سنة ١٣٢٨هـ، المجلد ٤ / ٨٧. ثم قال ابن عبد البر: وله أخبار من نحو هذا رديئة ذكرها أهل الأخبار، لم أذكرها، وفي بعضها مايدل على أن اسلامه لم يكن اسلاماً صحيحاً.

معشر بني أمية إنّ الخلافة صارت في تيم وعدي حتى طمعت فيها، وقد صارت اليكم فتلقّفوها بينكم تلقّف الكرة فواللّه ما من جنّة ولا نار - هذا أو نحوه - فصاح به عثمان: قم عنّي فعل اللّه بك وفعل.

قال أبو الفرج: ولأبي سفيان أخبار من هذا الجنس يطول ذكرها[١].

وروى أبو الفرج: دخل أبو سفيان على عثمان بعد أن كُفّ بصره فقال: هل علينا من عين؟ قال: لا. فقال: ياعثمان إن الأمر أمر عاليه، والملك ملك جاهلية فاجعل أوتاد الأرض بني أمية[٢].

وفي تهذيب ابن عساكر[٣] عن أنس (ان أبا سفيان دخل على عثمان بعد ما عمي، فقال: هل هاهنا أحد؟ فقالوا: لا. فقال: اللّهم اجعل الأمر أمر جاهلية والملك مُلك غاصبية، واجعل أوتاد الأرض لبني أمية).

ومرّ أبو سفيان بقبر حمزة (وضربه برجله وقال: يا أبا عمارة إن الأمر الذي اجتلدنا عليه بالسيف أمس صار في يد غلماننا يتلعّبون به)[٤].

ويروي أبو الفرج الاصفهاني، عن عبد اللّه بن الزبير أنه قال: لما كان يوم اليرموك خلّفني أبي، فأخذت فرساً له، وخرجت فرأيت جماعة من المخلّفين فيهم أبو سفيان بن حرب. فوقفت معهم، فكانت الروم اذا هزمت المسلمين قال أبو سفيان: إيه بني الأصفر، فاذا كشفهم المسلمون قال أبو سفيان: وبنو الأصفر الكرام مُلوك الروم لم يبق منهم مذكور، فلما فتح اللّه على المسلمين حدّثت أبي، فقال: قاتله اللّه يأبى إلا نفاقاً. ثم كان يأخذ بيدي فيطوف على أصحاب رسول اللّه(ص) يقول: حدّثهم فأحدّثهم، فيعجبون من نفاقه[٥].

---

(١) الأغاني، ٦ / ٣٥٦، ط دار الكتب.
(٢) الأغاني، ٦ / ٢٥٥، نقلاً عن أحاديث أم المؤمنين للسيد مرتضى العسكري، ٣٠٧، ط دار الزهراء.
(٣) تهذيب ابن عساكر، ٦ / ٤٠٧، نقلاً عن أحاديث أم المؤمنين.
(٤) شرح النهج، ٤ / ٥١، ط مصر الأولى نقلاً عن المصدر السابق.
(٥) الأغاني، ٦ / ٢٥٤ و٢٥٥، دار الكتب.

النزعة الالحادية عند مروان بن الحكم:

وعن مروان بن الحكم وهو رأس الجناح الآخر من بني أمية: (الأعياص)[١].
يقول ابن أبي الحديد المعتزلي نقلاً عن شيخه أبي جعفر:

(كان مجاهراً بالالحاد هو وأبوه الحكم بن أبي العاص، وهما الطريدان اللعينان.

كان أبوه عدو رسول اللّه(ص)، يحكيه في مشيه، ويغمز عليه، ويدلع[٢] له لسانه يتهكّم به ويتهافت عليه. هذا وهو في قبضته وتحت يده وفي دار دعوته بالمدينة، وهو يعلم أنه قادر على قتله أيّ وقت شاء من ليل أو نهار.

فهل يكون هذا إلا من شانئ شديد البغضة ومستحكم العداوة حتى أفضى أمره إلى أن طرده رسول اللّه(ص) من المدينة وسيّره إلى الطائف.

وأما مروان ابنه فأخبث عقيدة، وأعظم الحاداً وكفراً..

كتب اليه عبيد اللّه بن زياد يبشّره بقتل الحسين(ع) فقرأ كتابه على المنبر، وأومأ إلى القبر قائلاً: يوم بيوم بدر. فأنكر عليه قوله قوم من الأنصار. ذكر ذلك أبو عبيدة في كتاب المثالب)[٣].

النزعة الالحادية عند معاوية

ومعاوية بن أبي سفيان لايختلف عن أبيه أبي سفيان وعن مروان كثيراً في رسوخ واستقرار هذه النزعة في نفسه وان كان حريصاً على التكتّم عليها ومغالبتها ما وسعه التغلّب عليها، الا أنها كانت تغلبه أحياناً في مجالسه الخاصة وتظهر على فَلَتات لسانه، ينقل لنا التاريخ جزءاً يسيراً منها:

---

(١) ينشطر بنو أمية الى شطرين: العنابس والأعياص، أما العنابس فرؤوسهم حرب وأبو سفيان ومعاوية ويزيد. وأما الأعياص فأبرز شخصياتهم الحكم وابنه مروان وعبد الملك وأبناء عبد الملك وأحفاده.

(٢) يدلع لسانه: يخرجه.

(٣) شرح النهج، ٤ / ٧١ و٧٢، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

روى الزبير بن بكار، عن المطرف بن المغيرة بن شعبة قال: دخلت مع أبي على معاوية، فكان أبي يأتيه فيتحدث معه ثم ينصرف اليّ فيذكر معاوية وعقله، ويُعجب بما يرى منه.. اذ جاء ذات ليلة فأمسك عن العشاء ورأيته مغتمّاً فانتظرته ساعة، وظننت أنه لأمر حدث فينا. فقلت: مالي أراك مغتماً منذ الليلة؟

فقال: يابنيّ جئتك من أكفر الناس وأخبثهم.

قلت: وما ذاك؟

قال: قلت له وقد خلوت به إنّك قد بلغت سنّاً يا أمير المؤمنين فلو أظهرت عدلاً، وبسطت خيراً، فإنك قد كبرت، ولو نظرت إلى إخوتك من بني هاشم فوصلت أرحامهم فواللّه ما عندهم اليوم شيء تخافه، وإنّ ذلك مما يبقى لك ذكره وثوابه.

فقال: (هيهات هيهات. أيّ ذكر أرجو بقاءه، ملك أخو تيم فعدل، وفعل مافعل، فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره إلا أن يقول قال أبو بكر. ثم ملك أخو عدي فاجتهد وشمّر عشر سنين، فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره إلا أن يقول قال عمر.. وإنّ ابن أبي كبشة ليُصاح به كل يوم خمس مرّات (أشهد أن محمداً رسول اللّه) فأي عمل يبقى؟ وأي ذكر يدوم بعد هذا لا أبا لك، لا واللّه إلا دفناً دفنا)[١].

وأذّن المؤذن يوماً فشهد بالرسالة فقال معاوية: (للّه أبوك يا ابن عبد اللّه، لقد كنت عالي الهمّة مارضيت لنفسك إلا أن تقرن اسمك مع اسم رب العالمين)[٢].

وقال ابن أبي الحديد: ومعاوية مطعون في دينه، منسوب إلى الالحاد قد طعن فيه صلى اللّه عليه وآله.

---

(١) مروج الذهب للمسعودي، ٣ / ٤٥٤ بفهارس يوسف أسعد داغر. وشرح النهج لابن أبي الحديد، ٥ / ١٢٩ و١٣٠، الطبعة الثانية بمصر بتحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم. والموفقيات للزبير بن بكار ٥٧٥ و٥٧٦. ومقدمة مرآة العقول للسيد مرتضى العسكري، ٢ / ١٣٢ - ١٣٣.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٠ / ١٠١، تحقيق محمد أبو الفضل.

وروى فيه شيخنا أبو عبد اللّه البصري في كتاب (نقض السفيانية) على الجاحظ، وروى عنه أخباراً كثيرة تدل على ذلك وقد ذكرناها في كتابنا (مناقضة السفيانية)[1].

النزعة الالحادية عند يزيد بن معاوية

وأما يزيد بن معاوية لعنه اللّه فأمره أوضح وأفضح من أن يذكر، وقد كانت هذه النزعة الخبيثة من السمات البارزة في شخصيته، وكانت تنفلت على لسانه أحياناً، وتطفح على مواقفه وأحاديثه، وبشكل خاص شعره الذي يكاد يفضحه بين حين وآخر، رغم الموقع الحساس الذي كان يحتله. ولعلّ بروز هذه النزعة على فلتات لسانه هي من آثار حالة النزق والطيش التي كانت لاتفارق شخصية يزيد.

وهذه الفلتات مهما كانت طافحة على شعره وحديثه فلن تكون أصرح من مواقفه وأعماله، فإن الجرائم الكبيرة التي ارتكبها يزيد من غير تأثّم ولا تحرّج كقتال ابن بنت رسول اللّه وأهل بيته وأصحابه واباحة المدينة المنورة لجند الشام تكشف عن عمق هذه النزعة في نفسه، وأنا أعجب من بعض العلماء كابن العربي والغزالي الذين يشكّون في جواز لعن يزيد!

ومن أفضح المواقف التي تكشف عن عمق ورسوخ هذه النزعة الالحادية الخبيثة في نفس يزيد، نكثه بالخيزران على الرأس الشريف، رأس ابن بنت رسول اللّه عندما أُحضر في مجلسه وهو على منظرة بجيرون، ومجلسه يومذاك حاشد بوجوه الشام الذين جاؤوا ليشهدوا انتصارات الخليفة!! واليك الرواية التاريخية:

قال أخطب خوارزم (٥٦٨هـ):

ثم كشف عن ثنايا رأس الحسين بقضيبه ونكثه وأنشد:

أبوا قومنا أن ينصفونا فانصفت ... قواضب في أيماننا تقطر الدما

صبرنا وكان الصبر منا عزيمةً ... وأسيافنا يقطّعن كفّاً ومعصما

(١) المصدر السابق.

نفلّق هاماً من أناسٍ أعزةٍ ... علينا وهم كانوا أعقّ وأظلما[1]

فقال له بعض جلسائه: ارفع قضيبك فوالله ما أُحصي ما رأيت شفتي محمد(ص) في مكان قضيبك يقبّله.

فأنشد يزيد:

يا غراب البين ما شئت فقُل ... إنما تندب أمراً قد فُعلْ

كل مُلك ونعيم زائل ... وبنات الدهر يلعبن بِكُل

ليت أشياخي ببدر شهدوا ... جزع الخزرج من وقع الأسل

لأهلّوا واستهلّوا فرحاً ... ثم قالوا يايزيد لاتُشل

لست من خِندِف إن لم أنتقم ... من بني أحمد ما كان فعل

لعبت هاشم بالملك فلا ... خبر جاء ولا وحي نزل

قد أخذنا من عليّ ثارنا ... وقتلنا الفارس الليث البطل

وقتلنا القرم من ساداتهم ... وعدلناه ببدرٍ فاعتدل[1]

---

(١) الأبيات للحصين بن الحمام تمثل بها يزيد لعنه الله. نقل ذلك أخطب خوارزم في المقتل ٢ / ٥٨، ط النجف (بتحقيق الشيخ محمد السماوي) والبلاذري في الأنساب (في قسم تأريخ الحسين«ع» بتحقيق الشيخ محمد باقر المحمودي، ط دار التعارف) ص ٢١٣، وابن الصباغ المالكي(٨٥٥هـ)، (منشورات دار الكتب التجارية في النجف) ٤ / ١٩، وسبط ابن الجوزي (٦٥٤هـ) في التذكرة، (ط مؤسسة أهل البيت، بيروت)، ص ٢٣٤ .
وقال اليافعي (٧٦٨هـ) في مرآة الجنان ١ / ١٣٥، ط دائرة المعارف النظامية بحيدر آباد دكن سنة ١٣٣٧هـ: ثم وضع الرأس المكرّم بين يدي يزيد فأمر أن يُجعل في طست من ذهب وجعل ينظر إليه ويقول مفتخراً:

صبرنا وكان الصبر منا عزيمةً ... وأسيافنا يقطّعن كفّاً ومعصما

يفلّقن هاماً من رجالٍ أعزّةٍ ... علينا وهم كانوا أعقّ وأظلما

(٢) مقتل الحسين لأخطب خوارزم (٥٦٨هـ)، ط النجف بتحقيق الشيخ محمد السماوي، ٢ / ٥٨ و٥٩، ونقل أخطب خوارزم بعد نقل الأبيات كلام شيخ السنة أحمد بن الحسين (فإن كان قاله - أي يزيد قال الشعر - فقد ضم الى فعل الفجار في قتل الحسين وأهل بيته وأقوال الكفار والله يعصمنا من الزلل).
نقل ابن أعثم الكوفي (٣١٤هـ) في الفتوح ٥ / ٢٤١ و ٢٤٢، الطبعة الأولى، دار المعارف العثمانية بحيدر آباد دكن بعض هذه الأبيات باختلاف يسير.

. . . .



وفي تذكرة سبط ابن الجوزي، ٢٣٥، ط مؤسسة أهل البيت - بيروت: وجعل ينكث عليه بالخيزران ويقول أبيات ابن الزبعرى:

ليت أشياخي ببدر شهدوا وقعة الخزرج من وقع الأسل
قد قتلنا القرن من ساداتهم وعدلنا قتل بدر فاعتدل

ثم قال: قال الشعبي وزاد فيها يزيد فقال:

لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحيٌ نزل
لست من خندف إن لم أنتقم من بني أحمد ما كان فعل

وقال أخطب خوارزم (٥٦٨هـ) في المقتل ٢ / ٥٨ و٥٩ (تحقيق الشيخ محمد السماوي) قال الحاكم: الأبيات التي أنشأها يزيد بن معاوية هي لعبد الله بن الزبعرى أنشأها يوم أحد لما استشهد حمزة عم النبي(ص) وجماعة من المسلمين وهـي قصيدة طويلة منها:

ياغراب البين ماشئت فقل انما تندب أمراً قد فُعل
إن للخير وللشر مدىً وكلا ذلك وجهٌ وقبل

أقول: روى القصيدة بن اسحاق في السيرة وهي ستة عشر بيتاً. ثم روى الشعر الذي أنشده حسّان بن ثابت الأنصاري في الجواب عليه:
(السيرة النبوية لابن هشام ٣ / ١٤٣ - ١٤٤ مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر.
وروى أبو الفرج الأصفهاني صاحب الأغاني هذا الشعر في هذا المجال (مقاتل الطالبيين ص ٨٠، المطبعة الحيدرية، النجف ١٣٨٥هـ) .

- ٤ -

الخلاعة والاستهتار والمجون في قصور بني أمية



الخلاعة والاستهتار والمجون

لعل الخلاعة والمجون يعتبران من أبرز سمات بني أمية، وقد دخل الغناء والطرب والشرب والسكر والاستهتار على أيدي بني أمية إلى المجتمع المسلم من باب واسع وزاول الحكّام من بني أمية ألواناً مختلفةً من اللّهو والمجون والخلاعة على مرأى من المسلمين ومسمع وبصورةٍ مكشوفة وعارية، وأدخلوا الفساد إلى قصر الخلافة بأبشع صوره وأشكاله.

الشرب والسكر في قصور معاوية

كان الشرب والسكر أمراً شائعاً في قصور الخلفاء من بني أمية، وكان معاوية يمارس هذا المنكر في خفاء، فلما تولّى يزيد ابنه أمر الخلافة أعلن هذا المنكر اعلاناً، وجرى من بعده خلفاء بني أمية على طريقته الا ما كان من أمر عمر بن عبد العزيز، وكان معاوية أول خليفة يُدخل الخمر في قصره.

أخرج ابن عساكر في تاريخه قال: مرّ على عبادة بن الصامت – وهو في الشام – قطار يحمل الخمر فقال: ماهذه، أزيت؟ قيل: لا، بل خمر تُباع لفلان!؟

فأخذ شفرة من السوق فقام اليها فلم يذر فيها راوية إلا بقرها. وأبو هريرة اذ ذاك بالشام فأرسل فلان إلى أبي هريرة يقول له: أما تُمسك عنا أخاك عبادة. أما

بالغدوات فيغدو إلى السوق فيفسد على أهل الذمة متاجرهم، وأما بالعشيّ فيقعد في المسجد ليس له عمل الا شتم أعراضنا أو عيينا، فأمسك عنّا أخاك فأقبل أبو هريرة يمشي حتى دخل على عبادة فقال له: ياعباده مالك ولمعاوية[١]، ذره وما حمل فإن اللّه يقول: ﴿**تلك أمةٌ قد خلت لها ماكسبت ولكم ما كسبتم**﴾[٢].

فقد كان الشرب والسكر والطرب واللّهو سنّة جارية في قصور الخلفاء؛ يرثها الخلف عن السلف. وكان الناس يتحدّثون بما يجري في قصور الخلفاء.

يقول الجاحظ: وكان يزيد لايمسي الا سكراناً ولا يُصبح الا مخموراً، وكان عبد الملك بن مروان يسكر في كل شهرة مرة حتى لايعقل في السماء هو أو في الماء، وكان الوليد بن عبد الملك يشرب يوماً ويدع يوماً، وكان سليمان بن عبد الملك يشرب في كل ثلاث ليال ليلة، وكان هشام يشرب في كل جمعة وكان يزيد بن الوليد والوليد بن يزيد يُدمنان اللّهو والشراب، فأما يزيد بن الوليد فكان دهره بين حالتي سكر وخمار ولا يوجد أبداً الا ومعه إحدى هاتين، وكان مروان بن محمد يشرب ليلة الثلاثاء وليلة السبت[٣].

الشرب والاستهتار في حياة يزيد بن معاوية

وقد خرجت ظاهرة الشرب والسكر عند الخلفاء في عهد يزيد بن معاوية من طور الكتمان إلى طور الإعلان والإجهار. وكان يزيد بن معاوية أوّل خليفة يعلن اقتراف هذا المنكر اعلاناً، ويتحدى به مشاعر المسلمين.

---

(١) لانعلم كيف انفلتت كلمة معاوية من قلم ابن عساكر بعد الذي تحدث عنه، وقد كان من قبل يحاول أن يتكتم عليه بكلمة (فلان) .

(٢) الى آخر الحديث، نقله في الغدير ١٠ / ١٧٩ - ١٨٠، عن تاريخ ابن عساكر ٧ / ٢١١ وأنظر أيضاً في علاقة معاوية بالخمر الاصابة لابن حجر ٢ / ٤٠١، وتهذيب التهذيب ٦ / ١٩٢ نقلاً عن الغدير ١٠ / ١٨١، ط، والآية في سورة البقرة ١٣٤، ١٤١ .

(٣) التاج في أخلاق الملوك، ١٥١ .

النشأة النصرانية ليزيد بن معاوية

وكانت نشأته النصرانية تدفعه إلى ذلك، فقد نشأ يزيد عند أخواله من بني كلاب في البادية. وكانت هذه القبيلة في الجاهلية مسيحية، ولم تتخلّص من الأعراف المسيحية بشكل كامل، وقد أمضى يزيد فترة الصبا والمراهقة من حياته في البادية، وأرسل لنفسه العنان مع فتيانها في مجونهم وسكرهم ولعبهم بالكلاب[١].

يقول العلائلي: (إذا كان يقيناً أو يشبه اليقين إن تربية يزيد لم تكن اسلامية خالصة، أو بعبارة أخرى كانت مسيحية خالصة، فلم يبق مايستغرب معه أن يكون مستهتراً مستخفّاً، بما عليه الجماعة الإسلامية، لايحسب لتقاليدها واعتقاداتها أيّ حساب، ولا يقيم لها وزناً، بل الذي نستغرب ان يكون على غير ذلك)[٢].

ولم تكن هذه الظروف المسيحية لترافق يزيد فقط في نشأته وإنما نلاحظ أنّ هذه الظروف بقيت تواكب حياة يزيد حتى بعد أن كبُر وأصبح له حاشية وندماء وبعد أن مات أبوه وأصبح خليفةً للمسلمين مكان أبيه معاوية.

يقول أبو الفرج: كان يزيد بن معاوية أول من سنّ الملاهي في الإسلام من الخلفاء وآوى المغنّين وأظهر الفتك وشرب الخمر، وكان ينادم عليها مولاه سرجون النصراني والأخطل[٣].

وكان الأخطل - الشاعر المسيحي المعروف بالخلاعة - من ندماء يزيد الخاصّين والأثيرين عنده لايكاد يفارقه في سفر أو حضر، فكانا يشربان ويسمعان الغناء واذا أراد السفر صحبه معه. ولما هلك يزيد وآل أمر الخلافة إلى عبد الملك بن مروان

---

(١) انظر حياة الامام الحسين، للقرشي، ٢ / ١٨٠ . وثورة الحسين لشمس الدين، ١٦٦، وقد اعتمد الأخير مجموعة من المصادر في هذه الناحية منها: تأريخ العرب لفيليب حتي ٢ / ٢٥٨ وسموّ المعنى في سموّ الذات لعبدالله العلائلي ٥٩ - ٦١، والدولة العربية لولهاوزن ١٣٧ .

(٢) سمو المعنى في سمو الذات لعبدالله العلائلي، ص ٥٩ عن حياة الإمام الحسين للقرشي.

(٣) الأغاني، ١٧ / ٣٠٠ - ٣٠١ .

قرّبه، فكان يدخل عليه بغير استئذان، وعليه جبّة خز وفي عنقه سلسلة من ذهب والخمر يقطر من لحيته(١).

وللأخطل - شاعر يزيد ونديمه - هذا قصة معروفة في هجاء الأنصار واحتمائه بيزيد، نذكرها في موضعها إن شاء اللّه.

اعلان يزيد لشرب الخمر

ومهما يكن من أمر فقد كان يزيد بن معاوية أول خليفة يمارس المنكرات ممارسة علنية، ولا يتكتّم في شربه وسُكره ومجالس لهوه وطربه، وقد نصحه والده معاوية لما أراد أن يعهد اليه أمر خلافة المسلمين بأن يتكتم في شربه وخلاعته وأن يتستر بالليل ولا يجهر للناس بالمنكرات اجهاراً.

يقول ابن كثير: كان يزيد صاحب شراب فأحب معاوية أن يعظه في رفق، فقال: يابنيّ ما أقدرك على أن تصل حاجتك من غير تهتّك يذهب بمروءتك وقدرك ويشمت بك عدوك ويسيء بك صديقك، ثم قال يابنيّ إني مُنشدك أبياتاً فتأدب بها واحفظها فانشده:

انصب نهارك في طلاب العلا ... واصبر على هجر الحبيب القريب
حتى اذا الليل اتى بالدُّجا ... واكتملت بالغمض عين الرقيب
فباشر الليل بما تشتهي ... فانما الليل نهار الأريب
كم فاسق تحسبه ناسكاً ... قد باشر الليل بأمر عجيب
غطى عليه الليل أستاره ... فبات في أمن وعيش خصيب
ولذة الأحمق مكشوفة ... يسعى بها كل عدوّ مريب(٢)

وأرسل معاوية ابنه يزيد إلى الحج ليمهّد الأمر لمبايعته بولاية العهد، فلما بلغ

---

(١) حياة الإمام الحسين ٢ / ١٨٤ - ١٨٥ نقلاً عن الأغاني ٧ / ١٧٠ والبداية والنهاية لابن كثير ٨ / ٢٢٨ .

(٢) مقدمة مرآة العقول للسيد مرتضى العسكري ١٤٦/٢ نقلاً عن البداية والنهاية لابن كثير ٢٢٨/٨.

المدينة جلس على شراب له فدخل عليه الإمام الحسين فوجد رائحة الشراب فقال: ماهذا؟ قال: هو طيب يصنع بالشام. ثم دعا بقدح فشرب ثم دعا بآخر وقال لغلامه: اسق أبا عبد اللّه. فقال له الإمام الحسين: عليك شرابك أيّها المرء، فقال يزيد:

الا ياصاح للعجب دعوتك ولم تجب
إلى الفتيات والشهوات والصهباء والطرب
باطية مكللة عليها سادة العرب
وفيهن التي بتلت[1] فؤادك ثم لم تثب

فنهض الحسين(ع) وقال: بل فؤادك يابن معاوية بتلت[2].

وأرسل معاوية ابنه إلى الغزو في بلاد الروم في جيش كثيف في سنة تسع وأربعين[3] فتثاقل واعتلّ فأمسك عنه أبوه فأصاب الناس في غزاتهم جوع ومرض وهو في دير مروان مع زوجته أم كلثوم ومع الغواني والقيان. غارق في لذته وفي الطرب والشرب والسكر وأنشأ يقول:

ما أن أبالي بما لاقت جموعهم بالفرقدونة من حمّى ومن موم
اذا اتّكأت على الأنماط مرتفقاً بدير مروان عندي أم كلثوم

يقول ابن الأثير:

فبلغ معاوية شعره فأقسم عليه ليلحقنّ بسفيان بن عوف (أمير الجيش) ليصيبه ما أصاب الناس[4].

يقول ابن أبي الحديد في استعراض أعمال معاوية وإساءاته إلى الإسلام، والتي

---

(١) وردت (تبلت) بتقديم التاء بمعنى قطعت.
(٢) الكامل لأبن الأثير ٤ / ١٢٧، دار صادر ودار بيروت.
(٣) حوادث سنة تسع وأربعين من الكامل لابن الأثير، ٣ / ٤٥٨ - ٤٥٩ .
(٤) الكامل لابن الأثير، ٣ / ٤٥٨ - ٤٥٩ وأورد أبو الفرج الأصفهاني في الأغاني ١٧ / ٢١٠ الشعر على النحو التالي:

إذا ارتفقت على الأنماط مصطبي بدير مروان عندي أم كلثوم
فلما أبالي بما لاتت جنودهم بالفرقدونة من حمّى ومن موم

منها: اختيار يزيد خليفة وإماماً للمسلمين: «وعهده بالخلافة إلى ابنه يزيد مع ظهور فسقه وشربه المسكر جهاراً ولعبه بالنرد ونومه بين الفتيان والمغنيات واصطحابه معهن ولعبه بالطنبور بينهن»[١].

وفي موضع آخر:

وايثاره لخلافة اللّه على عباده ابنه يزيد السكّير الخمّير، صاحب الدِيَكة والفهود والقرود وأخذ البيعة له على خيار المسلمين وهو يعلم سفهه ويطّلع على رَهَقه وخبثه ويعاني سكراته وفعلاته وفجوره وكفره[٢].

ويقول المسعودي:

وكان يزيد صاحب طرب وجوارح وكلاب وقرود وفهود ومنادمة على الشرب، وجلس ذات يوم على شرابه وعن يمينه ابن زياد، وذلك بعد قتل الإمام الحسين.فأقبل على ساقيه فقال:

اسقني شربةً تروي مشامي ثم مِل فاسقِ مثلها ابن زياد

صاحب السر والأمانة عندي ولتسديد مغنمي وجهادي

ثم أمر المغنّين فغنّوا به[٣].

وكان أبو حمزة يخطب في أهل المدينة ويقول: ثم ولّي بعده ابنه يزيد، يزيد الخمور ويزيد الصقور ويزيد الفهود ويزيد الصيود ويزيد القرود، فخالف القرآن واتّبع الكهّان ونادم النرد[٤].

يروي أبو الفرج الأصفهاني، عن ابن أبي نبرة، عن لقيط بن نصر المحاربي قال: كان يزيد بن معاوية أول من سنّ الملاهي في الإسلام من الخلفاء، وآوى المغنّين، وأظهر الفتك وشرب الخمر، وكان ينادم عليها سرجون النصراني مولاه والأخطل. وكان يأتيه من المغنّين سائب خاثر فيقيم عنده فيخلع عليه ويصله فغناه يوماً:

---

(١) شرح النهج ٥ / ١٣١ بتحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم.
(٢) شرح النهج ١٥ / ١٧٨ بتحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم.
(٣) مروج الذهب للمسعودي، ٣ / ٦٧ .
(٤) الأغاني ٢٣ / ٢٤١ بتحقيق علي السباعي واشراف محمد أبي الفضل إبراهيم.

يالـلرجـال لمظلـوم بـضـاعتـه ... ببطن مكة نائي الأهل والنفر

فاعترته اريحيّة فرقص حتى سقط ثم قال: اخلعوا عليه خلعاً يغيب فيها حتى لايُرى منه شيء فطرحت عليه الثياب والجباب والمطارف والخز حتى غاب فيها(١).

ومن شعره في الخمر:

أقول لصحب ضمّت الكأس شملهم ... وداعي صبابات الهوى يترنّم

خذوا بنصيب من نعيم ولذة ... فكلٌّ وإنْ طال المدى يتصرّم(٢)

واذا كنا قد كشفنا الغطاء عن طرف من ليالي يزيد الحمراء وشربه واستهتاره فليس علينا من بأس أن نذكر نماذج أخرى من مجونه وخلاعته واستهتاره.

فقد (كان يزيد بن معاوية ولِعاً بالصيد لاهياً به وكان يُلبس كلابس الصيد الأساور من الذهب والجلال المنسوجة منه ويهب لكل كلب عبداً يخدمه)(٣) وكان مولعاً بتربية القرود وملاعبتها وكان يهيم في ذلك هياماً، وولعه وشغفه بالقرود معروف.

يقول المسعودي:

وكان له قرد يكنّى بأبي قيس يُحضره مجلس منادمته ويطرح له متكأً، وكان قرداً خبيثاً وكان يحمله على أتان وحشية قد ريضت وذُللت لذلك بسرج ولجام ويسابق بها الخيل يوم الحلبة، فجاء في بعض الأيام سابقاً فتناول القصبة ودخل الحجرة قبل الخيل، وعلى أبي قيس قُباء من الحرير الأحمر والأصفر مشمّر، وعلى رأسه قلنسوة من الحرير ذات ألوان بشقائق وعلى الأتان سرج من الحرير منقوش، ملمّع بأنواع من الألوان. فقال بعض شعراء الشام في ذلك اليوم:

---

(١) الأغاني ١٧ / ٣٠٠ - ٣٠١، باشراف محمد أبي الفضل إبراهيم.

(٢) حياة الإمام الحسين، للقرشي ٢ / ١٨٣ عن تاريخ المظفّري (مخطوط).

(٣) مع الحسين في نهضته للشيخ أسد حيدر، ص ٤٦، عن حياة الحيوان للدميري مادة (فهد) ٢ / ١٥٧ .

تمسك أبا قيس بفضل عنانها فليس عليها إن سقطّت ضمان
ألا من رأى القرد الذي سبقت به جياد أمير المؤمنين أتان[١]

وأرسل يزيد (أبا قيس) مرةً في حلبة السباق فطرحته الريح فمات فحزن عليه حزناً شديداً وأمر بتكفينه ودفنه كما أمر أهل الشام أن يعزّوه بمصابه وأنشأ في رثائه:

كم من كرام وقوم ذي محافظةٍ جاؤوا لنا ليعزّوا في أبي قيس
شيخ العشيرة أمضاها وأجملها على الرؤوس وفي الأعناس والريس
لايُبعد اللّه قبراً أنت ساكنه فيه جمال وفيه لحية التيس[٢]

وكان أبو قيس قرداً خبيثاً أثيراً عند يزيد بن معاوية لايكاد يفارقه وكان يُجلسه في مجلسه بين يديه ويقول: (هذا شيخ من بني اسرائيل أصاب خطيئة فمُسخ وكان يسقيه النبيذ ويضحك مما يصنع)[٣] واشتهر يزيد بمنادمة القرود حتى قال فيه رجل من التنوخ:

يزيد صديق القرد ملّ جوارنا فحنّ إلى أرض القرود يزيد
فتبّاً لمن أمسى علينا خليفةً صحابته الأدنون منه قرود[٤]

وخرج يزيد يتصيّد بجواري وهو سكران فركب وبين يديه أتان وحشية قد حمل عليها قرد ويكنيه يزيد أبا خلف وجعل يركّض الأتان، ويقول:

أبا خلف إحتل لنفسك حيلةً فليس عليها إن هلكت ضمان

فسقط واندقت عنقه[٥].

---

(١) مروج الذهب للمسعودي، ٣ / ٦٧، فهارس أسعد داغر.
(٢) القرشي حياة الإمام الحسين ٢ / ١٨٢ عن جواهر المطالب مخطوط.
(٣) مقدمة مرآة العقول للسيد العسكري ٢ / ١٥١ عن أنساب الأشراف ٤ / ١١ - ٢ .
(٤) نفس المصدر.
(٥) نفس المصدر، عن أنساب الأشراف.

الشرب والسكر في حياة الوليد بن يزيد

يقول أحمد بن عبد ربّه الأندلسي: (عكف الوليد على البطالة وحب القيان والملاهي والشراب ومعاشقة النساء)[1] ثم يروي أحمد بن عبد ربّه، عن علي بن عباس قال:

إني عند الوليد بن يزيد في خلافته إذ أتى بشراعة (من رجال الاختصاص في الشرب واللّهو) فواللّه ماسأله عن نفسه ولا عن مسيره حتى قال له: ياشراعة أنا واللّه مابعثت اليك لأسألك عن كتاب اللّه وسنة رسوله. قال: واللّه لو سألتني عنهما لوجدتني فيهما حماراً. قال: إنما أرسلت اليك لأسألك عن القهوة؟ (الشراب) قال: دهقانها الخبير ولقمانها الحكيم.

قال: فأخبرني عن الشراب؟

قال: يسأل أمير المؤمنين عمّا بدا له.

قال: ماتقول في الماء؟

قال: لابد لي منه، والحمار شريكي فيه!

قال: ماتقول في اللبن؟

قال: مارأيته قط الا استحييت من أمي لطول ما أرضعتني به!

قالك ماتقول في السويق؟

قال: شراب الحزين والمستعجل المريض.

قال: فنبيذ الخمر؟

قال: تلهو به عن الشراب.

قال: ماتقول في الخمر؟

قال: أواه تلك صديقة روحي.

---

(٥) العقد الفريد، ٥ / ١٩٨ .

فقال: وأنت واللّه ضديق روحي فأيّ المجالس أحب؟

قال: ماشُرب الكأس على وجه أحسن من السماء[1].

ترى أمير المؤمنين يستدعي شراعة من مكان بعيد ليسأله عن (القهوة).

ويصف له ألوان الشراب ثم لايشربها؟

ويسهر الوليد ليله حتى الفجر ويكثر من الشرب والسماع حتى يُحصي له ابن أبي الزناد سبعين قدحاً[2] ونحن وان احتملنا المبالغة في هذا الاحصاء إلا أننا لانشك فيما اشتهر عن الوليد من الافراط في الشرب والسكر.

وينادم الوليد ندماءه ليلة على الخمر والسكر وقد وضعت أمامهم جفنه من الخمر انعكس عليها نور القمر فيحلف الوليد أن لايفارق الخمر (هفت هفته) أي سبعة أسابيع (٤٩) يوماً فيحتجب عن الناس ليفرغ للخمر والسكر ويحاول حاجبه ان يصرفه عن ذلك فيأمر به أن يوضع في فمه قمع، ثم جعلوا يصبّون في فمه الخمر حتى عاد مايعقل سُكراً[3].

ويملأ له جرن من الخمر فيشرب هو وندماؤه منه حتى يفرغ الجفنة من الخمر[4].

ويحلو له منظر غدير صغير من الماء فيسكر على الغدير ويطرب للمنظر الجميل في الليلة المقمرة فيحلف - وهو سكران - ان يشرب ماء الغدير كله، فيضطر ندماؤه وأصحابه أن يفرّغوا الغدير من الماء ليفي أمير المؤمنين بيمينه[5].

ولما تولّى الوليد الخلافة: بعث إلى جماعة من أهله. فقال: أتدرون لِمَ دعوتكم؟

---

(١) العقد الفريد، ٥ / ٢٠٢ بتحقيق الدكتور عبد المجيد الترحيني. ومروج الذهب للمسعودي ٣ / ٢١٤، والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ٧ / ٤٨ - ٤٩، واللفظ للأول.

(٢) العقد الفريد ٥ / ٢٠٢، بتحقيق الدكتور عبد المجيد الترحيني.

(٣) مروج الذهب ٣ / ٢١٧، بتحقيق وفهرسة يوسف أسعد داغر، والأغاني لأبي الفرج ٧ / ٦٠ - ٦١، ط دار الكتب المصرية.

(٤) الأغاني ٧ / ٢٤، ط دار الكتب المصرية.

(٥) نفس المصدر، ٧ / ٤٧ .

فقالوا: لا.

قال: ليقل قائلكم.

فقال رجل منهم: أردت يا أمير المؤمنين أن تُرينا ماجدد اللّه لك من نعمته واحسانه.

فقال: نعم ولكنني:

أُشهد اللّه والملائكة الأبـ ـرار والعابدين أهل الصلاح
أنني أشتهي السماع وشرب الكأس والعض للخدود الملاح
والنديم الكريم والخادم الفا ره يسعى عليّ بالأقداح

ثم قال لهم: قوموا اذا شئتم[١].

أسمعتم البيان الأول الذي ألقاه أمير المؤمنين على أهله الأدنين منه في أول يوم من خلافته؟

ويسكر هو وندماؤه ويديمون الشرب حتى طلوع الفجر فيضطر الفرّاشون أن يحملوهم على البُسط ويلقوهم في دار الضيافة (عدا أمير المؤمنين طبعاً) ويقول أحدهم: فما أفقنا حتى طلعت الشمس[٢] وعسى ألا تكون قد فاتتهم صلاة الفجر!!

ويُفرط الخليفة في الشرب حتى تعمى عيناه من فرط السكر ويفقد وعيه[٣].

ويسهر مع جاريته الأثيرة لديه فيسكر وتسكر حتى إذا أذّن المؤذّن لصلاة الفجر أمرها أن تتلثّم حتى يحسب الناس انها أمير المؤمنين تخرج من باب مقصورة السهر إلى صلاة الفجر تؤم المسلمين لصلاة الفجر وهي مُجنبة وسكرى[٤]، إلى غير ذلك من قصص شرب الخلفاء من بني أمية وسكرهم واستهتارهم بحدود اللّه

(١) المصدر السابق، ٧ / ٢٢ .
(٢) نفس المصدر، ٧ / ٦٧ - ٦٨ .
(٣) نفس المصدر، ٧ / ٨٩ .
(٤) راجع العقد الفريد ٥ / ٢٠٥ بتحقيق عبد المجيد الترحيني والأغاني ٧ / ٤٧، ط دار الكتب.

تعالى وأحكامه، وكل ذلك يجري في قصر الخلافة وبمحضر من أمير المؤمنين بل معه وعليه..

الغناء والطرب

وأما الغناء فقد ولع فيه حكام بني أمية وقد كان يُحمل إلى قصر الخليفة المغنّون من سائر البلاد فيستمع اليهم الخليفة ويجيزهم من أموال بيت مال المسلمين المبالغ الكبيرة ويستبقي عنده من ينتقي منهم ويصرف منهم من يشاء.

وكان بنو أمية يسمحون لأنفسهم أن يأخذ منهم الطرب مأخذه.. وكان السابقون من خلفاء بني أمية يحتفظون للخليفة أمام ندمائه وجلسائه ببعض حشمة الخلافة فيحتجبون عن ندمائهم لحظات الطرب العارية أما المتأخرون منهم فقد أباحوا لأنفسهم أن يلعب بهم الطرب كيفما يشاء بمحضر من جلسائهم وندمائهم حتى أن الخليفة كان يرقص ويترنح للأغنية اذا طابت له ويتجرّد من ملابسه. يقول الجاحظ في الفروق بين حكام بني أمية السابقين واللاحقين في التظاهر بالطرب:

أما معاوية بن أبي سفيان ومروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان وسليمان وهشام ومروان بن محمد فكان بينهم وبين الندماء ستارة، وكان لايظهر أحد من الندماء على مايفعله الخليفة إذا طرب للمغنّي والتذّ، حتى يتقلّب ويمشي ويحرّك كتفيه ويرقص ويتجرّد فلا يراه إلا خواص جواريه.. وأمّا الباقون من خلفاء بني أمية فلم يكونوا يتحاشون أن يرقصوا ويتجرّدوا ويحضروا عُراة بحضرة الندماء والمغنين[1].

ومن مشاهد الطرب القبيحة في حياة بني أمية نستمع إلى القصة التالية يرويها المسعودي عمّن حدّثه، عن سمير من سُمّار الوليد؛ قال: كنت سميراً للوليد بن يزيد فرأيت ابن عائشة القرشي عنده، وقد قال له غنّني فغنّاه:

---

(١) العقد الفريد ٥ / ٢٠٠ .

إني رأيت صبيحة النحر حوراً نفين عزيمة الصبر
مثل الكواكب في مطالعها عند العشاء أطفن بالبدر
وخرجت أبغي الأجر محتسباً فرجعت موقوراً من الوزر

فقال الوليد: أحسنت والله يا أميري أعد بحياتي، فأعاد. فقال أحسنت والله أعد بحق أمية فأعاد. فجعل يتخطى من أب إلى أب فيأمره بالإعادة حتى بلغ نفسه، فقال: أعد بحياتي، فأعاد. فقام إلى ابن عائشة فأكبّ عليه ولم يبق عضواً من أعضائه إلا قبّله.. (ونعفّف القلم عن ذكر هذه الفقرة من القصة) وقال: وا طرباه وا طرباه ونزع ثيابه فالقاها على ابن عائشة وبقي مجرّداً إلى أن أتوه بثياب غيرها[1].

المجون والخلاعة

وأما عن مجون الخلفاء من بني أمية وخلاعتهم واستهتارهم فحدّث ولا حرج، وما نقرأه في التاريخ لايكاد أن يصدقه الانسان لولا أن المؤرّخين من كل المذاهب يتفقون على مجمل ما كان يجري في قصر الخلافة الأموية من مجون وخلاعة.

حتى أن معاوية بن أبي سفيان يأخذ عبده إلى مضجع ابنته وهي عارية ويشير إلى عورتها بالعصا[2].

ويموت هشام وتنتقل الخلافة إلى الوليد فيسمع الوليد وهو في نشوة الخلافة الجديدة رنّة بكاء ونعي في قصور هشام من بناته ونسائه فيقول:

إني سمعت بليل وروا المصلّى برنّه
إذا بنات هشام يندبن والدهنّ
يندبن قرماً جليلاً قد كان يعضدهنّ

(١) التاج في أخلاق الملوك للجاحظ.
(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٨ / ١٤٠ .

أنـا المخـنّـث حـقـاً ان لم ......[١]

ومن أقبح مايُنقل بهذا الصدد أن الوليد كان يستمع إلى مغني يغنّي له فأزعجه بعض ندمائه بسؤال قطع عليه نشوته فأمر بعض الجالسين أن يأتي معه بالعمل القبيح بنفس المجلس، فنفذت أوامر الخليفة حرفياً فيه بمحضر من الندماء والخليفة ينظر ويضحك. ومن لايصدّق فعليه بمراجعة كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني الأموي[٢].

ويروي أبو الفرج الاصفهاني الكثير من هذه المخازي عن بني أمية نعفّف القلم عن ذكرها، وكمثل على ذلك راجع الأغاني في قصة الأشعب مع الوليد[٣] وفي قصة أقبح من ذلك كلّه بحيث يستدعي قبحها أبا الفرج إلى التشكيك بصحتها[٤]، ننزّه هذه الصفحات عن ذكرها، وكثيرة هي مخازي بني أمية في هذا الباب نعرض عنها صفحاً، ونطوي كشحاً..



(١) الأغاني للاصفهاني ٧ / ١٧، دار الكتب.
(٢) نفس المصدر، ٧ / ٤٧ .
(٣) نفس المصدر، ٧ / ٤٧ و٧ / ٥٩، ط دار الكتب.
(٤) نفس المصدر، ٧ / ٦٠ - ٦١ .

- ٥ -

السياسة الأموية





سياسة بني أمية في إذلال المسلمين

سلك حكّام بني أمية مسالك عجيبة في إذلال المسلمين وتحطيم شخصيتهم المعنوية لغرض السيطرة عليهم وتمكين قبضتهم منهم وتصفية كل حالات المعارضة والتمرّد ضد النظام.

يقول الوليد بن يزيد:

فدع عنك ادكارك آل سُعدَى ... فنحن الأكثرون حصىً ومالا

ونحن المالكون الناس قسراً ... نسومهم المذلّة والنكالا

ونوردهم حياض الخسف ذُلاً ... وما نألوهم إلا خَبالا[1]

وهذه الأبيات تكشف بدقة عن توجّه بني أمية السياسي في قهر الأمة وإذلالها وفرض نفوذهم وسلطانهم عليها.

ولا تحسب أن هذا التصور المتطرف يخص الوليد بن يزيد من بين حكام بني أمية.. فقد كان جُلّ بني أمية وعمالهم يرون مثل هذا الرأي أو قريباً منه.

وكانوا يعلنون للناس رأيهم هذا من دون تحرّج أو حياء، وبلغ بهم الأمر أنهم كانوا يمارسون استرقاق المسلمين وسبي المسلمات المؤمنات واسترقاقهن وعرضهن في الأسواق.

وبُسْر بن أرطاة هو أول من اقترف هذه الجريمة في تاريخ الإسلام. فسبى

(١) حياة الإمام موسى بن جعفر للقرشي ١ / ٣٨٧ .

المؤمنات من همدان المعروفة بولائها لأهل البيت(ع) وعرضهنّ في الأسواق للبيع وكان الناس يكشفون عن سيقانهن ليشتروهنّ، كما يصنع تجار الرقيق في أسواق النخاسة والرقيق، كما فعل ذلك بُسْر بن أرطاة عندما أرسله معاوية إلى اليمن بالمسلمات المؤمنات اليمانيات، سباهنّ وأقامهن في الأسواق للبيع.

وقد ذكر إجمال هذا الحديث ابن عبد البر القرطبي في ترجمة بُسر بن أرطاة، قال ابن عبد البر عن سبي نساء همدان: فكنّ أوّل مسلمات سُبين في الإسلام[1].

وعندما تمرّد العراق على الحجاج وتمكّن الحجاج من هزيمة الذين خرجوا عليه من أهل العراق رأى أن أكثر من خرج عليه من الفقهاء والمقاتلة (الجنود) والموالي، ففكّر في أن يفرّق شملهم بتفريقهم في البلاد. يقول ابن عبد ربه الأندلسي: فأقبل على الموالي وقال: أنتم علوج وعجم وقراكم أولى بكم، ففرّقهم وفضّ جمعهم كيف أحب، وصيّرهم كيف شاء، ونقش على يد كل رجل منهم اسم البلدة التي وجّهه اليها[2]، كما يصنع تجار الرقيق بالرقيق.

يقول ابن أبي الحديد في أحوال بني أمية:

(وكانوا يسبون ذراري الخوارج من العرب وغيرهم. ولما قُتل قريب وزحّاف الخارجيان سبى زياد ذراريهما، فأعطى شقيق بن ثور السدوس إحدى بناتهما وأعطي عبّاد بن حصين الأخرى، وسبيت بنت لعبيدة بنْ هلال الشكري وبنت لقطري بن الفجاءة المازني، فصارت هذه إلى العباس بن الوليد بن عبد الملك واسمها أم سلمة فوطأها بملك اليمين على رأيهم.. وسُبي واصل بن عمر القنا واستُرِقّ وسُبي سعيد الصعر الحروري)[3].

وهكذا كانت سيرة بني أمية في إذلال المسلمين واسترقاقهم واستعبادهم كالمشركين تماماً وقد أسرفوا في ذلك أيّما إسراف حتى قالوا: إنّ بني أمية كانت

---

(١) الاستيعاب بهامش الإصابة، الطبعة الأولى سنة ١٣٢٥هـ ١ / ١٥٧ - ١٥٨ .
(٢) العقد الفريد ٣ / ٣٦٤ .
(٣) شرح النهج لابن أبي الحديد ١٥ / ٢٤١ - ٢٤٢ .

تبيع الرجل في دين يلزمه وترى أنه يصير بذلك رقيقاً[١].

وأفظع من ذلك كله وأبلغ في إذلال المسلمين ماكان من فعل مسلم بن عقبة (وكان يسمّى بمسرف) قائد جيش يزيد بن معاوية إلى المدينة المنورة في وقعة الحرّة المعروفة.. عندما احتل المدينة المنوّرة وأباحها لجيشه، حيث دعا المسلمين إلى بيعة يزيد بن معاوية على دمائهم وأموالهم وأهليهم. وأنهم عبيد ليزيد بن معاوية يقضي في دمائهم وأموالهم وأنفسهم بما شاء[٢].

وعلى هذه الطريقة جرى بنو أميّة في إذلال المسلمين واخضاعهم لنزواتهم ورغباتهم وتصفية حالات المعارضة السياسية والعسكرية وتحكيم قبضتهم على مصائر الناس وأقدارهم.

إحياء النزعات القومية الجاهلية

كان معاوية وعمّاله يحسنون إثارة الفتن بين المسلمين، ويعرفون جيداً مواقع الفتنة والإختلاف فيما بين العرب والقبائل، ويحسنون استثمار ذلك في مواضع الحاجة وكان من أبرع عمّال معاوية في ذلك زياد بن أبيه الذي استطاع أن يخضع قبائل العراق لسلطانه بما أثار بينهم من الخلافات.

وكان معاوية بارعاً ذكياً في هذا المجال يعمل بذكاء وفطنة حاول مرةً أن يثير الخلاف بين الإمام الحسن عليه السلام وابن الزبير في مجلسه بالشام، ورغم أن الإمام(ع) حاول أن يتلافى ذلك إلا أن معاوية أفلح في إثارة أبي سعيد بن عقيل بن أبي طالب في نفس المجلس ضد ابن الزبير وبالعكس فحصل ما أراد الإمام الحسن(ع) أن يتجنّبه[٣].

---

(١) المصدر السابق.
(٢) راجع ماشئت من المراجع التاريخية المعروفة التي أرّخت هذه الفترة كالكامل لابن الأثير ١١٨/٤ ط١٣٨٥هـ ، الامامة والسياسية لابن قتيبة ١ / ٢١٤، ط ١٣٨٨هـ . وتاريخ اليعقوبي ٢ / ٢٣٧ ط ١٣٩٤هـ ومروج الذهب للمسعودي ٣ / ٧٠، ط ١٤٠٤هـ .
(٣) اقرأ العقد الفريد ٤ / ٩٩ .

وكان بنو أمية ينزعون بشكل واضح إلى النزعة القومية التي قضى عليها الإسلام، ويحاولون إعادة الحواجز التي هدمها الإسلام بين العرب وغيرهم، ولم تكن تطمئن نفوسهم إلى ما أقرّه الإسلام من مساواة العرب بغير العرب واستبدال المقاييس الجاهلية بالتفاضل بالتقوى ﴿إنّ أكرمكُم عند اللّه أتقاكم﴾ وقد بدأت هذه النزعة الجاهلية القومية تدخل إلى المجتمع الإسلامي في أيام معاوية، وتتعمق وتتأصّل حتى عادت أصلاً من أصول الحكم في أيام بني أمية.

يقول زياد: دعا معاوية الأحنف بن قيس وسمرة بن جندب فقال: إني أريت هذه الحمراء (يعني: الموالي من غير العرب) قد كثرت، وأراها قد طعنت على السلف وكأني أنظر إلى وثبة منهم على العرب والسلطان فقد رأيت أن أقتل شطراً وأدع شطراً لإقامة السوق وعمارة الطريق، فما ترون؟

فقال الأحنف: أرى إنّ نفسي لاتطيب، أخي لأمي وخالي ومولاي وقد شاركونا وشاركناهم في النسب فظننت أني قد قتلت عنهم وأطرق.

فقال سمرة بن جندب: اجعلها اليّ أيّها الأمير فأنا أتولى ذلك منهم وأبلغ منه.

فقال: قوموا حتى أنظر في هذا الأمر[1].

ومن عجيب أمر سمرة بن جندب أنه لايكتفي بتشجيع معاوية على إبادة الموالي من المسلمين فقط، وإنما يتبرّع لمعاوية ويتطوّع له بهذه المهمة وقد فعل الحجاج بن يوسف الثقفي بالمسلمين من غير العرب أقبح مايمكن أن يعمله حاكم بالمسلمين.

يقول ابن عبد ربه: (إن الحجاج لما خرج عليه ابن الأشعث وعبد اللّه بن الجارود، ولقي مالقي من قرّاء أهل العراق، وكان أكثر من قاتله وخلعه وخرج عليه الفقهاء، والمقاتلة والموالي ثم أهل البصرة، فلمّا علم أنهم الجمهور الأكبر والسواد الأعظم، أحبّ أن يُسقط ديوانهم، ويفرّق جماعتهم حتى لايأتلّفوا ولا يتعاقدوا. فأقبل على الموالي، وقال: أنتم علوج وعجم وقراكم أولى بكم ففرّقهم، وفضّ

(١) العقد الفريد ٣ / ٣٦١، تحقيق عبد المجيد الترحيني ١٤٠٤هـ

جمعهم، كيف أحبّ، وصيّرهم كيف شاء، ونقش على يد كل رجل منهم اسم البلدة التي وجهه اليها وكان الذي تولّى ذلك رجل من بني سعد بن عجل بن لجيم يقال له خرّاش بن جابر.

وقال شاعرهم:

وأنت من نقش العجلي راحته وفرَّ شيخك حتى عاذ بالحكم[١]

وهكذا اسقط الحجاج أسماء هؤلاء المسلمين من ديوان عطاء المسلمين، وفرقهم في القرى البعيدة، ونقش على أيديهم بأسماء قراهم، كما ينقش بالكي أسماء الرقيق على أيديهم.

وقد أثّرت هذه النزعة الأموية تأثيراً قبيحاً في بعض أوساط المسلمين العرب وأعادت اليهم النزعة الجاهلية التي استأصلها الإسلام من نفوسهم، وأثارت في نفوسهم الحساسية تجاه المسلمين من غير العرب، حتى أصبح بعضهم لايكتم احتقاره لغير العرب من المسلمين (الموالي).

يقول ابن عبد ربه: كان نافع بن جبير اذا مرّت به جنازة قال: مَن هذا؟ فإذا قالوا قرشيّ قال: واقوماه، وإذا قالوا عربي قال: وابلدتاه، وإذا قالوا: مولى، قال: هو مال الله يأخذ مايشاء ويدع مايشاء[٢].

وكانوا يقولون: لايقطع الصلاة إلا ثلاثة: حمار أو كلب أو مولى[٣].

ومن طريف ماينقله أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي عن العصبية القومية التي أثارها بنو أمية في نفوس المسلمين القصة التالية:

قال ابن أبي ليلى: قال لي عيسى بن موسى، وكان جائراً شديد العصبية: من كان فقيه البصرة؟

قلت: الحسن بن أبي الحسن. قال: ثم من؟ قلت: محمد بن سيرين. قال: فما

(١) العقد الفريد ٣ / ٣٦٤، بتحقيق الترحيني.
(٢) نفس المصدر ٣ / ٣٦٠ - ٣٦١ .
(٣) نفس المصدر ٣ / ٣٦١ .

هما؟ قلت: مولَيان قال: فمن كان فقيه مكة؟ قلت: عطاء بن أبي رباح أو مجاهد بن جبر، وسعيد بن جبير، وسليمان بن يسار. فقال: فما هؤلاء؟ قلت: موالي.

فتغيّر لونه، ثم قال: فمن أفقه أهل قباء؟ قلت: ربيعة الرأي، وابن أبي الزناد، قال: فما كانا؟ قلت: من الموالي، فأربد وجهه، ثم قال: فمن كان فقيه اليمن؟ قلت طاووس وابنه وهمام بن منبه. قال: فما هؤلاء؟ قلت: من الموالي.

فانتفخت أوداجه وانتصب قاعداً، ثم، قال: فمن كان فقيه خراسان؟ قلت: عطاء بن عبد اللّه الخراساني، قال: فما كان عطاء هذا؟ قلت: مولى، فازداد وجهه تربّداً واسودّ اسوداداً حتى خفته ثم قال: فمن كان فقيه الشام؟ قلت: مكحول قال: فما كان مكحول هذا؟ قلت: مولى، فازداد تغيّظاً وحنقاً، ثم قال: فمن كان فقيه الجزيرة؟ قلت: ميمون بن مهران، قال: فما كان؟ قلت: مولى.

قال: فتنفس الصعداء، ثم قال: فمن كان فقيه الكوفة؟ قلت: فواللّه لولا خوفي لقلت: الحكم بن عيينة، وعمار بن أبي سليمان، ولكن رأيت فيه الشر، فقلت: إبراهيم، والشعبي. قال: فما كانا؟ قلت: عربيان، قال: اللّه أكبر وسكن جأشه[1].

وقد بلغ من احتقار بني أمية للموالي المسلمين من غير العرب أن كانوا يضعون عليهم الجزية كما يضعون الجزية على غير المسلمين من أهل الكتاب، وكانوا يستخدمونهم في الحروب من غير عطاء ورزق.. حتى خلافة عمر بن عبد العزيز حيث كتب إلى الجرّاح عامله على خراسان أن يضع الجزية عن المسلمين.

يقول ابن الاثير في أحداث سنة مائة أيام عمر بن عبد العزيز: قال رجل من الموالي يكنّى أبا الصيّد لعمر بن عبد العزيز: (يا أمير المؤمنين عشرون ألفاً من الموالي يغزون بلا عطاء ورزق ومثلهم قد أسلموا من الذمة يؤخذون بالخراج)[1].

وعلى هذه الطريقة جرى بنو أمية في إعادة النزعة القومية الجاهلية إلى حياة المسلمين من جديد كأقوى مايكون، وأثار الحساسية الشديدة بين العرب وغيرهم

---

(١) المصدر السابق ٣ / ٣٦٣ - ٣٦٤ .

(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٥ / ٥١، دار صادر، ودار بيروت ١٢٨٥هـ.

في المجتمع الإسلامي الجديد الذي احتضن المسلمين جميعاً من كل بلد وقوم في جوٍّ عامر بالأخوّة والرحمة. وقد أضرّت هذه النزعة الأموية ضرراً بليغاً بالمجتمع الإسلامي، وتركت في حياة المسلمين آثاراً سيئةً يعاني منها المجتمع الاسلامي حتى اليوم الحاضر.

سياسة بني أمية في الأموال

كان من رأي معاوية أن المال مال اللّه، وهو خليفة اللّه ومن حقه أن يصنع في مال اللّه مايشاء دون حساب وكتاب، وهو موضوع الخلاف التاريخي المعروف بينه وبين الصحابي الجليل أبي ذر رحمه اللّه. فقد كان أبو ذر يرى في اسراف معاوية في بيت المال مايخالف سُنة رسول اللّه(ص) فينكر ذلك على معاوية، وقد كان معاوية يعلن رأيه هذا اعلاناً ويُسمع الناس مايراه في المال.

يقول المسعودي: (قال معاوية يوماً وعنده صعصعة «ابن صوحان»، وكان قدم عليهُ بكتاب عليّ وعنده وجوه الناس: الأرض للّه، وأنا خليفة اللّه، فما أخذت من مال اللّه فهو لي، وما تركت منه كان جائزاً لي).

فقال صعصعة:

تُمنّيك نفسك ما لايكون جهلاً معاوي لاتأثم[1]

وكان معاوية يمنح لنفسه حقاً أن يستصفي مايشاء من أموال الناس.

يقول اليعقوبي: (واستصفى - أي معاوية - أموال الناس فأخذها لنفسه)[2].

ويقول اليعقوبي في شرح خراج بلاد المسلمين في عهد معاوية: (أخرج معاوية من كل بلد ماكانت ملوك فارس تستصفيه لأنفسها من الضِياع العامرة وجعله صافياً لنفسه، فأقطعه جماعة من أهل بيته)[3] وكان معاوية يهب خراج المسلمين

(١) مروج الذهب ٣ / ٤٣ بفهارس يوسف أسعد داغر.
(٢) اليعقوبي ٢ / ٢١٩، ط النجف ١٣٩٤هـ.
(٣) نفس المصدر ٢ / ٢٢٠، ط النجف ١٣٩٤هـ مكتبة مصطفى البابي بمصر ١٣٨٨هـ .

وولاياتهم (طُعمةً) لمن يشاء من أقاربه وبطانته الذين أعانوه في الاستيلاء على الحكم.

وقد جاء إليه سعيد بن عثمان بن عفان بعد أن أعلن معاوية بيعة يزيد وليّاً للعهد يعاتبه في ذلك فأعطاه معاوية خراسان (طعمةً) له، يقول ابن قتيبة الدينوري (٢٧٦هـ):

إن سعيداً قال لمعاوية: (فاذا أبيت فأعطني مما أعطاك اللّه. فقال معاوية: لك خراسان. قال سعيد: وما خراسان؟ قال: إنها لك طُعمة وصلة رحم)، فخرج راضياً وهو يقول:

ذكرت أمير المؤمنين وفضله فقلت جزاه اللّه خيراً بما وصل
وقال خراسان لك اليوم طُعمةً فجوزي أمير المؤمنين بما فعل[1]

وقد يستغرب الناس أن يسمعوا أن خليفة رسول اللّه يهب ولاية من ولايات المسلمين طُعمة لبعض أقاربه ليرضيه ويكسبه لمبايعة ولي عهده (يزيد)، ولكنه الأمر الواقع الذي حدث في تاريخ الخلافة في أيام معاوية، ثم استمرّ من بعده سُنّة الخلفاء من بني أمية وبني العباس.

وقد وهب معاوية خراج مصر والمغرب جميعاً طعمة لعمرو بن العاص، لا يراجعه في أمر شيئ.

وقد اشترط عمرو ذلك على معاوية، يقول اليعقوبي: (وكانت مصر والمغرب لعمرو بن العاص طعمة شرطها له يوم بايع، ونسخة الشرط: (هذا ما أعطى معاوية بن أبي سفيان عمرو بن العاص مصر، أعطاه أهلها فهم له حياته ولا تنقض طاعته شرطاً)... فقال له وردان: وما عمرك أيها الشيخ الأكظم حمار هلا شرطت لعقبك من بعدك؟ فاستقال معاوية فلم يقله. فكان عمرو لايحمل إليه من مالها شيئاً يفرّق الأعطية في الناس فما فضل من شيء أخذه لنفسه)[2]. وكان خراج

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ١٩١ / ١٩٢ .
(٢) تأريخ اليعقوبي ٢ / ٢٠٩، ط النجف ١٣٩٤هـ.

مصر ثلاثة ملايين ديناراً فيما يقدّره اليعقوبي في التاريخ[١].

مقارنة بسياسة الإمام في الأموال

إن معاوية وبني أمية كانوا يتصرّفون في بيت مال المسلمين وخراج المسلمين على أنه مال الله، ولهم مطلق الحق في التصرّف فيه تبذيراً وإسرافاً، وعلى أن يعطوه لهذا ولذاك طُعمة وترضيةً وايّة طعمة؟، فإنّ ولاية مصر كلها طعمة لعمرو مادام حياً بما في ذلك أهل مصر وخراج مصر. وكم يجد الإنسان الفارق كبيراً، بين السياسة الأموية هذه في المال وبين سياسة الإمام وهديه في المال ومحاسبة ولاته وعمّاله على البلاد.

ونحن نعرض هنا نموذجين من رسائل الإمام إلى عمّاله في محاسبتهم على تصرفاتهم المالية لنلمس هذا الفرق الكبير بين هاتين السياستين اللتين عايشتهما الأمة الإسلامية في فترة قصيرة من تاريخها.

١ - كتاب الإمام إلى مصقلة بن هبيرة

يقول اليعقوبي: إنّ الإمام كتب إلى مصقلة بن هبيرة، وقد بلغه أنه يفرّق ويهب أموال (أردشير خرة) وكان عليها: (أمّا بعد فقد بلغني عنك أمر أكبرت أنْ أصدّقه: انك تقسم فيء المسلمين في قومك ومن اعتراك من السألة والأحزاب وأهل الكذب من الشعراء كما تقسّم الجوز، فو الذي فلق الحبة وبَرَأ النسمة لأفتشنّ عن ذلك تفتيشاً شافياً فإنْ وجدته حقاً لتجدّن بنفسك عليّ هواناً، فلا تكونن من الخاسرين أعمالاً الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يُحسنون صنعا)[٢].

فكتب مصقلة إليه: (أما بعد فقد بلغني كتاب أمير المؤمنين فليسأل فإنْ كان

(١) المصدر السابق ٢ / ٢٠٩، ط النجف ١٣٩٤هـ .
(٢) المصدر السابق ٢ / ١٨٨ .

حقّاً ليعجّل عَزلي بعد نَكالي فكل مملوك لي حر وعليّ آثام ربيعة ومضر إنْ كنت رُزِئتُ من عَمَلي ديناراً ولا درهماً ولا غيرهما منذ ولّيته).

٢- كتاب الإمام إلى عثمان بن حنيف الأنصاري

وكتب الإمام إلى عثمان بن حنيف الأنصاري، وكان عامله على البصرة، وقد بلغه أنه دُعي إلى وليمة قومٍ من أهلها فمضى إليها (أما بعد: يا بن حنيف فقد بلغني أن رجلاً من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبةٍ فأسرعت اليها، تستطاب لك الألوان وتنقل إليك الجفان وما ظننت أنك تُجيبُ إلى طعام قومٍ عائلهم مجفوّ وغنيّهم مدعوّ. فانظُر إلى ماتقضمِهُ مِنْ هذا المقضم فما اشتبه عليك فالفظهُ وما أيقنت بطيب وجوهه فنَلْ منه، ألا وإنَّ لكل مأموم اماماً يقتدي به ويستضيء بنوره. ألا وإنّ إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه ومن طُعْمه بقرصيه ألا وإنّكم لا تقدرون على ذلك، ولكنْ أعينوني بورعٍ واجتهاد وعفّةٍ وسداد)[1].

استخدام المال للاغراض السياسية

وكان بنو أمية يستخدمون بيت مال المسلمين لتحقيق أهدافهم السياسية بشكل واسع ومن دون حدود، وكان معاوية يبذل المال بذلاً لكسب ودّ الناس ولجذبهم واستقطابهم من حوله، ولئن كان معاوية يعلم أن المال لايصْنع الحبّ والولاء فقد كان يكفي معاوية أنه يستطيع بهذا البذل أن يسترضي جملة من وجوه الساخطين عليه ويسكت جملة من زعماء المعارضة ويشتري ضمائرهم، وهو في ذلك صاحب نظرية معروفة.

فقد روي أنّ يزيد بن معاوية يوم بُويع له بالخلافة من بعد أبيه تسابق الشعراء والوجهاء لتقديم آيات الولاء له ولأبيه، وهو يعلم أن كلما أسمعه القوم يومذاك من

---

(١) نهج البلاغة بفهارس صبحي الصالح ٤١٦ - ٤١٧ .

الملق ليس فيه شيء من الصدق..

فقال لأبيه: (يا أمير المؤمنين ماندري أنخدْع الناس أمْ يخدعوننا؟ فقال له معاوية: كل من أردت خديعته فتخادع لك حتى تبلغ منه حاجتك فقد خدعته)[١].

ويقول ابن الأثير: وفد الأحنف بن قيس وجارية بن قدامة السعديّان والجون بن قتادة العيشمي والحتات بن يزيد إلى معاوية بن أبي سفيان فأعطى كل رجل منهم مائة ألف، وأعطى الحتات سبعين ألفاً.

فلما كانوا في الطريق ذكر كل جائزته فرجع الحتات إلى معاوية، فقال: فضحتني في بني تميم أما حَسَبي صحيح أولست ذا سن؟ ألست مُطاعاً في عشيرتي؟ قال: بلى، قال: فما بالك خسست بي دون القوم؟ وكان حضر الجمل مع عائشة، وكان الأحنف وجارية يريدان عليّاً.. قال: إنّي اشتريت من القوم دينهم، ووكلتك إلى دينك ورأيك في عثمان، وكان عثمانياً. فقال: وأنا فاشتر مني ديني! فأمر له باتمام جائزته ثم مات الحتات فحبسها معاوية[٢].

وكان معاوية قد عزم أن يعزل المغيرة من الكوفة ويستعمل مكانه سعيد بن العاص، فعلم المغيرة بذلك فشخص إلى معاوية ورغّبه في البيعة ليزيد من بعده. فقال له معاوية: ومن لي بهذا؟ فقال: أنا أكفيك الكوفة وزياد يكفيك أهل البصرة، فقال له معاوية: ارجع إلى عملك وتحدث مع من تثق به إلى ذلك، يقول ابن الأثير: فرجع إلى أصحابه فقالوا: مه؟ قال: لقد وضعت رِجْل معاوية في غرز بعيد الغاية على أمة محمد وفتقت عليهم فتقاً لايُرتق أبداً.

وسار المغيرة حتى قدم الكوفة، وذاكر من يثق إليه ومن يعلم أنه شيعة لبني أمية أمر يزيد فأجابوا إلى بيعته فأوفد منهم عشرة.. وأعطاهم ثلاثين ألفاً، وجعل عليهم ابنه موسى بن المغيرة وقدموا على معاوية، فزيّنوا له بيعة يزيد، ودعوه إلى عقدها فقال معاوية: لاتعجلوا بإظهار هذا وكونوا على رأيكم. ثم قال لموسى: بكم

(١) الكامل للمبرد ص ٣٠٥، مطبعة مصطفى محمد بمصر، ١٣٥٥هـ.
(٢) الكامل لابن الأثير ٣ / ٤٦٨، ط بيروت ١٣٨٥ هـ.

اشترى أبوك من هؤلاء دينهم؟ قال: بثلاثين ألفاً. قال: لقد هان عليهم دينهم[١].

وفي رواية أخرى أرسل معهم ابنه عروة، فقال معاوية لعروة سرّاً: بكم اشترى أبوك من هؤلاء دينهم؟ قال: بأربعمائة. قال: لقد وجد دينهم عندهم رخيصاً[٢].



(١) المصدر السابق ٣ / ٥٠٤ .
(٢) نفس المصدر ٣ / ٥٠٥، بيروت ١٣٨٥ .

- ٦ -

انتحال الحديث على رسول اللّه(ص)





وضع الحديث

من أخطر ماصنعه معاوية في أيام حكمه وجرى عليه من بعده حكّام بني أمية انتحال الحديث على رسول اللّه(ص) بلسان بعض السُذّج من الذين رأوا رسول اللّه(ص) وسمعوا حديثه.. من الذين استغلّهم معاوية استغلالاً سيئاً للوصول إلى غاياته السياسية.

وقد جرّأ معاوية الحكّام والعمال وذوي النفوذ من بعده من الذين توالوا على الحكم على تزوير الحديث على رسول اللّه(ص)، وقد شاع وضع الحديث على رسول اللّه(ص) في العصر الأموي والعصر العباسي حتى أصبح من الصعب تمييز الصحيح من حديث رسول اللّه من الحديث الموضوع.

يقول الشيخ أبو جعفر الإسكافي: إن معاوية وضع قوماً من الصحابة وقوماً من التابعين على رواية أخبار قبيحة في علي(ع) تقتضي الطعن فيه والبراءة منه، وجعل على ذلك جعلاً يرغب في مثله، فاختلقوا ما أرضاه منهم: أبو هريرة وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة ومن التابعين عروة بن الزبير[1].

وقال ابن عرفة المعروف بنفطويه: (إن أكثر الأحاديث الموضوعة في فضائل الصحابة افتُعلت في أيام بني أمية تقرّباً اليهم بما يظنون أنهم يرغمون به أنوف بني هاشم)[2].

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٤ / ٦٣ .
(٢) النصائح الكافية ص٧٤، شرح نهج البلاغة ١١ / ٤٦ .

وكتب معاوية تعميماً إلى عمّاله وولاته على البلدان:

(انظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبّيه، وأهل ولايته والذين يروون فضائله ومناقبه، فادنوا مجالسهم وقرّبوهم وأكرموهم واكتبوا لي بكل مايروي كل رجل منهم واسمه واسم أبيه وعشيرته.

ففعلوا ذلك حتى أكثروا في فضائل عثمان ومناقبه لما كان يبعثه إليهم معاوية من الصلات والكساء والجباء والقطائع، ويفيضه في العرب منهم والموالي فكثر ذلك في كل مصر، وتنافسوا في المنازل والدنيا، فليس يجيء أحد مردود من الناس عاملاً من عمّال معاوية فيروي في عثمان فضيلة أو منقبة إلا كتب اسمه وقرّبه وشفّعه فلبثوا في ذلك حيناً.

ثم كتب إلى عمّاله: أن الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كل مصر وفي كل ناحية، فاذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين، ولا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلا وتأتوني بمناقض له في الصحابة، فإن هذا أحبّ إليّ وأقرّ لعيني وأدحض لحجة أبي تراب وشيعته وأشد عليهم من مناقب عثمان وفضله.

فقرأت كتبه على الناس، فرويت أخبار كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها، وجدّ الناس في رواية مايجري هذا المجرى حتى أشادوا بذكر ذلك على المنابر)[1].

أبو هريرة

وأبرز هؤلاء الصحابة الذين استطاع معاوية أن يستميلهم ويستغلّهم لأهدافه السياسية الصحابي المكثر أبو هريرة. فقد استغلّ معاوية سذاجته، وضعفه، فأدخل على يده من الموضوعات على حديث رسول اللّه(ص) ماشاءت له أهواؤه وأطماعه السياسية.

---

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ١١ / ٤٤ - ٤٥ .

وأغدق عليه معاوية من المال والمناصب ما أشبع به حاجة أبي هريرة إلى المال والسلطان والدنيا. قال أبو جعفر الإسكافي: روى الأعمش قال: لما قدم أبو هريرة العراق مع معاوية عام الجماعة جاء إلى مسجد الكوفة فلما رأى كثرة من استقبله من الناس جثا على ركبتيه، ثم ضرب صلعته مراراً. وقال: يا أهل العراق أتزعمون أني أكذب على اللّه ورسوله، وأحرق نفسي بالنار. واللّه لقد سمعت رسول اللّه(ص) يقول: (إن لكل نبي حرماً وإن حرمي بالمدينة مابين عَيْر إلى ثور فمن أحدث فيها حدثاً فعليه لعنة اللّه والملائكة والناس أجمعين، وأشهد باللّه أن علياً أحدث فيها، فلمّا بلغ معاوية قوله أجازه وأكرمه وولاه إمارة المدينة)[1].

ولئن كان أبو هريرة قد باع دينه لمعاوية بثمن بخس من الدنيا، فيجلس في مسجد الكوفة ليحدّث الناس في ذمّ علي عليه السلام ليرضي بذلك معاوية، فلن تخلو الأرض من رجال أشداء من عامة الناس يصدعون بالحق يصكّون به جبهة أبي هريرة، ولا يعرف التاريخ لهم اسماً ولا رسماً.

روى سفيان الثوري: أن أبا هريرة لما قدم الكوفة مع معاوية كان يجلس بالعشاء بباب كندة، ويجلس الناس إليه، فجاء شاب من الكوفة فجلس إليه فقال: يا أبا هريرة أُنشدك اللّه أسمعت رسول اللّه(ص) يقول لعليّ بن أبي طالب: (اللّهم وال من والاه وعاد من عاداه؟) فقال: اللّهم نعم. قال فاشهد باللّه لقد واليتَ عدوّه وعاديتَ وليّه ثم قام عنه[2].

سمرة بن جندب

(ورُوي أن معاوية بذل لسمرة بن جندب مائة ألف درهم حتى يروي أن هذه الآية نزلت في عليّ بن أبي طالب ﴿**ومِنَ الناسِ مَن يُعجبكَ قَولُه في الحياةِ الدُنيا ويُشهدُ اللهَ على ما في قلبِهِ وهُوَ ألدُّ الخصامِ وإذا تولّى سَعى في الأرضِ ليُفسدَ**

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ٤ / ٦٧ .
(٢) نفس المصدر ٤ / ٦٨ .

فيها ويُهلكَ الحَرْثَ والنَّسلَ واللهُ لايحبُ الفسادَ﴾[1]، وأن الآية الثانية نزلت في ابن ملجم وهي قوله تعالى: ﴿ومِنَ الناسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضَاةِ اللّهِ﴾[2].

... فلم يقبل، فبذل له مائتي ألف درهم فلم يقبل فبذل له ثلاثمائة ألف درهم فلم يقبل، فبذل له أربعمائة ألف درهم فقبل وروى ذلك)[3].

الغايات السياسية لوضع الحديث عند بني أمية

شجّع معاوية انتحال الحديث على رسول اللّه(ص) لتمرير مجموعة من الأهداف والغايات السياسية أهمها:

١ - محاربة أمير المؤمنين(ع) والتشهير به في الأوساط الإسلامية:

وقد مرّ عليك طرف من موضوعات أبي هريرة وسمرة بن جندب في ذلك، وكان عروة بن الزبير من أولئك الذين استغلّهم معاوية استغلالاً سيئاً للنيل من الإمام عليه السلام.

روى عبد الرزاق، عن معمّر قال: كان عند الزهري حديثان، عن عروة، عن عائشة في عليّ عليه السلام - أي في النيل منه - فسألته عنهما يوماً. فقال: ما تصنع بهما وبحديثهما؟ واللّه أعلم بهما. إنّي لأتّهمهما في بني هاشم[4] (أي في عداء بني هاشم).

وشاعت هذه الأحاديث حتى أن بعضها قد شقّ طريقه إلى كتب الصحاح.

روى البخاري عن عمرو بن العاص قال:

سمعت النبي(ص) جهاراً غير سرّ يقول: إن آل أبي... ليسو بأوليائي، وإنما

---

(١) سورة البقرة ٢٠٤ - ٢٠٥ .
(٢) سورة البقرة ٢٠٧ .
(٣) شرح النهج لابن أبي الحديد ٤ / ٧٣ .
(٤) نفس المصدر ٤ / ٦٤ .

وليّي الله وصالح المؤمنين[١].

والرواية في الأصل: آل أبي طالب، إلا أن المحدّثين أسقطوا كلمة طالب، وأوردوا الحديث بهذه الصورة. قال أبو بكر بن العرب: كان في أصل حديث عمرو بن العاص إن آل أبي طالب، فغيّر إلى (آل أبي فلان) وتعقّبه بعض الناس، وبالغ في التشنيع عليه ونسبه إلى التحامل على آل أبي طالب(ع)[٢] وكان من أولئك الذين استغلّهم معاوية في النيل من الإمام المغيرة بن شعبة.

يقول أبو جعفر الإسكافي: وكان المغيرة بن شعبة صاحب دنيا يبيع دينه بالقليل النزر منها، يرضي معاوية بذكر عليّ بن أبي طالب عليه السلام[٣].

وموضوعات معاوية خاصة وبني أمية عامة في الإمام كثيرة لايمكن إحصاؤها واستعراضها في هذا الاستطراد.

٢ - الاشادة بذكر معاوية:

وتسابق هواة الدنيا والطامعون في دنيا بني أمية إلى كسب ودّ معاوية. بوضع الأحاديث في فضائل معاوية، وكثرت الأحاديث في فضائل معاوية، وقد نقل الشيخ عبد الحسين الأميني رحمه اللّه[٤] جملة من الأحاديث الموضوعة في فضل معاوية، ونقدها من حيث السند ومن حيث الدلالة.

وأكثر من روى هذه الأحاديث شاميّون ضعفاء عند أهل الجرح والتعديل.

ولنذكر جملة من هذه الأحاديث؛ لنلمس عن قرب الجهود الكبيرة التي بذلها معاوية في تزوير الحديث النبوي، المصدر الثاني للتشريع في الإسلام. روى الترمذي في السنن عن عبد الرحمن بن أبي عمير عن النبي(ص) انه قال لمعاوية: اللّهم اجعله هادياً مهدياً واهد به[٥].

---

(١) صحيح البخاري بهامش فتح الباري ١٠ / ٣٥١ - ٣٥٢ .
(٢) فتح الباري ١٠ / ٣٥٢ .
(٣) شرح النهج ٤ / ٧٠ .
(٤) الغدير، ج١٠، ص ٣٧٤ - ٣٨٣ .
(٥) سنن الترمذي كتاب المناقب، باب مناقب معاوية بن أبي سفيان ٥ / ٦٨٧ مطبعة مصطفى البابي الحلبي.

ورواه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد[1]، وقد ناقش العلامة الأميني الحديث فقال: قال أبو عمرو في الاستيعاب: عبد الرحمن حديثه مضطرب لايثبت في الصحابة وهو شاميّ لاتثبت أحاديثه ولا تصح صحبته[2]. وقال: رجال الإسناد كلهم شاميون، وهم:

١ - أبو سهر الدمشقي.

٢ - سعيد بن عبد العزيز الدمشقي.

٣ - ربيعة بن يزيد الدمشقي.

٤ - ابن أبي عميرة الدمشقي[3].

وقال الواقدي: إن معاوية كتب كتاباً، وجمع أهل الشام فقرأه عليهم وفيه: (هذا كتاب كتبه أمير المؤمنين معاوية صاحب وحي الله الذي بعث محمداً نبياً، وكان أميّاً لايقرأ ولا يكتب، فاصطفى له من أهله وزيراً وكاتباً أميناً، فكان الوحي ينزل على محمد(ص) وأنا أكتبه وهو لايعلم ما أكتب فلم يكن بيني وبين الله أحد من خلقه، فقال له الحاضرون كلهم: صدقت يا أمير المؤمنين)[4].

وعن أنس مرفوعاً: هبط عليّ جبرائيل ومعه قلم من ذهب إبريز، فقال: إن العليّ الأعلى يقرؤك السلام ويقول لك حبيبي قد أهديت هذا القلم من فوق عرشي إلى معاوية بن أبي سفيان... الخ.

رواه ابن عساكر باختصار، ذكره السيوطي في الموضوعات.

ورُوي أن النبي(ص) استشار جبرائيل في أن يستكتب معاوية. فقال: استكتبه فإنه أمير. ذكره السيوطي في الموضوعات[5].

---

(١) تاريخ بغداد ١ / ٢٠٨ .

(٢) نقلاً عن الإستيعاب ٢ / ٣٩٥ .

(٣) الغدير ١٠ / ٣٧٦ .

(٤) شرح النهج لابن أبي الحديد ١ / ٣٦١، ط مصر الأول نقلاً عن الصراع بين الأمويين ومبادئ الإسلام ٦٥ .

(٥) اللآلي المصنوعة في الأحاديث الموضوعة، للسيوطي ١ / ٤١٤ الطبعة الثانية ١٣٩٥هـ.

وعن أبي هريرة مرفوعاً: الأمناء عند اللّه ثلاثة: أنا وجبرائيل ومعاوية. ذكره السيوطي في الموضوعات[١].

وروى ان جبرائيل جاء إلى رسول اللّه(ص) وعنده معاوية يكتب، فقال: يامحمد إن كاتبك هذا لأمين. ذكره السيوطي في الموضوعات[٢].

وروي أن جبرائيل أتى النبي فقال: يامحمد أقرأ معاوية السلام استوصِ به خيراً، فإنّه أمين اللّه على كتابه ووحيه، ونعم الأمين هو.

ذكره السيوطي في الموضوعات[٣].

وعن أبي هريرة: أن النبي(ص) ناول معاوية سهماً، وقال: خذ هذا السهم حتى تلقاني به في الجنة. وورد هذا المضمون بطرق وصيغ مختلفة ذكره السيوطي كلها في الموضوعات[٤].

روى أيضاً: أنّ النبي(ص) دفع إلى معاوية سفرجلة، وقال: القني بها في الجنة. وورد بطرق وصيغ مختلفة ذكرها السيوطي كلها في الموضوعات[٥].

وحدّث يعيش بن الجهم، قال: كنت عند مالك بن أنسٍ فجاءه رسول أمير المؤمنين أن لايحدّث بحديث السفرجلة فقرأ ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَـاتِ وَالْهُدَىٰ..**﴾[٦]. ثم قال: لأحدّثن به الساعة. ذكره السيوطي في الموضوعات.

وعن حذيفة مرفوعاً: يُبعث معاوية يوم القيامة وعليه رداء من نور الإيمان.

ذكره السيوطي في الموضوعات[٧].

---

(١) المصدر السابق ١ /٤١٥ .
(٢) نفس المصدر ١ / ٤١٩ .
(٣) نفس المصدر.
(٤) نفس المصدر ١ / ٤٢١ - ٤٢٢ .
(٥) نفس المصدر ١ / ٤٢٢ - ٤٢٣ .
(٦) سورة البقرة / ١٥٩
(٧) اللآلي المصنوعة في الأحاديث الموضوعة للسيوطي ١ / ٤٢٣ .

وعن أنس مرفوعاً: لا أفقد أحداً من أصحابي غير معاوية بن أبي سفيان، لا أراه ثمانين سنة ثم يقبل على ناقة من المسك الأذفر حشوها من رحمة اللّه قوائمها من الزبرجد، فأقول: معاوية!!

فيقول: لبيك، فأقول: أين كنت من ثمانين عاماً؟ فيقول: في روضة تحت عرش ربي يناجيني وأناجيه، فيقول: هذا عوض ما كنت تُشتم في الدنيا...[1]

والحديث طويل ذو شجون فيما اقترفه معاوية من الجرائم بحق حديث رسول اللّه(ص) عن عمد وقصد.

ولم يصح عند البخاري حديث واحد من هذه الأحاديث فقد خصّه في كتابه (الصحيح) بعنوان باب ذكر معاوية ولم يعنونه بعنوان مناقب معاوية، ولم يذكر له منقبة[2].

وقال اسحاق بن راهويه: لايصح في فضل معاوية بن أبي سفيان عن النبي(ص) شيء[3].

٣ - موضوعات في فضل الشام:

كان معاوية يُعد ويخطّط لاعطاء الشام مركز حكمه وسلطانه قدسيةً واحتراماً خاصاً في الأوساط الإسلامية وكان يحاول أن ينقل القدسية والمركزية من الحرمين الشريفين إلى الشام.

روى الواقدي: أن معاوية لما عاد من العراق إلى الشام بعد بيعة الحسن عليه السلام سنة ٤١هـ خطب فقال: (أيها الناس إنّ رسول اللّه قال: إنك ستلي الخلافة من بعدي، فاختر الأرض المقدسة فإن فيها الأبدال. وقد أخبرتكم، فالعنوا أبا تراب)[4] وبعد تصريح معاوية هذا كثر الوضع في الأبدال، وقد نقل جملة منها

(١) المصدر السابق ١ / ٤٢٤ .
(٢) صحيح البخاري ٢ / ٢٤٩، ط سنة ١٢٨٦هـ .
(٣) الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة، لملا علي القارئ ٤٧٧، تحقيق محمد الصباغ.
(٤) شرح النهج لابن أبي الحديد ١ / ٣٦١، ط مصر الأولى، عن كتاب الصراع بين الأمويين ومبادئ الإسلام ٩٤ .

ملا علي القارئ في الموضوعات منها: (الأبدال من الأولياء).

وعن عبادة بن الصامت مرفوعاً:

(الأبدال في هذه الأمة ثلاثون منهم ابراهيم خليل الرحمن كلما مات رجل أبدل اللّه مكانه رجلاً)[١]، وقد عدّه ملا علي القارئ من الموضوعات[٢].

ومنها: (الأبدال بالشام وهم أربعون رجلاً كلما مات رجل أبدل اللّه مكانه رجلاً يُسقى بهم الغيث ويُنتصر بهم على الأعداء، ويُصرف عن أهل الشام بهم العذاب)[٣]..

ومنها: (الأبدال في أهل الشام بهم يُنصرون وبهم يُرزقون) عن عون بن مالك.

ومن كثير من هذه الروايات تفوح رائحة الشام التي كانت تعجب معاوية بن أبي سفيان كثيراً، والتي تستوقف الباحث طويلاً، وتشككه في صحتها سنداً ودلالة.

٤ – ترويض الأمة للطاعة:

لم يشفع لمعاوية جلال السلطان وهيبة الخلافة في نسيان ماضيه، وما اكتنف حياته من جرائم وفي مقدمتها صفّين، ومحاربة الإمامين علي بن أبي طالب والحسن عليهما السلام.

ورغم اعلان الإمام الحسن عليه السلام الهدنة ومتاركة الحرب مع معاوية بموجب شروط تنكّر لها فيما بعد، ورغم انفراده بالحكم والسلطان في الساحة الإسلامية بعد مهادنة الإمام الحسن عليه السلام له، فقد ظل حكم معاوية وولايته من الناحية الشرعية موضع كثير من الريب والتساؤل، ولا سيما لدى أهل العراق والحجاز.

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ٥ / ٣٢٢ .

(٢) الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة لملا علي القارئ ٧٦ - ٧ .

(٣) منتخب كنز العمال بهامش المسند ٥ / ٣٢١ - ٣٢٢ وقد أفرد جماعة موضوع الأبدال برسائل مستقلة منهم السخاوي له رسالة سماها (نظم اللآل) والسيوطي ألف كتاباً سماه (القول الدال) وغيرهم.

ولذلك عمد معاوية، ومن بعده ممن جاء من حكام بني أمية إلى العمل على ترويض الأمة لطاعة الحكّام من بني أمية في الشام، والصبر على أذاهم وظلمهم وعدوانهم.

قال العجّاج الراجز: قال لي أبو هريرة: ممّن أنت؟ قلت: من أهل العراق.

قال: يوشك أن يأتيك بقعان الشام فيأخذوا صدقتك، فإذا أتوك فتلقّهم بها. فإذا دخلوها فكن في أقاصيها، وخلّ عنهم وعنها، وإيّاك وأن تسبهم فإنّك إنْ سببتهم ذهب أجرك وأخذوا صدقتك، وإن صبرت جاءت في ميزانك يوم القيامة[1].

وعن زيد بن وهب قال سمعت عبد اللّه قال: قال لنا رسول اللّه(ص): إنّكم سترون بعدي أثَرَة وأمورا تنكرونها. قالوا: فما تأمرنا يارسول اللّه؟ قال: أدّوا إليهم حقهم وسلوا اللّه حقّكم[2]..

وهذا أقصى مايطلبه الحكّام الظلمة.

وعن جنادة بن أمية قال: دخلنا على عبادة بن الصامت وهو مريض فقلنا أصلحك اللّه. حدّثنا بحديث ينفعك اللّه به، سمعته من النبي(ص). قال: دعانا النبي(ص) فبايعنا فقال فيما أخذ علينا إن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأَثَرة علينا، وأن لاتنازع الأمر أهله، إلا أنْ تروا كفراً بوّاحاً عندك من اللّه فيه برهان[3].

والاستثناء الوارد في الرواية يستوقف الإنسان طويلاً، إن الذي يعرف روح الاسلام وأصوله في الحكم، وخطه الثوري في مواجهة الحكّام المنحرفين يكاد يطمئن أن هذه الرواية أقرب إلى سياسة بني أمية منه إلى حديث رسول اللّه(ص).

فهو ينصح - أو يأمر - بالسكوت عن ظلم الحكام وفجورهم وإجهارهم بالمنكرات والخمر والزنا والقمار وإراقة دماء المسلمين في غير حق، إلا أن يكون

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٥٧٢ .
(٢) صحيح البخاري ٤ / ١٨١ كتاب الفتن، ط مصر ١٢٨٦هـ .
(٣) نفس المصدر.

كفراً بوّاحاً، وليس شيئاً من هذه المنكرات من الكفر البواح.

ويستوقفنا في سند هذا الحديث جنادة بن أمية الذي يروي الحديث عن عبادة ابن الصامت فهو كان والياً لمعاوية على البحرين وذكره ابن سعد في الطبقة الأولى من تابعي أهل الشام[١].. عامل من عمال معاوية، ومن أهل الشام، ويروي عن رسول الله وجوب الطاعة للحكام على كل حال إلا أن يروا كفراً بوّاحاً. وروى البخاري عن أبي إدريس الخولاني: أنه سمع حذيفة بن اليمان يقول: كان الناس يسألون رسول الله(ص) عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني فقلت: يارسول الله إنّا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال : نعم. قلت: بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم، وفيه دخن. قلت: وما دخنه؟ قال: قوم يهدون بغير هديي تعرف منهم وتنكر. قلت: وهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم، دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها. قلت: يارسول الله صفهم لنا. قال: هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا.

قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم.

قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أنّ تعضّ بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك[٢].

ويستوقفنا في هذه الرواية سندها أولاً ومتنها ثانياً.

فعن سند الرواية يقول ابن حجر العسقلاني في الفتح: والسند كله من الشام الا شيخ البخاري والصحابي[٣]. وعن أبي إدريس الخولاني: (عائذ بن عبد الله) التابعي الذي يروي الخبر، عن الصحابي يقول ابن حجر: كان قاص أهل الشام وقاضيهم[٤]. ومتن الرواية ليس بغريب عن السند، ففي الشر الذي يأتي بعد الخير

---

(١) تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني ٢ / ١١٦ دار المعارف بحيدر اباد ١٣٢٥ .

(٢) صحيح البخاري ٤ / ١٨٤، ط مصر ١٢٨٦هـ ورواه مسلم في كتابه الصحيح ٦ / ٢٠، دار الفكر بيروت، كتاب الامارة باب الأمر بالصبر عند ظلم الولاة.

(٣) فتح الباري ١٣ / ٣٠ .

(٤) تهذيب التهذيب ٥ / ٨٥ .

يتولى الأمر (دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها).

والرواية تأمر المسلمين بلزوم هؤلاء الأئمة مهما جاروا وظلموا، كما يقول ابن حجر: (إلزم جماعة المسلمين وإمامهم يعني ولو جاروا، وتوضّح ذلك رواية أبي الأسود، ولو ضرب ظهرك وأخذ مالك، وكان مثل ذلك كثيراً في إمارة الحجاج ونحوه)[١].

(وعن ابن بطّال: فيه حجّة لجماعة الفقهاء - أي فقهاء؟! - في وجوب لزوم جماعة المسلمين وترك الخروج على أئمة الجور لأنه وصف الطائفة الأخيرة بأنهم دعاة على أبواب جهنم، ولم يقل فيهم تعرف وتنكر كما قال في الأولين، وهم لايكونون كذلك إلا وهم على غير حق، وأمر مع ذلك بلزوم الجماعة)[٢].

هذا مع قيام إمام (حاكم وخليفة) ووجود جماعة، وإن لم توجد جماعة ولم يكن إمام فتأمر الرواية بالاعتزال.

ولا نعلم كيف نجمع بين هذه الرواية والآيات القرآنية الصريحة في حرمة الركون إلى الظالمين ﴿**ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسّكم النار**﴾[٣].

والآيات والأحاديث الواردة في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحرمة الخلود إلى العافية والتحلّل عن المسؤولية الشرعية تجاه المسلمين.

وروى مسلم، عن زيد بن سلّام، عن بن سلام، قال حذيفة اليمان: قلت يارسول اللّه إنا كنا بشر فجاء اللّه بخير، فنحن فيه، فهل من وراء هذا الخير شر؟ قال: نعم. قلت: هل وراء ذلك الشر خير؟ قال: نعم، قلت: كيف؟ قال: يكون بعدي أئمة لايهتدون بهداي ولا يستنّون بسنّتي، وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس، قلت: كيف أصنع يارسول اللّه إن أدركت ذلك؟ قال: تسمع وتطيع للأمير وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك

---

(١) فتح الباري ١٣ / ٣١ .
(٢) نفس المصدر.
(٣) سورة هود / ١١٣.

فاسمع وأطع[١].

وفي سند هذه الرواية يقع زيد بن سلام الدمشقي[٢] وأبوه أبو سلّام (ممطور)[٣] وكلاهما شاميان.

وروى مسلم، عن عبد الرحمن يزيد بن جابر، عن مولى بني فزازة (وهو زريق ابن حيان) أنه سمع مسلم بن قرظه، أن عم عوف بن مالك الأشجعي، يقول سمعت عوف بن مالك الأشجعي، يقول سمعت رسول اللّه(ص) يقول: خيار أئمتكم الذين تُحبّونهم ويحبونكم وتصلّون عليهم ويصلّون عليكم، وشرار ائمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم.

قالوا: قلنا يارسول اللّه أفلا ننابذهم عند ذلك قال: لا، ما أقاموا فيكم الصلاة، إلا من وُلّي عليه والٍ فرآه يأتي شيئاً من معصية اللّه فليكره مايأتي من معصية اللّه، ولا ينزعن يداً من طاعة.

قال ابن جابر: فقلت: (يعني لزريق) حين حدّثني بهذا الحديث: اللّه يا أبا المقدام لحدّثك بهذا، أو سمعت هذا من مسلم بن قرظة؟ يقول سمعت عوفاً، يقول سمعت رسول اللّه(ص)؟ قال: فجثا على ركبتيه واستقبل القبلة، فقال: أي واللّه الذي لا اله إلا هو لسمعته من مسلم بن قرظة يقول: سمعت عوف ابن مالك يقول: سمعت رسول اللّه(ص)[٤].

ويستوقفنا في سند هذا الحديث عبد الرحمن بن يزيد بْن جابر الشامي قال عنه الفلاس: (ضعيف الحديث روى عن أهل الكوفة أُحاديث مناكير)[٥].

وزريق بن حيّان الذي يروي عنه عبد الرحمن كان على جوار مصر ومن الوليد وسليمان وعمر بن عبد العزيز[٦]، وهو شامي كذلك ولّاه الوليد وسليمان وعمر

---

(١) صحيح مسلم ٢٠ / ٦، كتاب الإمارة باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن.
(٢) تهذيب التهذيب، ٢ / ٤١٥ .
(٣) نفس المصدر، ١٠ / ٢٩٦ .
(٤) صحيح مسلم ٦ / ٢٥، كتاب الإمارة باب خيار الأئمة وشرارهم.
(٥) تهذيب التهذيب ٦ / ٢٩٨، دار التعارف.
(٦) الجرح والتعديل للرازي، ١ - قسم ٢ ص ٥٠٥ دار المعارف العثمانية بحيدر آباد.

عشور أموال التجارة (١).

ويستوقفنا في متن الرواية شك عبد الرحمن بن يزيد في الرواية، وكأنه سمع أمراً غريباً أو أنه يحاول إزالة الغرابة عن متن الحديث.

وأغرب من ذلك كله هو تحريم منابذة هؤلاء الحكّام الذين يجاهرون بمعصية اللّه، ويلعنون المسلمين ويلعنهم المسلمون، وعدم جواز الخروج عليهم ما أقاموا الصلاة، مهما كانت جرائمهم وقبائح أعمالهم، وإن أعلنوا شرب الخمر والزنا وجاهروا بالكبائر من المحرمات. أما نحن فنطمئن إلى أن هذا ليس من حديث رسول اللّه(ص) في شيء، وليس من روح الإسلام وتعاليمه وتشريعاته، وإن مثل هذه الروايات أضيفت إلى أحاديث رسول اللّه(ص) أيام كان الخلفاء يجاهرون بالفسق والفجور من الزنا وشرب الخمر وسائر المنكرات والكبائر سراً وعلانية.. فكانوا يدسّون هذه الروايات في أحاديث رسول اللّه(ص) ليهدأوا الناس ويحولوا دون خروجهم، ولئلا يزعجهم خارج أو يُقلق صفو عيشهم ثائر يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

وروى ابن ماجة قال: حدثنا العباس بن الوليد الدمشقي، حدّثنا زين يحيى بن عبيد الخزاعي، حدّثنا الهيثم بن حميد، حدّثنا أبو معيد حفص بن غيلان الرعيني، عن مكحول، عن أنس بن مالك قال: قيل يارسول اللّه متى نترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ قال: إذا ظهر فيكم ماظهر في الأمم قبلكم قلنا: يارسول اللّه وما ظهر في الأمم قبلنا قال: (الملك في صغاركم والفاحشة في كباركم والعلم في رذالتكم)(٢).

وقد راجعنا كتب الرجال والجرح والتعديل فوجدنا أن سند الرواية كلهم شاميون عدا الصحابي، أما مكحول الذي يروي عن أنس فهو شاميّ قدريّ.

قال ابن سعد: قال بعض أهل العلم: كان مكحول من أهل كابل وكانت فيه

---

(١) تهذيب التهذيب ٣ / ٢٧٣ - ٢٧٤ .

(٢) سنن ابن ماجة ٢ / ١٣٣١، حديث رقم ٤٠١٥، كتاب الفتن باب قوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفُسَكُم﴾ المائدة / ١٠٥ .

لكْنة، كان يقول بالقدر وكان ضعيفاً في حديثه ورأيه[١].

وأما حفص بن غيلان الرعيني فقد كان شامياً اختلفت فيه أقوالهم فقال أبو حاتم: يُكتب حديثه ولا يُحتج به.

وروى ابن عساكر، عن إسحاق بن سيار النصيبي أنه قال: أبو معيد (حفص ابن غيلان) ضعيف الحديث.

وقال ابن عدي: سمعت عبد اللّه بن سليمان بن الأشعث يقول: حفص بن غيلان ضعيف.

وعن ابن داود: كان يرى القدر ليس بذاك دمشقي[٢].

أما الهيثم بن حميد الشامي فقد قال عنه أبو مسهر: كان ضعيفاً قدرياً وكان صاحب كتب ولم يكن من الأثبات ولا من أهل الحفظ وقد كنت أمسكت عن الحديث عنه واستضعفته[٣].

وكما ترون. فإن سند الحديث شاميّون اطلاقاً عدا الصحابي وأكثرهم قدريّون وضعفاء عند جملة من علماء الجرح والتعديل.

وروى أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه(ص): ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم والقائم خير من الماشي والماشي خير من الساعي ومن وجد ملجأً أو معاذاً فليعذ به[٤].

وروى أحمد، عن عثمان الشحّام قال: حدّثنا مسلم بن أبي بكرة، عن أبيه، عن رسول اللّه(ص) قال: إنها ستكون فتن، ثم تكون فتن ألا فالماشي خير من الساعي إليها، ألا والقاعد فيها خير من القائم فيها، ألا والمضطجع فيها خير من القاعد، ألا فإذا نزلت فمن كانت له غنم فليلحق بغنمه، ألا ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه، ألا ومن كانت له إبل فليلحق بإبله.

---

(١) تهذيب التهذيب ١٠ / ٢٩٢ - ٢٩٣ .
(٢) نفس المصدر ٢ / ٤١٨ - ٤١٩ .
(٣) نفس المصدر ١١ / ٩٢ - ٩٣ .
(٤) مسند أحمد بن حنبل ٢ / ٢٨٢ .

فقال رجل من القوم: يانبيّ اللّه جعلني اللّه فداك أرأيت من ليست له غنم ولا ارض كيف يصنع؟

قال: فليأخذ سيفه ثم ليعمد به إلى صخرة ثم ليدق على حدّه بحجر ثم لينبح إن استطاع...[١].

وروى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه(ص) ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، من تشرّف لها تستشرفه، فمن وجد فيها ملجأ أو معاذاً فليعذ به[٢].

هذه جملة من الروايات المرويّة عن رسول اللّه(ص) وبعضها ورد في الصحيحين.

وفي أسناد بعضها مناقشات ومؤاخذات واضحة، وشطر كبير من رجال اسنادها من الشام بالذات. ونحن مع الغض عن المناقشة في أسناد هذه الروايات نشك في صدور هذه الروايات عن رسول اللّه(ص) شكاً قوياً.

ونطمئن إلى أن هذه الروايات لاتنسجم مع روح الإسلام وأفكاره وتصوراته.. وأنها أشبه بالاتجاه السياسي أيام أمية منها بكلمات رسول اللّه(ص).

فإن الجو الذي صدرت فيه هذه الروايات يشبه أن يكون من الأجواء السياسية التي تطلب من الناس الخنوع والرضوخ للحكّام والسكوت عن جرائمهم وأعمالهم وترك ما لقيصر لقيصر وما لكسرى لكسرى، والتغاضي عن شطط الحكام وطيشهم، والاكتفاء بخروجهم للصلاة في أيام الجُمع وخروجهم للحج، وعدم التعرّض لأعمالهم في نهب بيت مال المسلمين وفي إفساد المجتمع الإسلامي وتجاوز حدود اللّه والإجهار بالمنكرات وعدم التصدي لشيء من منكراتهم

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ٥ / ٤٨. اختلفت كلمتهم في عثمان الشحّام أحد رواة هذه الرواية فقال يحيى بن سعيد القطان: يعرف وينكر ولم يكن عندي بذاك، وقال النسائي: ليس بالقوي، تهذيب التهذيب ٧ / ١٦١ .

(٢) صحيح البخاري ٤ / ١٨٣، ط مصر ١٢٨٦، كتاب الفتن باب تكون فتنة القاعد فيها خير من القائم.

وجرائمهم مهما بلغت، ومهما تظاهروا به، ماداموا يقيمون الصلاة، لئلا تتعكّر لياليهم الحمراء التي يقضونها مع الخمور والفجور والغواني والأغاني، وعدم نبذ الطاعة ونقض البيعة حتى لاتكون موتتهم ميتة جاهلية، كما يقول عبد اللّه بن عمر: وأن المضطجع خير من القاعد، والقاعد خير من القائم، والقائم خير من الساعي، حتى يستقيم الأمر لبني أمية من غير تشويش أو تعكير ومن دون متاعب ومشاكل، فإن من يخرج على يزيد بن معاوية ويزيد بن الوليد الفاسقين يموت ميتة جاهلية وينقض عهد اللّه وميثاقه كما تقول هده الروايات.

أما أنا فأرى أننا لسنا بحاجة إلى مناقشة أسناد هذه الروايات لنثبت الشك فيها ونسلب الثقة منها فإن من يعرف شيئاً عن الاسلام وروحه الثورية ودعوته إلى مكافحة الظلم وتحريمه للركون إلى الظالمين، وإيجابه للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يطمئن إلى أن هذه الروايات قد أضيفت إلى الإسلام اضافة دونما ورع أو تقوى، لأهداف سياسية، وأُدخلت في المتون الإسلامية ومجامع الحديث والصحاح في غفلة من علماء الحديث ونقّاد الجرح التعديل الذين يخضعون الروايات للنقد من حيث السند غالباً فإذا سلم لديهم السند سلم لديهم المتن، ولا يفكّرون في نقد المتن كما ينقدون السند، ولا تقلّ أهمية نقد المتون في الروايات عن نقد الإسناد.

ومهما يكن من أمر، فإننا عندما نستعرض هذه الروايات ونقارنها بالروح الثورية في الإسلام الرافضة للظلم، والداعية إلى الخروج على الظالمين نسمح لأنفسنا بالشك في هذه الروايات ونسمح لأنفسنا باتهام الحكم الأموي في اختلاقها واضافتها إلى رسول اللّه(ص) وإدخالها في مجامع الحديث، وإعطائها الصفة الشرعية.

٥ – موقف الإسلام من الظالمين:

ونظرة الإسلام في التعامل مع الظالمين ورفض الظلم، وتحريم الركون إلى الظالمين وموالاتهم، واضحة من خلال القرآن والسنة المتواترة، ولا يحوجنا اثباته إلى جهد أو تكلّف في الإستدلال.

فالقرآن الكريم يحرّم الركون إلى الظالمين والإنصياع لهم ومودتهم وموالاتهم بصراحة.

يقول تعالى: ﴿**ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسّكم النار وما لكم من دون اللّه من أولياء ثم لاتنصرون**﴾(١).

يقول القرطبي: «قال قتادة: معناه لاتودوهم ولا تطيعوهم، وقال ابن جريح: لا تميلوا اليهم، وقال ابن دريد: الركون هنا الإدهان(٢)»(٣).

ويقول في تفسير قوله تعالى: ﴿**إلى الذين ظلموا**﴾، قيل: أهل الشرك، وقيل: عامة فيهم وفي العصاة. وهذا في معنى الآية، وأنها دالّة على هجران أهل الكفر والمعاصي من أهل البدع وغيرهم، فان صُحبتهم كفرٌ أو معصية(٤).

ويقول السيد الطباطبائي في مناقشة صاحب تفسير المنار: في اختصاص (الظالمين) في هذه الآية بالمشركين (وأيُّ مانع يمنع الآية أن تشمل الظالمين من هذه الأمة وفيهم من هو أشقى من جبابرة عاد وثمود، وأطغى من فرعون وهامان وقارون.

ومجرّد كون الإسلام عند نزول السورة مُبتلى بقريش، ومشركي مكة، وحواليها لايوجب تخصيصاً في اللفظ فان خصوص المورد لايخصص عموم اللفظ، والآية تنهى عن الركون إلى كل من اتّسم بسمة الظلم، كان مشركاً أو موحّداً مسلماً أو من أهل الكتاب)(٥).

والروايات بهذا المضمون كثيرة بالغة حد التواتر وواضحة وصريحة ومنسجمة مع كتاب اللّه وروح الإسلام وتعاليمه وأحكامه، ولا يمكننا هنا أن نستقصي هذه الروايات جميعاً، وإنما ننقل منها بعض النماذج.

---

(١) سورة هود / ١١٣ .
(٢) الإدهان: المصانعة.
(٣) تفسير القرطبي ٩ / ١٠٨ .
(٤) نفس المصدر.
(٥) تفسير الميزان ١١ / ٥٤ .

روى الترمذي، عن طارق بن شهاب قال: أول من قدّم الخطبة قبل الصلاة مروان فقام رجل، فقال لمروان: (خالفت السنّة)، فقال: يافلان ترك ماهنالك، فقال أبو سعيد: أما هذا فقد قضى ماعليه، سمعت رسول اللّه(ص) يقول: «من رأى منكراً فلينكر بيده، ومن لم يستطع فبلسانه، ومن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».

قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح[١].

وهذا الحديث والأحاديث التي بمعناها في تغيير المنكر، والتصدّي له باليد أو اللسان أو القلب وذلك أضعف الإيمان يعاكس تماماً رواية «المضطجع فيها خير من القاعد، والقاعد خير من القائم والقائم خير من الساعي».

وفيما يشير هذا الحديث والأحاديث التي بمعناها إلى العدّ التصاعدي في المواجهة، تشير الفئة الثانية من الروايات إلى العدّ التنازلي في المواجهة، حتى يصل إلى مرحلة الإضطجاع فذلك أقوى الإيمان!! حيث تستقيم للظالمين أمورهم، ويهدأ بالهم وتطمئن نفوسهم، ورواه بلفظ قريب منه مسلم في كتابه الصحيح[٢].

واقتصر المنذري على رواية أبي سعيد الخدري لحديث رسول اللّه«ص»[٣]، ورواه أحمد[٤] في موضعين من كتابه.

ورواه أيضاً ابن ماجة[٥] والنسائي[٦] بقدر مايخص رواية أبي سعيد لحديث رسول اللّه«ص» وبلفظ قريب منه المتقي الهندي[٧].

---

(١) سنن الترمذي ٤ / ٤٦٩ - ٤٧٠ مطبعة مصطفى البابي كتاب الفتن باب ماجاء في تغيير المنكر باليد واللسان حديث ٢١٧٢ .
(٢) صحيح مسلم ١ / ٥٠، دار الفكر كتاب الإيمان باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان.
(٣) الترغيب والترهيب ٣ / ٢٢٣ .
(٤) مسند أحمد بن حنبل ٣ / ١٠ منه مسانيد أبي سعيد الخدري، ورواه أيضاً في المسند ٣ / ٥٤.
(٥) سنن ابن ماجة ٢ / ١٣٣٠ حديث رقم ٤٠١٣ دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي.
(٦) سنن النسائي بشرح جلال الدين السيوطي دار إحياء التراث العربي بيروت ٨ / ١١١ - ١١٢ كتاب الإيمان باب تفاضل أهل الإيمان.
(٧) كنز العمال للمتّقي الهندي الحديث رقم ٥٥٥٦ .

وروى الترمذي، عن أبي سعيد الخدري : أن النبي«ص» قال: (إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر)[١].

ورواه أيضاً ابن ماجة[٢].

وروى ابن ماجة، عن أبي أُمامه قال: عرض لرسول اللّه(ص) رجل عند الجمرة الأولى فقال: يارسول اللّه أي الجهاد أفضل؟ فسكت عنه، فلما رمى الجمرة الثانية، سأله فسكت عنه، فلما رمى جمرة العقبة وضع رجله في الغرز ليركب، قال: (أين السائل؟) قال: أنا يارسول اللّه، قال: (كلمة حق عند ذي سلطان جائر)[٣].

وروى قريباً منه المنذري[٤].

وروى: (أحب الجهاد إلى اللّه كلمة حق تقال لإمام جائر)[٥].

وعن جابر(رض)، عن النبي(ص) قال: سيد الشهداء حمزة ابن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر، فأمره ونهاه فقتله، رواه الترمذي والحاكم وقال: صحيح الإسناد[٦].

وروى الترمذي، عن النعمان بن بشير قال: قال رسول اللّه(ص) مثل القائم على حدود اللّه والمداهن فيها كمثل قوم استهموا على سفينة في البحر، فاصاب بعضهم أعلاها، وأصاب بعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها يصعدون، فيستقون الماء فيصبّون على الذين في أعلاها، فقال الذين في أعلاها: لاندعكم تصعدون فتؤذوننا، فقال الذين في أسفلها، فإننا ننقبها من أسفلها فنستقي، فإن أخذوا على أيديهم فمنعوهم نجوا جميعاً وإن تركوهم غرقوا جميعاً[٧].

---

(١) سنن الترمذي ٤ / ٤٧١ حديث رقم ٢١٧٤ كتاب الفتن.
(٢) سنن ابن ماجة ٢ / ١٣٢٩ حديث رقم ٤٠١١ .
(٣) نفس المصدر ٢ / ١٣٣٠ حديث رقم ٤٠١٢ .
(٤) الترغيب والترهيب، ٣ / ٢٢٥ .
(٥) كنز العمال حديث رقم ٥٥١١ و٥٥١٢ و٥٥١٤ .
(٦) الترغيب والترهيب ٣ / ٢٢٥ .
(٧) سنن الترمذي ٤ / ٤٧٠ الحديث رقم ٢١٧٣ كتاب الفتن باب ١٢ منه.

ورواه المنذري[1].

وقال رجل لأمير المؤمنين(ع) في وقعة صفين: (ترجع إلى عراقك ونرجع إلى شامنا) فقال عليه السلام: «لقد عرفت أن ماعرضت هذا نصيحة وشفقة.. إن الله تبارك وتعالى لم يرض من أوليائه أن يُعصى في الأرض، وهم سكوت مذعنون لايأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر، فوجدت القتال أهون عليّ من معالجة الأغلال في جهنم»[2].

وروى ابن ماجة، عن أبي سعيد الخدري: إن رسول اللّه(ص) قام خطيباً فكان فيما قال: (ألا لايمنعنّ رجلاً هيبة الناس أن يقول بحق إذا عَلِمه)، وكان أبو سعيد يبكي ويقول: قد واللّه رأينا أشياء فهبنا[3].

وروى ابن ماجة أيضاً، عن عبد اللّه بن جرير، عن أبيه قال: قال رسول اللّه(ص): (مامن قوم يُعمل فيهم بالمعاصي هم أعزّ منهم وأمنع لايغيّرون، إلا عمّهم اللّه بالعقاب)[4].

وروى المتّقي الهندي ما بمعنى ذلك[5].

وعن جابر بن عبد اللّه(رض) أن النبي(ص) قال لكعب بن بحجرة: أعاذك اللّه من إمارة السفهاء، قال: وما إمارة السفهاء؟ قال: أمراء يكونون من بعدي لايهتدون بهديي، ولا يستنّون بسنتي، فمن صدّقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم، فأولئك ليسوا مني ولست منهم، ولا يردونَ عليّ حوضي، ومن لم يصدّقهم بكذبهم، ولم يعنهم على ظلمهم فأولئك مني وأنا منهم[6].

وعن النعمان بن بشير قال: خرج علينا رسول اللّه(ص)، ونحن في المسجد بعد صلاة العشاء، فرفع بصره إلى السماء ثم خفض حتى ظننا أنه حدث في السماء

---

(١) الترغيب والترهيب ٣ / ٢٢٥ .
(٢) نهج السعادة ٢ / ٢٢٦ - ٢٢٧ .
(٣) سنن ابن ماجة ٢ / ١٣٢٨ حديث رقم ٤٠٠٧
(٤) نفس المصدر ٢ / ١٣٢٩ حديث رقم ٤٠٠٩ .
(٥) كنز العمال حديث رقم ٥٥٣٢ و٥٥٧١ .
(٦) الترغيب والترهيب ٣ / ١٩٤ وبلفظ قريب منه ايضاً في صفحة ١٩٥ من نفس المجلد.

أمر، فقال: ألا إنها ستكوْن بعدي أُمراء يظلمون ويكذبون، فمن صدّقهم بكذبهم ومالأهم على ظلمهم فليس مني، ولا أنا منه، ومن لم يصدّقهم بكذبهم ولم يمالئهم على ظلمهم فهو مني وأنا منه[١].

وعن ابن عباس، عن النبي(ص) قال: إن ناساً من أُمّتي سيتفقّهون في الدين ويقرأون القرآن يقولون: نأتي الأمراء، فنصيب من دنياهم ونعتزلهم بديننا، ولا يكون ذلك كما لايُجتنى من القتاد الا الشوك، قال: رواه ابن ماجة ورواته ثقاة[٢].

رأي لعبد اللّه بن عمر

والمعروف عن عبد اللّه بن عمر أنه كان يحمل رأياً معارضاً لهذا الرأي تماماً، وكان يرى وجوب الانقياد للحاكم، مهما كان ظلمه، ومهما بلغ جوره، واعتداؤه على المسلمين، وإعلانه للفسق والفجور، ويرى وجوب الاستمرار في الطاعة، وحرمة خلع اليد من الطاعة، وكان يسعى برأيه هذا فيما بين الناس ويروّض الناس لطاعة الخليفة الفاسق يزيد بن معاوية قبل وبعد وقعة الحرّة التي انتهك فيها يزيد بن معاوية حرمات الإسلام والمسلمين وبالغ في سفك الدماء وانتهاك الحرمات.

روى مسلم، عن زيد بن محمد، عن نافع قال: جاء عبد اللّه بن عمر إلى عبد اللّه بن مطيع[٣] حين كان من أمر الحرّة ماكان زمن يزيد بن معاوية. فقال: اطرحوا لأبي عبد الرحمن وسادة، فقال: إني لم آتك لأجلس، أتيتك لأحدّثك حديثاً سمعت رسول اللّه(ص) يقول: من خلع يداً من طاعة لقي اللّه يوم القيامة لاحجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية[٤].

(١) المصدر السابق ٣ / ١٩٥ .
(٢) نفس المصدر ٣ / ١٩٦ .
(٣) كان عبد الله بن مطيع على قريش يوم الحرة وقد فرّ واختبأ وسلم بنفسه من القتل. تهذيب التهذيب ٦ / ٣٦ .
(٤) صحيح مسلم ٦ / ٢٢، دار الفكر بيروت كتاب الإمارة باب الأمر بلزوم الجماعة.

وروى مسلم، عن أبي رافع، عن عبد اللّه بن مسعود، أن رسول اللّه(ص) قال: ما من نبي بعثه اللّه في أمة قبلي إلا كان من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثم إنها تُخلّف من بعدهم خلوف يقولون ما لايفعلون، ويفعلون ما لايؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبّة خردل.

قال أبو رافع: فحدّثت عبد اللّه بن عمر فأنكره عليّ، فقدم ابن مسعود فنزل بقناة، فاستتبعني اليه عبد اللّه بن عمر يعوده، فانطلقت معه فلما جلسنا سألت ابن مسعود عن هذا الحديث فحدثنيه، كما حدثت ابن عمر[1].

وبعد فلا نُطيل في هذا الموقف أكثر من هذا المقدار، وان كان يستحق الكثير من التأمّل والوقوف والدراسة، فقد أكثر بنو أمية من وضع الحديث على رسول الله(ص) بهذا الاتجاه، لتثبيط المسلمين عن التحرك في مواجهة ظلم بني أمية ولردعهم عن الخروج على خلفاء بني أمية، وليستقيم لهم الأمر في ظلمهم وفسقهم وانتهاكهم للحرمات.

وقد دخل مع الأسف الكثير من هذه الأحاديث التي تنافي صريح القرآن والسنة والسيرة النبوية في أمهات كتب الحديث وحتى في الصحيحين والكتب المعتبرة.

ولا بدّ من دراسة أوسع وأعمق من ذلك لنصل إلى نتائج واضحة وملموسة في هذا الحقل الصعب من حقول التاريخ والسيرة والسنة والفقه.

وقال المدائني، عن عصر معاوية: (وظهر حديث كثير موضوع وبهتان منتشر ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة، وكان أعظم الناس في ذلك بليّةً القرّاء المراؤون والمستضعفون الذين يُظهرون الخشوع والنسك فيفتعلون الأحاديث ليحظوا بذلك عند ولاتهم ويقربوا من مجلسهم، ويصيبوا به الأموال والضياع

---

(١) صحيح مسلم ١ / ٥٠ - ٥١ كتاب الإيمان باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، ط دار الفكر، بيروت.

والمنازل حتى انتقلت تلك الأخبار والأحاديث إلى أيدي الديّانين الذين لايستحلّون الكذب والبهتان فقبلوها ورووها وهم يظنّون أنها حق، ولو علموا أنها باطلة لما رووها ولما تديّنوا بها)[1].



(١) صلح الحسن للشيخ راضي آل ياسين ٣٢٦ عن شرح النهج لابن أبي الحديد، ط مصر الأولى ١ / ٣٥٨ .

- ٧ -

سياسة بني أمية تجاه أهل البيت(ع)





سياسة بني أمية تجاه أهل البيت

رغم الفتنة الكبرى التي مرّت بالمسلمين والإنحرافات والنكبات التي أصابت المسلمين لم يكن الضمير الإسلامي يطيق بني أمية وسلطانهم..

وقد كان المسلمون يرون الفارق الكبير والبون الشاسع بين أهل البيت وبني أمية في الماضي والحاضر.

وكان على بني أمية لكي يستقر حكمهم ونفوذهم أن يعملوا على القضاء التام على نفوذ أهل البيت(ع) الروحي بين المسلمين وعلى تصفية شيعة أهل البيت والقضاء عليهم وملاحقتهم ومطاردتهم ليصفوا لهم الجو السياسي في العالم الإسلامي وبشكل خاص في العراق والحجاز.

وقد سلك بنو أمية نهجاً خاصاً في محاربة أهل البيت، والقضاء عليهم سياسياً واجتماعياً وفي عزلهم وتطويقهم وتصفية شيعتهم ومحاربتهم في أرزاقهم ومعيشتهم وفي التعتيم على فضائل أهل البيت ومكانتهم من رسول اللّه(ص).

وليس بإمكاننا أن نستعرض ذلك كله بتفصيل فهو أمر يحتاج إلى دراسة واسعة لايسعنا أن نقدم عليها الآن.

ولكننا نود أن نشير في هذه الدراسة على وجه العجالة والسرعة إلى بعض النقاط الأساسية من السياسة الأموية تجاه أهل البيت.

التعتيم على فضائل أهل البيت عليهم السلام

بذل بنو أمية سعياً حثيثاً في اخفاء فضائل الإمام وأهل بيته وحظروا رواية فضائل أهل البيت وأمروا بمطاردة ومقاطعة الذين يروون فضائل أهل البيت في كل مكان.

يقول ابن أبي الحديد المعتزلي:

روى أبو الحسن علي بن محمد بن أبي سيف المدائني في كتاب الأحداث قال: كتب معاوية نسخة واحدة: أن برئت الذمة، من روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته، فقامت الخطباء في كل كورة وعلى كل منبر يلعنون علياً ويبرأون منه ويوقعون فيه وفي أهل بيته، وكان اشد الناس بلاءً حينئذٍ أهل الكوفة لكثرة من بها من شيعة علي عليه السلام(١).

وقد بلغ من تردد الناس عن رواية فضائل الامام خوفاً من الجهاز الحاكم أن (الزهري) حدّث معمراً في مرضه، عن رسول اللّه(ص) قال: «إن اللّه عز وجل منع بني اسرائيل قطر السماء بسوء رأيهم في أنبيائهم واختلافهم في دينهم وأنّه آخذ هذه الأمة بالسنين ومانعهم قطر السماء ببغضهم عليّ بن أبي طالب(ع)»(٢).

يقول معمر: فلما بلَّ (الزهري) من مرضه، ندم فقال لي: يايمانيّ أكتم هذا الحديث واطوه دوني فإن هؤلاء يعني - بني أمية - لايعذرون أحداً في تقريظ عليّ وذكره.

قلت: فما بالك أوعيت مع القوم يا أبا بكر، وقد سمعت الذي سمعت، قال: حسبك ياهذا إنهم أشركونا في لهاهم فأنحططنا لهم في أهوائهم(٣).

---

(١) شرح النهج ١١ / ٤٤ .

(٢) مناقب علي بن أبي طالب للحافظ الخطيب ابن المغازلي الشافعي المتوفى سنة ٤٨٣ ص ١٤١ رواية رقم ١٨٦، المكتبة الإسلامية - طهران ١٣٩٤ هـ ق .

(٣) مناقب ابن المغازلي ص ١٤٢، رواية رقم ١٨٦، المكتبة الاسلامية ١٣٩٤ هـ ق.

الحصار الاقتصادي

وبالغ بنو أمية في محاصرة أهل البيت(ع) وشيعتهم اقتصادياً وفي التضييق عليهم ومنع أعطياتهم عنهم ومحاربتهم في أرزاقهم.

فقد كان بنو أمية يستخدمون المال بصورة واسعة وسيلةً لتحقيق غاياتهم السياسية في التضييق والتوسعة، فيما كان معاوية يوسّع على أهل الشام، كان يضيّق على العراقيين وأهل الحجاز تضييقاً شديداً.

فقد كان بنو أمية يعتمدون أهل الشام في الدفاع عن دولتهم وامتداد سلطانهم ونفوذهم السياسي، وكان يمدّون أهل الشام بالعطاء وترخيص الأرزاق وتوفير المواد الغذائية الأولية كالحنطة، بينما كانوا يضيّقون في العطاء على العراقيين والحجازيين والمصريين، ولا سيما العراق والحجاز لِما كانوايعلمون من قوة المعارضة وسعتها في هذين البلدين.

وكانوا يجدون في التضييق على المعارضة طريقة مفضّلة لمحاربة المعارضة والقضاء عليها ولربما الانتقام منها واستهلاكها في مشاغل المعيشة وشؤونها.

يقول المعتزلي الحميدي ابن أبي الحديد: ثم كتب - أي معاوية - إلى عمّاله نسخة واحدة إلى جميع البلدان: انظروا من قامت عليه البيّنة إنه يُحب عليّاً وأهل بيته فامحوه من الديوان وأسقطوا عطاءه ورزقه، وشفع ذلك بنسخة أخرى: من اتهمتموه بموالاة هؤلاء القوم فنكّلوا به وهدّموا داره.

فلم يكن البلاء أشد ولا أكثر في أي مكان منه بالعراق ولا سيما بالكوفة، حتى أن الرجل من شيعة علي(ع) ليأتيه من يثق به فيدخل بيته، فيلقي إليه سرّه ويخاف من خادمه ومملوكه ولا يحدّثه حتى يأخذ عليه الأيمان الغليظة ليكتمنّ عليه[1].

ولم يكن معاوية يعمل بصورة عفوية في سياسة تجويع الناس والتضييق عليهم وفي محاربتهم في أرزاقهم ومعايشهم، وإنما يخطّط لذلك وهو صاحب نظرية في هذا الأمر يذكرها لقائد جيشه سفيان بن عوف الغامدي عندما وجّهه إلى الأنبار

---

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ١١ / ٤٥ .

فيما يرويه لنا الثقفي في الغارات.

يقول معاوية لسفيان وهو يوجّهه إلى الأنبا: (فاقتل من لقيته ممن ليس هو على مثل رأيك، وأخرب كلّما مررت به من القرى، وأخرب الأموال، فإن خرب الأموال شبيه بالقتل وهو أوجع للقلب)[١].

ويروي ابن الأثير في حوادث سنة ست وخمسين: إن معاوية لما يئس من بيعة الحسين(ع) لابنه يزيد بولاية العهد جفا بني هاشم عامة (أي قطع عنهم أرزاقهم) فأتاه ابن عباس فقال له: مابالك جفوتنا؟ قال: إن صاحبكم لم يبايع ليزيد، فلم تنكروا ذلك عليه[٢].

وحبس النعمان بن بشير الأنصاري[٣] زيادة أهل الكوفة.

فصعد المنبر يوماً فقالك يا أهل الكوفة فصاحوا: ننشدك اللّه والزيادة. وقال عبد اللّه بن همام السلولي:

زيادتنا نعمان لاتحبسنّها ... خف اللّه فينا والكتاب الذي تتلو

فإنك قد حُمّلت منا أمانة ... بما عجزت عنه الصلاخمة البُزل

فلا يك باب الشر تحسن فتحه ... وباب الندى والخيّرات له قفل[٤]

ويروي اليعقوبي (المتوفى سنة ٢٩٢هـ) في تأريخه: إن معاوية لما قدم إلى المدينة في سفرة الحج سنة ٤٤هـ (أتاه جماعة من بني هاشم وكلّموه في أمورهم فقال: أما ترضون يابني هاشم أن نقرّ عليكم دماءكم وقد قتلتم عثمان حتى تقولوا ماتقولون، فواللّه لأنتم أحلّ دماً من كذا وكذا، وأعظم في القول. فقال له ابن عباس: كلما قلت يامعاوية من شرّ بين جنبيك، وأنت واللّه أولى بذلك منا. أنت

(١) الغارات، ط طهران، وشرح النهج ٢ / ٨٦ بتحقيق محمد أبي الفضل.
(٢) الكامل لابن الأثير ٣ / ٥١١. دار صادر، ودار بيروت ١٣٨٥هـ.
(٣) وكان عامل معاوية على الكوفة، وكان عثماني الهوى، وقد شهد مع معاوية صفّين، وهو الأنصاري الوحيد الذي كان مع معاوية.
(٤) الأغاني ١٦ / ٣٠ - ٣١ ، ط دار الكتب.

قتلت عثمان ثم قمت تغمض على الناس أنك تطلب بدمه، فأنكر معاوية)[١].

وكان المغيرة بن شعبة عامل معاوية على الكوفة قد حبس عن أهل الكوفة أرزاقهم فلمّا كان آخر أيام إمارته صعد المنبر ونال من علي(ع) (فقام حجر فصاح صيحة بالمغيرة سمعها كل من بالمسجد وقال له: مُر لنا أيها الإنسان بأرزاقنا فقد حبستها عنا وليس ذلك لك، وقد اصبحت مولعاً بذم أمير المؤمنين. فقام أكثر من ثلثي الناس يقولون: صدق حجر وبرّ)[٢].

ووهب معاوية مزرعة فدك التي منحها النبي(ص) لابنته الزهراء لمروان بن الحكم[٣] ولم يعبأ بمطالبة أهل البيت بها وحقهم فيها.

التشهير والسب

ومن أقبح ما اتّبعه معاوية بن أبي سفيان في سياسته لعزل الإمام وأهل البيت سياسياً شتمهم واعلان ذلك على المنابر، وقد بذل بنو أُمية كل جهد في اشاعة هذا المنكر.

وقد خطب معاوية في أهل الشام فقال لهم: (يا أيها الناس إن رسول اللّه(ص) قال لي: إنّك ستلي الخلافة من بعدي، فاختر الأرض المقدسة - يعني الشام - فإنّ فيها الأبدال، وقد اخترتكم فالعنوا أبا تراب) وعجّ أهل الشام في سب الإمام[٤].

(وكان معاوية إذا قنت سبّ علياً وابن عباس والحسن والحسين والأشتر)[٥].

وذكر أبو عثمان الجاحظ: أن معاوية كان يقول في آخر خطبة الجمعة: اللّهم إنه ألحد في دينك وصدّ عن سبيلك فالعنه لعناً وبيلاً، وعذّبه عذاباً أليماً، وكتب بذلك إلى الآفاق، فكانت هذه الكلمات يشار بها على المنابر إلى خلافة عمر بن

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢ / ٢١١، الطبعة الرابعة ١٣٩٤ النجف.
(٢) الكامل لابن الأثير ٣ / ٤٧٢ - ٤٧٣ ، بيروت ١٣٨٥ هـ ق.
(٣) اليعقوبي ٢ / ٢١١ .
(٤) النصائح الكافية ٧٢ .
(٥) نفس المصدر ١٩ / ٢٠ .

عبد العزيز[١].

(وأراد زياد بن أبيه ان يعرض أهل الكوفة أجمعين على البراءة من علي(ع) ولعنه، وان يقتل كل من امتنع عن ذلك، ويخرّب منزله، فضربه اللّه ذلك اليوم بالطاعون فمات - لارحمه اللّه - وذلك في خلافة معاوية)[٢].

وفي رأينا أن معاوية لم يكن يصدر في فعله هذا عن حقده للإمام(ع) وبغضه له فقط، وإنما كان يعلم أنه لايستطيع أن يحفظ لنفسه الخلافة ويبعدها عن أهل البيت لولا هذه الطريقة القبيحة التي استخدمها في النيل من شخصية الإمام(ع) والتشهير به.

وقد سُئل مروان: ما لكم تسبّون علياً على المنابر؟

فقال: لا يستقيم لنا الأمر إلا بذلك[٣].

وكان معاوية يريد أن يواصل عمله القبيح هذا حتى يقضي على ذكر عليّ(ع) وفضائله ومكانته في الإسلام ومن رسول اللّه قضاءً تاماً.

وقد قال لابن عباس يوماً وهو يسأله: ألا تكفّ عن شتم هذا الرجل؟ قال معاوية: ما كنت لأفعل حتى يربو عليه الصغير ويهرم فيه الكبير[٤].يقول سليم بن قيس: (ولم يزل معاوية على ذلك - أي إثارة الناس ضد (الإمام) - عشرين سنة حتى نشأ عليه الصغير، وهرم عليه الكبير، وهاجر عليه الأعرابي)[٥].

(وروى أبو عثمان الجاحظ: أن قوماً من بني أمية قالوا لمعاوية: يا أمير المؤمنين إنك قد بلغت ما أمّلت، فلو كففت عن لعن هذا الرجل، فقال: لا واللّه حتى يربو عليه الصغير ويهرم عليه الكبير، ولا يذكر له ذاكرٌ فضلا)[٦]

(١) شرح النهج لابن ابي الحديد ٤ / ٥٦ - ٥٧ .
(٢) نفس المصدر ٤ / ٥٨ .
(٣) شرح النهج ١٣ / ٢٢٠ .
(٤) نفس المصدر ١٣ / ٢٢٢ .
(٥) كتاب سليم بن قيس ص ١٧٥، ط دار الفنون بيروت ١٤٠٠هـ.
(٦) شرح النهج لابن أبي الحديد ٤ / ٥٧ .

وكان معاوية يشتم الإمام(ع) ويأمر عمّاله وأصحابه والذين يفدون إليه بذلك، روى مسلم في الصحيح، عن سعد بن أبي وقاص أن معاوية قال له: مامنعك أن تسبّ أبا تراب؟ فامتنع سعد عن ذلك(١).

ولما أراد معاوية أن يستعمل المغيرة بن شعبة على الكوفة عام ٤١هـ استدعاه وقال له: أردت إيصاءك بأشياء كثيرة انا تاركها اعتماداً على بصرك، ولست تاركاً ايصاءك: لاتترك شتم عليّ وذمه والترحم على عثمان والاستغفال له والعيب لأصحاب علي والاقصاء لهم والاطراء لشيعة عثمان والإدناء لهم(٢) وكان عمّال معاوية إذا استعملوا على البلاد التابعة لإمارتهم ولاة استعملوهم ممن يناوئون الإمام وشيعته وينالون من الإمام.

فاستعمل المغيرة مثلاً كثير بن شهاب على الريّ وكان يكثر - كما يقول ابن الأثير - سب علي على منبر الريّ(٣).

وكان المغيرة مولعاً بسب الإمام(٤) كما كان عمّاله في البلاد التابعة له من المولعين بسب الإمام والنيل منه، وكان حاقداً على الإمام حتى أن ابن أبي الحديد يقول: وقد تظاهرت الروايات أنه (أي المغيرة) كان يأخذه الرمع(٥) عند ذكر عليّ فيسبّه ويضرب بإحدى يديه على الأخرى(٦).

وزياد بن أبيه كان هو الآخر من عمال معاوية المولعين بسب الإمام والنيل منه، وكان زياد قد جمع - في أخريات حياته الحافلة بالظلم والعدوان - الناس بباب قصره يحرّضهم على لعن الإمام، فمن أبى ذلك عرضه على السيف فعجّل الله

---

(١) صحيح مسلم ٧ / ١٢٠ ط اسطامبول ١٣٣٤ توزيع دار الفكر بيروت.
(٢) الكامل لابن الأثير ٣ / ٤٧٢ بيروت ١٣٨٥هـ .
(٣) نفس المصدر ٣ / ٤١٣—٤١٤ .
(٤) نفس المصدر ٣ / ٤٧٢—٤٧٣ .
(٥) الرمع: تحرك الأنف غضباً.
(٦) شرح النهج ٤ / ٦٩ .

تعالى بهلاكه[١].

وكان مروان يخطب فينال من الإمام، فقيل له: أهذا الذي تشتم شرّ الناس؟ قال: لا، ولكنه خير الناس[٢].

وكان المغيرة بن شعبة يقيم ندوات خطابية للخطاب لسب الإمام وشتمه، وقد بلغ من حقد بني أمية على الإمام أن أحدهم إذا نسيَ سب الإمام على المنبر ذكّروه به.

فنَسِيَ هشام أن ينال من الإمام يوم عرفة فقام اليه رجل من ولد عثمان فقال: إنّ هذا يوم كانت الخلفاء تستحّب فيه لعن أبي تراب[٣].

وروى المبرّد في الكامل: قال: لما كان خالد بن عبد اللّه القسري أمير العراق في خلافة هشام كان يلعن علياً(ع) على المنبر فيقول: اللّهم العن.. (ويصرّح باسم الإمام) صهر رسول اللّه على ابنته وأبا الحسن والحسين. ثم يُقبل على الناس فيقول: هل كنّيت؟[٤]

وقد ازدادت شراسة الهجمة الإعلامية ضد أهل البيت بعد استشهاد الامامين الحسن والحسين عليهما السلام حتى أن أهل الصلاح والنسك كانوا يتقرّبون إلى الحكام بالبراءة من الإمام، كما يقول ابن أبي الحديد: والساقطون من الناس يتزلّفون إلى الحكام بالمزايدة في البراءة والسب..

يقول ابن أبي الحديد، وهو أفضل من أرّخ لهذه الفترة:

ثم تفاقم الأمر بعد قتل الحسين(ع) ووليّ عبد الملك بن مروان فاشتد على الشيعة وولّى عليهم الحجاج بن يوسف، فتقرّب اليه حتى المتظاهرون بالنسك الصلاح والدين ببغض عليّ وموالاة اعدائه، وموالاة من يدّعي من الناس عداوته، فأكثروا في الرواية في فضيلتهم وسوابقهم ومناقبهم، وأكثروا من الغضّ من

---

(١) مروج الذهب للمسعودي ٣ / ٢٦ بتحقيق يوسف أسعد داغر وتاريخ اليعقوبي ٢ / ٢٢٢ - ٢٢٣، ط الرابعة ١٣٩٤هـ .

(٢) شرح النهج ١٣ / ٢٢٠ .

(٣) نفس المصدر ١٣ / ٢٢١ و ٤ / ٥٧ .

(٤) شرح النهج لأبن أبي الحديد ٤ / ٥٧. والكامل للمبرّد ٤١٤ (طبع أوربا).

علي(ع) وعيبه والطعن فيه، والشنآن له حتى أن إنساناً وقف للحجاج، ويقال: هو جد الأصمعي عبد الملك بن قريب فصاح: أيها الأمير إن أهلي عقّوني فسمّوني علياً، وإني فقير بائس، وإني إلى صلة الأمير محتاج، فتضاحك له الحجاج، وقال: للطف ماتوسّلت به قد ولّيت موضع كذا[1].

اذن فقد بذل معاوية، ومن بعده من الخلفاء جهداً غير قليل لإسقاط الخط العلوي في أنظار المسلمين والتشهير به، والنيل من الإمام(ع) ومن خطه الفكري والرسالي.

الأمة ترفض البراءة من أهل البيت

ورغم ضغط عوامل الارهاب والإغراء على ضمير الأمة في أيام بني أمية، فإن الأمة كانت ترفض السب والبراءة من الإمام وأهل البيت وتتهرّب من شتم الإمام ما وسعهم ذلك.

فكان الناس يتهرّبون من حضور مجالس السب ويحرصون ألّا يحضروا هذه المجالس.

وقد كان من دأب بني أمية أن يسبّوا الإمام في خطب الجمعة والعيدين. ومن المعروف أن السنّة في خطبة العيدين تأخيرها عن الصلاة. فكان الناس إذا انقضت الصلاة انتشروا لئلا يسمعوا السب والشتم في الإمام فأمر معاوية بتقديم الخطبة قبل الصلاة لئلا يتهرّب الناس من سماع الخطبة.

يقول اليعقوبي:

وفي هذه السنة - أي سنة ٤٤هـ - خطب الخطبة قبل الصلاة، وذلك أنّ الناس كانوا اذا صلّوا انصرفوا لئلا يسمعوا لعن عليّ(ع)، فقدّم معاوية الخطبة قبل الصلاة[2].

---

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد بتحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ١١ / ٤٦ .
(٢) تاريخ اليعقوبي ٢ / ٢١١ ط ٤، سنة ١٣٩٤ هـ النجف .

ولا نلتقي فيما نقرأ من التاريخ بغير هذه الظاهرة السلبية في رفض السبّ والشتم على صعيد الأمة، بظاهرة أخرى تُلفت النظر، ولكننا نلتقي بمواقف فردية كثيرة في تأريخ هذه الفترة في رفض البراءة والسبّ صارخة ومعلنة للرفض أحياناً وبصوت منخفض أحياناً أخرى.

روى أبو بكر بن عبد اللّه الأصبهاني قال: كان دعيّ لبني أمية يقال له: خالد بن عبد اللّه لايزال يشتم علياً(ع) فلما كان يوم الجمعة وهو يخطب الناس قال: واللّه إن كان رسول اللّه ليستعمله وإنه ليعلم ماهو، ولكنه كان ختنه، وقد نعس سعيد بن المسيب ففتح عينيه ثم قال: ويحكم، ماقال هذا الخبيث؟ رأيت القبر انصدع، ورسول اللّه (ص) يقول: كذبت ياعدو اللّه[1].

وعن أبي عبد اللّه الجدلي قال: دخلت على أم سلمة رحمها اللّه، فقالت لي أيُسبُّ رسول اللّه(ص) فيكم؟ قلت: معاذ اللّه او سبحان اللّه؟ قالت سمعت رسول اللّه(ص) يقول: من سبّ علياً فقد سبني[2].

وروى عدي بن ثابت، عن اسماعيل بن إبراهيم قال: كنت أنا وإبراهيم بن يزيد جالسين في الجمعة مما يلي أبواب كندة فخرج المغيرة فخطب فحمد اللّه ثم ذكر ماشاء أن يذكر، ثم وقع في عليّ(ع) فضرب إبراهيم على فخذي أو ركبتي، ثم قال: أقبل عليّ فحدّثني فإنا لسنا في جمعة، ألا تسمع مايقول هذا؟[3].

---

(١) شرح النهج ١٣ / ٢٢٢ .

(٢) مسند أحمد بن حنبل ٦ / ٣٢٢، ونحو هذه الرواية في شرح النهج ١٣ / ٢٢٢، وفي تاريخ دمشق رقم ٦٥٩ من ترجمة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام المجلد الثاني من تحقيق المحمودي ص ١٨٢، ورواه البلاذري ايضاً في الحديث ٢١٦ من ترجمة أمير المؤمنين من كتاب الأنساب ١ / ٣٣٥ بتحقيق المحمودي أيضاً ورواه المتّقي الهندي في الكنز الحديث ٣٧٥ من فضائل الإمام ١٥ / ١٢٨، ورواه نور الدين في الخصائص حديث ٨٥ ص ٩٩ ط الغري، والحاكم في المستدرك باب مناقب الإمام ١٣ / ١٢١، راجع هوامش الشيخ محمد باقر المحمودي على أنساب الأشراف في ترجمة الإمام علي بن أبي طالب ٢ / ١٨٢ - ١٨٣. (ورواه نور الدين الهيثمي في مجمع الزوائد ٩ / ١٣٠ والنسائي في الخصائص).

(٣) شرح النهج ١٣ / ٢٢١ .

وعن أشعب بن سوار قال: سبّ عدي بن ارطأة علياً(ع) على المنبر فبكى الحسن البصري، وقال: لقد سُبّ هذا اليوم رجل وإنه لأخو رسول اللّه(ص) في الدنيا والآخرة[١].

وعن عبد اللّه بن ظالم قال: لما بُويع لمعاوية أقام المغيرة بن شعبة خطباء يلعنون علياً(ع) فقال سعيد بن زيد بن عمر بن نفيل: الا ترون إلى هذا الرجل الظالم يأمر بلعن رجل من أهل الجنة[٢].

وروى الطبري، عن علي بن محمد قال: خطب بُسر على منبر البصرة فشتم علياً(ع) ثم قال: نشدت اللّه رجلاً علم إني صادق إلا صدّقني أو كاذب إلا كذبني، قال: فقال أبو بكرة: اللّهم إنا لانعلمك إلا كاذباً، قال: فأمر فخُنق، قال: فقام أبو لؤلؤة الصبي فرمى بنفسه عليه فمنعه، فأقطعه أبو بكرة بعد ذلك مائة جريب.

قال: وقيل لأبي بكرة: ما أردت إلى ماصنعت؟

قال: أيُنشدنا باللّه ثم لانصدقه؟[٣].

وكان المغيرة بن شعبة إذا شتم الإمام يقول له حجر بن عدي: بل إياكم ذم اللّه ولعن ثم يقول: أنا أشهد إن من تذمون أحق بالفضل ومن تتركون أولى بالذم[٤].

فلما كان في آخر إمارته - أي المغيرة - قال في عليّ وعثمان ماكان يقول، فقام حجر فصاح صيحةً سمعها كل من بالمسجد: مُر لنا أيها الإنسان بأرزاقنا فقد حبستها عنا، وليس ذلك لك. وقد أصبحت مولعاً بذم أمير المؤمنين. فقام أكثر من

---

(١) المصدر السابق .

(٢) نفس المصدر ١٣ / ٢٢٠ .

(٣) تاريخ الطبري حوادث سنة ٤١ الجزء السابع ١١ / ١٤ طبعة ليدن، وتاريخ الكامل لابن الأثير ٣ / ٤١٤ بيروت ١٣٨٥، وروى ابن الأعثم القصة عن عمرو بن أبي أرطاة أخي بُسر وزاد فيها أن أبا بكره قال لعمرو: كذبت ياعدو الله قد كان علي بن أبي طالب خيراً منك ومن صاحبك الذي ولاك علينا. كتاب الفتوح لابن الأعثم ٤ / ١٦٨ - ١٦٩، ط دائرة المعارف العثمانية بالهند.

(٤) الكامل في التاريخ ٣ / ٤٧٣ .

ثلثي الناس يقولون صدق حجر وبرّ[١].

وطلب المغيرة من صعصعة بن صوحان أن يقوم فيلعن الإمام، فقام في الناس فقال: إنّ أميركم هذا أمرني أن ألعن علياً فالعنوه لعنه اللّه وهو يضمر المغيرة [٢].

ولما ولي خالد بن عبد اللّه القسري مكة وكان إذا خطب بها لعن علياً(ع) والحسن والحسين(ع).

فقال عبيد اللّه بن كثير السهمي فيه:

لعن اللّه من يسب عليّاً وحسيناً من سوقة وإمام
أيسب المطهّرون جدودا والكرام الآباء والأعمام
يامن الطير والحمام ولا يأ من آل الرسول عند المقام
طبت بيتاً وطاب أهلك أهلا أهل بيت النبي والاسلام
رحمة اللّه والسلام عليهم كلما قام قائم بسلام[٣]

تلك كانت شواهد هي بقايا من صحوة الضمير في حياة هذه الأمة في إلليلة المظلمة من عصر بني أمية تتجلّى في مواقف الرفض لسياستهم.

واستمر بنو أمية على هذه العادة القبيحة في سب الإمام وأهل بيته حتى جاء عمر بن عبد العزيز فقضى على هذه الظاهرة المنكرة في حكم بني أمية.

سياسة الإرهاب والتصفية للمعارضة العلوية

ولم يكن بإمكان بني أمية أن يكتفوا بالسعي لإسقاط الخط العلوي لدى الرأي العام الإسلامي، والتشهير به فقط.. دون أن يقترن ذلك بتصفية واسعة لرؤوس المعارضة من شيعة عليّ(ع) وأصحابه، ونشر الرعب والإرهاب فيما بينهم، ولا

(١) المصدر السابق.
(٢) شرح النهج ١٥ / ٢٥٧ .
(٣) نفس المصدر، ١٥ / ٢٥٦ .

سيما في العراق، حيث يكثر شيعة علي(ع) ومواليه وقد خصّ معاوية العراق لهذا الغرض بالعمّال والولاة الذين كان يعرف فيهم العداء والبغضاء لشيعة عليّ(ع) من أمثال المغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه وسمرة بن جندب.

وقد بالغ بنو أمية في ملاحقة شيعة أهل البيت وتصفيتهم وإشاعة الإرهاب فيهم والتشديد عليهم.

يروي ابن أبي الحديد كلاماً للإمام أبي جعفر الباقر(ع) فيما لاقاه شيعتهم من ألوان العذاب والإضطهاد على يد بني أمية ننقل جملةً منه:

«ثم لم نزل - أهل البيت - نُستذل ونُستضام، ونُقصى، ونُمتهن، ونُحرم، ونُقتل، ونخاف، ولا نأمن على دمائنا ودماء أوليائنا. ووجد الكاذبون الجاحدون لكذبهم وجحودهم موضعاً يتقرّبون به إلى أوليائهم وقضاة السوء وعمّال السوء في كل بلدة، فحدّثوهم بالأحاديث الموضوعة المكذوبة ورووا عنّا ما لم نفعله ليبغّضونا إلى الناس. وكان عظم ذلك وكبره زمن معاوية بعد موت الحسن(ع) فقُتلت شيعتنا بكل بلدة، وقُطعت الأيدي والأرجل على الظِنّة، وكان من يذكّر بحبنا، والإنقطاع إلينا سجن أو نهب ماله أو هُدمت داره، ثم لم يزل البلاء يشتد ويزداد إلى زمان عبيد الله بن زياد قاتل الحسين(ع). ثم جاء الحجاج فقتلهم كل قتلة، وأخذهم بكل ظِنّةٍ وتهمة حتى أن الرجل ليقال له: زنديق أو كافر أحب إليه من أن يقال له: شيعة عليّ[1]».

ويحدّثنا محمد بن الحنفية عن طرف من معاناة أهل البيت في هذه الفترة المظلمة من تأريخ الاسلام:

يقول ابن سعيد: وجاء رجل إلى محمد بن الحنفية فقال: كيف أنت؟ فحرّك يده، فقال: كيف أنتم؟ أما آن لكم أن تعرفوا كيف نحن؟ إنما مثلنا في هذه الأمة مثل بني اسرائيل في آل فرعون كان يُذبّح أبناءهم ويستحيي نساءهم[2].

---

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ١١ / ٤٤ وروى النص عن ابن أبي الحديد المجلسي في البحار ٤٤ /٦٨ - ٦٩ .

(٢) الطبقات الكبرى، ابن سعد ٥ / ٩٥ دار صادر بيروت.

وقد بدأ معاوية حملة الإبادة والاستئصال لشيعة علي(ع) واستمرت هذه الحملة بشكلها الحاد العنيف حتى أواخر حكم آل أمية.

ولعل كتاب الغارات الذي وضعه ابراهيم بن محمد الثقفي الكوفي المتوفي ٢٨٣هـ يلقي بعض الضوء على غارات الإبادة والاستئصال التي كان يشنها معاوية على أطراف الحجاز واليمن والعراق لإبادة واستئصال شيعة الإمام ومحبيه.

وروى ابراهيم بن محمد بن سعيد الثقفي، عن سفيان بن عوف الغامدي قال: دعاني معاوية فقال: إني باعثك في جيش كثيف ذي أداة وجلادة، فالزم لي جانب الفرات حتى تمر بهيت فاقطعها، فإن وجدت بها جُنداً فأغر عليهم وإلا فامضِ حتى تَغير على الأنبار فان لم تجد بها جُنداً فامضِ حتى توغل في المدائن... إن هذه الغارات ياسفيان على أهل العراق ترعب القلوب، وتفرح كل من له فينا هوى منهم وتدعو إلينا كل من خاف الدائر، فاقتل من لقيته ممن ليس هو على مثل رأيك وأخرب كلّما مررت به من القرى، وأخرب الأموال فإن خرب الأموال شبيه بالقتل، وهو أوجع للقلب[1].

ونشير هنا إلى بعض المجازر التي حصلت على يد خلفاء بني أمية وعمّالهم في شيعة أهل البيت في هذه الفترة الرهيبة من تاريخ الإسلام.

١ - مجازر بُسر بن أرطاة

بعث معاوية بسر بن أرطاة - وكان قاسي القلب سفّاكاً لا رأفة له ولا رحمة، كما يقول الثقفي في الغارات - إلى اليمن وقال له: (أُقتل شيعة عليّ حيث كانوا)[2]، فأقبل من الشام حتى قدم المدينة (فخطب الناس وشتمهم وتهدّدهم يومئذ، وتوعّدهم وقال: شاهت الوجوه)[3].

(١) شرح النهج بتحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ٢ / ٨٥ - ٨٦ والغارات لإبراهيم بن محمد الثقفي ٤٦٤ - ٤٦٧، ط طهران بتحقيق السيد جلال الدين المحدث.
(٢) الغارات للثقفي ٥٩٨ طهران ١٣٩٥ هـ .
(٣) الغارات ٦٠٢ ط ٢ طهران ١٣٩٥ .

(... ثم شتم الأنصار، فقال: يامعاشر اليهود وأبناء العبيد بني زريق وبني النجّار وبني سالم وبني عبد الأشهل، أما والله لأوقعن بكم وقعة تُشفي غليل صدور المؤمنين وآل عثمان. أما والله لادعنّكم أحاديث كالأمم السالفة)[١]، ونزل بُسر فأحرق دار زرارة بن جرول ودار رفاعة بن رافع ودار أبي أيوب الأنصاري[٢]. وعن الوليد بن هشام قال: صعد (بُسر) منبر النبي(ص) فقال: يا أهل المدينة أخضبتم لِحاكُم وقتلتم عثمان مخضوباً والله لا أدع في المسجد مخضوباً إلا قتلته، ثم قال لاصحابه خذوا بأبواب المسجد وهو يريد أن يستعرضهم، فقام اليه عبد الله بن الزبير وأبو قيس رجل من بني عامر بن لؤي فطلبا إليه حتى كفّ عنهم[٣]، وتوجّه بُسر إلى اليمن وقتل في مسيره ذلك جماعة من شيعة علي باليمن[٤].

وقتل ابني عبيد الله بن عباس (عامل أمير المؤمنين على اليمن) وهما صغيران بين يدي أمهما[٥] فولهت أمهما وهامت على وجهها وكانت تأتي الموسم وتنشدهما فتقول:

يامن أحسّ بابنيّ اللذين هما — كالدرتين تشظّى عنهما الصّدف

يامن أحسّ بابنيّ اللذين هما — مخ العظام فمخي اليوم مزدهف

يامن أحسّ بابنيّ اللذين هما — قلبي وسمعي فقلبي اليوم مختطف

نُبِئت بُسراً وما صدّقت مازعموا — من أفكهم ومن الإثم الذي اقترفوا

أنحى على ودجي ابنيّ مرهفة — مشحوذة وكذاك الإثم يقترف

من دلّ والهة حرّى مسلبة — على صبيين ضلّا إذ مضى السلف

ولما قتل بُسر الغلامين بين يدي أمهما خرج[٦] نسوة من بني كنانة فقالت امرأة

---

(١) المصدر السابق ٦٠٣ .
(٢) نفس المصدر ٦٠٣ - ٦٠٤ .
(٣) نفس المصدر ٦٠٧ - ٦٠٨ .
(٤) الكامل ٣ / ٣٨٤ .
(٥) الاستيعاب بهامش الاصابة في تمييز الصحابة ١ / ١٥٥، الطبعة الأولى ١٣٢٨هـ مصر.
(٦) راجع الغارات ٦١٣ والاستيعاب بترجمة بُسر بهامش الإصابة ١ / ١٥٦، والكامل ٣ / ٣٨٣ - ٣٨٤، وبحار الأنوار الطبعة الحجرية ١٠ / ١٣٠ .

منهن: هذه الرجال تقتلها فعلام تقتل الولدان؟ واللّه ماكانوا يقتلون في الجاهلية ولا في الإسلام. واللّه إن سلطاناً لايشتدّ إلا بقتل الرضّع الضعاف ورفع الرحمة وقطع الأرحام لسلطان سوء، فقال بُسر: واللّه لهممت أن أضع فيكنّ السيف. قالت: واللّه إنّه لأحبّ إلي[١].

يقول ابن الأثير: فلما سمع أمير المؤمنين عليّ بقتلهما جزع جزعاً شديداً ودعا على بُسر، فقال: اللّهم اسلبه دينه وعقله، فأصابه ذلك وفقد عقله فكان يهوي بالسيف ويطلبه فيؤتى بسيف من خشب ويجعل بين يديه زق منفوخ فلا يزال يضربه ولم يزل كذلك حتى مات[٢].

وسار بُسر إلى أرحب وقتل فيها أبا كرب وكان سيد من في البادية من همدان فقتله قتلاً ذريعاً[٣]، ثم دخل صنعاء فقتل فيها قوماً، وأتاه وفد من مأرب فقتلهم فلم ينجُ منهم إلا رجل واحد[٤].

وقال ابن عبد البر: وأغار بُسر على همدان وسبى نساءهم فكنّ أول مسلمات سُبين في الإسلام[٥] وأقمن في السوق[٦].

وكان أبو ذر رحمه اللّه يعوذ باللّه من أن يدرك زماناً تُسبى فيه النساء المسلمات ويكشف عن سيقانهن، فأيتهنّ كانت أعظم ساقاً اشتُريت[٧].

٢ - مجازر زياد بن أبيه

من دهاة العرب والمعروفين بالقسوة وسفك الدماء، استعمله معاوية على البصرة

---

(١) الغارات ٦١٥ - ٦١٦، والكامل ٣ / ٣٨٤ باختلاف يسير.
(٢) الكامل لابن الأثير ٣ / ٣٨٥ .
(٣) الغارات ٦١٧ - ٦١٨ .
(٤) نفس المصدر ٦١٨ - ٦١٩ .
(٥) الاستيعاب بهامش الاصابة ١ / ١٥٧. ط الأولى بمصر ١٣٢٨هـ .
(٦) نفس المصدر ١ / ١٥٨ .
(٧) نفس المصدر ١ / ١٥٧ .

ثم أضاف اليه إمارة الكوفة بعد موت المغيرة بن شعبة، فمكّن لمعاوية في العراقين البصرة والكوفة وأحكم قواعد حكم بني أمية على العراقين بالارهاب والدم. فكتب إلى معاوية: أنه قد ضبط العراقين البصرة والكوفة بيمينه، وشماله فارغة، فأضاف معاوية إلى امارته إمارة الحجاز.

ولما عرف أهل المدينة بأن معاوية قد ولّى زياداً إمارة الحجاز (اجتمع الصغير والكبير بمسجد رسول اللّه(ص) وضجّوا إلى اللّه، ولاذوا بقبر النبي(ص) ثلاثة أيام لعلمهم بما هو عليه من الظلم والعنف)[1] وقد كان حاقداً على عليّ(ع) وشيعته أبلغ مايكون الحقد وقاسياً عليهم يتّبعهم في كل مكان ويسلّط عليهم جلاوزته وعمّاله.

يقول ابن الأعثم ـ المتوفى سنة ٣١٤هـ ـ : (وجعل زياد يتتبّع شيعة علي بن أبي طالب فيقتلهم تحت كل حجَر ومدَر، حتى قتل منهم خلقاً كثيراً، وجعل يقطع أيديهم وأرجلهم ويسمل أعينهم وجعل أيضاً يغري بهم معاوية، فقتل منهم معاوية جماعة، وفيمن قتل حجر بن عدي الكندي وأصحابه، وبلغ ذلك الحسن بن علي فقال: اللّهم خذ لنا ولشيعتنا من زياد بن أبيه، وأرنا فيه نكالاً عاجلاً)[2].

ويقول ابن أبي الحديد – المتوفي سنة ٦٥٦هـ – : فكان (زياد) يتتبّع الشيعة وهو بهم عارف لأنه كان منهم أيام عليّ(ع)[3] فقتلهم تحت كل حجر ومدر وأخافهم وقطع الأيدي والأرجل وسمل العيون وصلبهم على جذوع النخل وطردهم وشرّدهم عن العراق فلم يبق معروف منهم[4].

وهذه الصور التي يرسمها ابن أعثم من مؤرخي القرن الثالث الهجري وابن أبي

---

(١) مروج الذهب ٣ / ٢٦ فهارس يوسف اسعد داغر.
(٢) كتاب الفتوح لابن الأعثم ٤ / ٢٠٣ ط حيدر آباد الهند دائرة المعارف العثمانية ١٣٨١هـ.
(٣) كان زياد والياً من قبل الإمام على فارس فكتب اليه معاوية يتهدده ويغريه فلما قرأ زياد كتابه قام في الناس وقال: «العجب كل العجب من ابن آكلة الأكباد - أي معاوية - ورأس النفاق يخوّفني بقصده إياي وبيني وبينه ابنا عم رسول الله في المهاجرين والأنصار» الكامل لابن الأثير ٣ / ٤٤٤ .
(٤) شرح النهج لابن أبي الحديد ١١ / ٤٤ .

الحديد من مؤرخي القرن السابع تكفي لتعطينا صورة واضحة عن الفترة الدموية التي حكم فيها زياد بن أبيه على الحجاز والكوفة والبصرة وما والاهما وبضمنها الريّ وخراسان.

ويقول المدائني: (وكان أشد الناس بلاء حينئذ أهل الكوفة لكثرة من بها من شيعة علي(ع) فاستعمل عليهم زياد بن سميّة، وضمّ اليه البصرة فكان يتتبّع الشيعة وهو بهم عارف لأنه كان منهم أيام علي(ع) فقتلهم تحت كل حَجَر).

ويروي الطبري قصة من قصص الارهاب العجيبة في حكم زياد تكشف لنا أبعاد المجازر الرهيبة في أيام زياد وخلاصة هذه القصة: أن زياداً لما مات المغيرة وأُنيطت به ولاية الكوفة جاء إلى الكوفة وصعد المنبر فخطب في الناس فحُصِبَ وهو على المنبر. يقول الطبري: فجلس حتى أمسكوا ثم دعا قوماً من خاصته وأمرهم فأخذوا أبواب المسجد ثم قال: ليأخذ كل رجل منكم جليسه ولا يقولن لا أدري من جليسي.

ثم أمر بكرسي فوضع له على باب المسجد فدعاهم أربعة أربعة يحلفون باللّه ما مِنّا من حصبك فمن حلف خلّاه ومن لم يحلف حبسه وعزله حتى صار إلى ثلاثين، ويقال: بل كانوا ثمانين فقطع أيديهم على المكان[1].

ويقول ابن الأثير: (وكان زياد أول من شدّد أمر السلطان، وأكّد الملك لمعاوية وأخذ بالظِنة وعاقب على الشبهة وخافه الناس خوفاً شديداً)[2].

وروى اليعقوبي (المتوفّي ٢٩٢هـ) والمسعودي (المتوفي ٤٣٦هـ) أن زياداً جمع جمعاً من شيعة الإمام(ع) في أُخريات حياته ليعرض عليهم البراءة من الإمام ولعنه فان لم يتبرأوا ولم يلعنوا قَتلهم فعجّل اللّه تعالى بهلاك الطاغية قبل أن يصل إلى غايته[3].

وأما ابن أبي الحديد (المتوفي ٦٥٦هـ) فقد روى الرواية بالشكل التالي: وأراد

---

(١) تاريخ الطبري، حوادث سنة ٥٠ الجزء السابع ١١ / ٨٨، طبعة ليدن.
(٢) الكامل لابن الأثير ٣ / ٤٥٠ .
(٣) اليعقوبي ٢ / ٢٢٢ - ٢٢٣. والمسعودي ٣ / ٢٦ .

زياد أن يعرض أهل الكوفة أجمعين على البراءة من علي(ع) ولعنه وأن يقتل كل من امتنع من ذلك ويخرّب منزله فضربه اللّه ذلك اليوم بالطاعون فمات ـ لا رحمه اللّه ـ بعد ثلاثة ايام[١].

ومن أقبح ما عمله زياد اغراء معاوية بقتل الصحابي الجليل حجر بن عدي رحمه اللّه واثني عشر شخصاً من أصحابه.

وقد ذكر الطبري أسماء النفر الذين بعث بهم زياد إلى معاوية لقتلهم، وهم: (حجر بن عدي بن جبلة الكندي، والأرقم بن عبد اللّه الكندي من بني الأرقم، وشريك بن شداد الحضرمي، وصفي بن فسيل، وقبيصة بن ضبيعة بن حرملة العبسي، وكريم بن العفيف الخثعمي، وعاصم بن عوف البجلي، وكدام بن حيان، وعبد الرحمن بن حسان العنزيان من بني تميم، ومحرز بن شهاب التميمي من بني منقر، وعبد اللّه بن حوية السعدي.. فمضوا بهم حتى نزلوا مرج عذراء فحبسوا بها ثم إن زياداً أتبعهم برجلين آخرين مع عامر بن الأسود العجلي، عتبة بن الأخنس من بني سعد، وسعد بن نمران الهمداني فتمّوا أربعة عشر رجلاً)[٢].

فقتل معاوية جمعاً منهم بمرج عذراء من دمشق صبراً من غير مخالفة للّه ولرسوله وكان منهم حجر بن عدي العبد الصالح وجمع من خيار المسلمين من شيعة الامام ومواليه.

يقول الدكتور طه حسين في هذه الجريمة:

«وهكذا انتهت هذه المأساة المنكرة التي استباح فيها أمير من امراء المسلمين أن يعاقب الناس على معارضته، وان يُكره وجوه الناس وأشرافهم على أن يشهدوا عليهم زوراً وبهتاناً.. استباح أمير من أمراء المسلمين لنفسه هذا الإثم واستحلّ هذه

(١) شرح النهج ٤ / ٥٨ .
(٢) تاريخ الرسل والملوك للطبري، ط ليدن ١٨٩٧، القسم الثاني من الكتاب / ٧ ص ١٣٦ ويروي الطبري قصة استشهاد حجر بن عدي رحمه الله وأصحابه في هذا الموضع من الكتاب بتفصيل، وكذلك راجع اليعقوبي ٢١٨، والاستيعاب في ترجمة حجر بهامش الإصابة ١ / ٣٥٦ .

البدع واستباح إمام من أئمّة المسلمين أن يقضي بالموت على نفر من الذين عصم اللّه دماءهم دون أن يراهم أو يسمع لهم، أو يأذن لهم في الدفاع عن أنفسهم»[١].

وتسبّب زياد كذلك في قتل الصحابي الجليل عمرو بن الحمق الخزاعي رحمه اللّه، حيث طارده فخرج إلى الموصل مختفياً فقبض عليه عامل الأمويين على الموصل فضرب عنقه ونصب رأسه على رمح وطِيف به، فكان أول رأس طِيف به في الإسلام[٢].

وقد أثار مقتل الصحابيين الجليلين حِجر وعمرو رحمهما اللّه مشاعر المسلمين وفيهما كتب الإمام الحسن(ع) إلى معاوية يؤنّبه في هاتين الجريمتين اللتين شاركه فيهما عمّاله، فيقول عليه السلام:

«الست قاتل حجر واصحابه العابدين المخبتين، الذين كانوا يستفظعون البدع، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فقتلتهم ظلماً وعدواناً من بعد ما أعطيتهم المواثيق الغليظة والعهود المؤكدة[٣]، جرأةً على اللّه واستخفافاً بعهده.

أولست بقاتل عمرو بن الحمق الذي أخلقت وأبلت وجهه العبادة؟»[٤].

جرائم سمرة بن جندب

ونصّب زياد بن أبيه سمرة بن جندب خليفة له على إمارة البصرة في فترة غيابه عنها، فقد كان زياد وزّع سنته إلى شطرين يقضي شطراً منها في الكوفة وشطراً في البصرة.

وكان سمرة ينوب عنه في ملاحقة الشيعة وسفك الدماء عند غيابه عن البصرة وقد كان سمرة جلاداً معروفاً بسفك الدماء وبغض علي بن أبي طالب(ع).

---

(١) الفتنة الكبرى، علي وبنوه، للدكتور طه حسين ٢٤٣ .
(٢) راجع اليعقوبي ٢ / ٢١٩، والاصابة للعسقلاني ٢ / ٥٣٣، ط الأولى بمصر ١٣٢٨هـ .
(٣) في عهده الى الإمام الحسن(ع).
(٤) الإمامة والسياسة، لابن قتيبة ١ / ١٨١، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٣٨٨ هـ .

وقد عمل سمرة في غياب زياد من المجازر مالم يفعله زياد نفسه.

يروي الطبري، عن محمد بن سليم قال: سألت أنس بن سيرين: هل كان سمرة قد قتل أحداً؟

قال: وهل يحصى من قتل سمرة بن جندب؟ استخلفه زياد على البصرة وأتى الكوفة، فجاء وقد قتل ثمانية آلاف من الناس.

فقيل له: هل تخاف أن تكون قد قتلت أحداً بريئاً؟

قال: لو قتلت مثلهم ماخشيت[١].

ويروي الطبري ايضاً، عن أبي سوّار العدوي قال: قتل سمرة من قومي في غداة سبعة واربعين رجلاً كلهم قد جمع القرآن[٢].

ويروي الطبري ايضاً عن عوف قال: أقبل سمرة من المدينة فلما كان عند دور بني أسد خرج رجل من بعض أزقتهم ففاجأ أوائل الخيل فحمل عليه رجل من القوم فأوجره الحربة، قال: ثم مضت الخيل. فأتى عليه سمرة وهو متشحّط في دمه. فقال: ماهذا؟

قيل: اصابته أوائل خيل الأمير، قال: اذا سمعتم بنا قد ركبنا فاتّقوا أسنّتنا[٣].

وكثيرة القصص التي تُروى في ظلم وقسوة سمرة بن جندب من هذا القبيل.

وأياً ما سيكون الأمر فقد وضع بنو أمية قواعد حكمهم وسلطانهم على التشهير بالإمام أمير المؤمنين(ع)، واعلان العداء له وحمل المسلمين على التنكّر له ومحاربة فضائله بكل الصور الممكنة ومحاربة أهل البيت(ع) وشيعتهم.

عداء عليّ عداء لرسول الله(ص)

ونحن لانشك أن هذه الظاهرة بمفردها تشكّل علامة استفهام كبيرة على ايمان

---

(١) الطبري، حوادث سنة خمسين ٧ / ١١ / ٩٠، طبعة ليدن.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر.

بني أمية وولائهم لله ولرسوله وللمؤمنين.

فقد تواترت الروايات الصحيحة عن رسول اللّه(ص): أن حبّ عليّ من حب رسول اللّه، وبغضه من بغض رسول اللّه(ص)، وإن حبّ امير المؤمنين من علامات الايمان، وبعكسه كُرهه وعداؤه من علامات النفاق.

ونحن ننقل هنا جملة مما رواه الحاكم النيسابوري في مستدرك الصحيحين من الأحاديث الصحيحة في الدلالة الايمانية لحبّ علي(ع) وبغضه.

قال رجل لسلمان: ما أشدّ حبك لعلي، قال: سمعت رسول اللّه يقول: من أحب علياً فقد أحبني ومن أبغض علياً فقد ابغضني.

ثم قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه[1]، وعن عمار بن ياسر قال: سمعت رسول اللّه(ص) يقول: ياعلي طوبى لمن أحبك، وصدق فيك، وويل لمن أبغضك وكذب فيك.

وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد[2].

وعن ابن عباس(رض) قال: نظر النبي(ص) إلى علي فقال: ياعليّ أنت سيد في الدنيا وسيد في الآخرة، حبيبك حبيبي، وحبيبي حبيب اللّه، وعدوك عدوي، وعدوي عدو اللّه، والويل لمن أبغضك، ثم قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين[3].

وعن أبي ذر(رض) قال: ماكنا نعرف المنافقين إلا بتكذيبهم اللّه ورسوله والتخلّف عن الصلاة والبغض لعلي بن أبي طالب.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم[4].

عن حيان الأسدي: سمعت علياً يقول: قال لي رسول اللّه(ص): إن الأمة

---

(١) مستدرك الحاكم النيسابوري ٣ / ١٢٠، كتاب معرفة الصحابة، مكتب المطبوعات الإسلامية حلب.

(٢) نفس المصدر ٣ / ١٣٥ .

(٣) نفس المصدر ٣ / ١٢٨ .

(٤) نفس المصدر ٣ / ١٢٩ .

ستغدر بك بعدي وأنت تعيش على ملّتي وتقتل على سنتي، من أحبك أحبّني ومن أبغضك أبغضني[١].

وعن أبي عبد اللّه الجدلي. قال: دخلت على أم سلمة(رض) فقالت لي: أيُسب رسول اللّه(ص) فيكم؟ فقلت: معاذ اللّه.. فقالت: سمعت رسول اللّه(ص) يقول: من سبّ علياً فقد سبّني. ثم قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد[٢].

وعن عمرو بن شاس الأسلمي عن رسول اللّه(ص): (من آذى علياً فقد آذاني)[٣].

هذه نبذة من الأحاديث الواردة عن رسول اللّه(ص) وأصحابه في حب أمير المؤمنين(ع) وقد كان بنو أمية لايقفون عند بغض الإمام وكراهته وإنما كانوا يحاربون الإمام وأهل بيته وشيعته ويعلنون هذه الحرب، ويضعون أسس حكمهم وسلطانهم على ذلك.



(١) المصدر السابق ٣ / ١٤٣ .
(٢) نفس المصدر ٣ / ١٢١ .
(٣) نفس المصدر ٣ / ١٢٢ .

- ٨ -

سياسة بني أمية
تجاه الحرمين الشريفين





سياسة بني أمية تجاه الحرمين الشريفين

كان الحرمان الشريفان مكة المكرمة والمدينة المنوّرة يحتلان محلاً رفيعاً في نفوس المسلمين.

وكان يسكن هاتين البقعتين المباركتين بقية من الأنصار والمهاجرين والتابعين لهم بإحسان وأبناء المهاجرين والأنصار.

ورغم محاولات بني أمية الكثيرة فان الحرمين الشريفين كانا يشكلان قاعدتين للمعارضة السياسية لبني أمية، ولم يتمكن معاوية والحكام الذين جاؤوا من بعده من تليين صلابة المعارضة في الحرمين الشريفين واخضاعها لسلطان بني أمية بشكل مطلق، واسكاتها ازاء طيش بني أمية ونزقهم وتجاوزاتهم رغم وسائل الاغراء والإرهاب الكثيره التي استخدموها، ولذلك كان الحرمان الشريفان دائماً مصدر قلق للشام.. ولم يكن من اليسير ان تستسلم مكة المكرمة والمدينة المنورة للشام، وما يجري فيها على أيدي بني أمية من خروج سافر على أحكام الإسلام وتعليماته.

وقد حاول معاوية ومن بعده يزيد اخضاع الحرمين الشريفين بالقوة، ووقعة الحرّة التي أباح فيها يزيد بن معاوية المدينة المنوّرة معروفة، ومحاصرة مكة المكرمة مشهورة في التاريخ.

ولكن ذلك لم يُجْد نفعاً كبيراً في اخضاع هذين المركزين الإسلاميين

لسلطان بني أمية.

ولذلك فقد اتبع بنو أمية سياسة متعددة الأبعاد للسيطرة على الحرمين الشريفين نشير إلى بعض النقاط الأساسية في هذه السياسة بايجاز.

اشاعة اللّهو والطرب في الحرمين الشريفين

حاول بنو أمية أن يدخلوا اللّهو والطرب إلى هذين المركزين الاسلاميين وسعوا إلى ذلك سعياً بليغاً واستخدموا لذلك المغنّين والمطربين وشعراء الهوى والغرام وبذلوا في سبيل ذلك الأموال الطائلة، وبلغوا في ذلك أيّ مبلغ حتى أن الخليفة كان يحج إلى بيت اللّه فيصطحب معه فيما يصطحب المغنين والمطربين والماجنين والماجنات والزناة والعصاة، ولقد حجّ الوليد بن عبد الملك فالتقى بعمر بن أبي ربيعة فجعل يحدّث الخليفة ويناجية والخليفة مستغرق في الضحك ولا يملك نفسه من الضحك. فلما رجع عمر قيل له: ما الذي كنت تضحك أمير المؤمنين به؟ فقال: «مازلنا في حديث الزنا حتى رجعنا»[١].

وتحجّ فاطمة بنت عبد الملك بن مروان إلى بيت اللّه فتبعث وهي في منى إلى عمر بن أبي ربيعة لتلتقيه[٢]، ثم تغريه وتثيره ليشبب بها[٣].

ويتعرض عمر بن أبي ربيعة لأم الحكم الأموية في الطواف ويشبب بها[٤] ويلتقي في مكة ام محمد بنت مروان بن الحكم وهي حاجّة ويشبب بها[٥] ويقول:

من يكن قلبه صحيحاً سليماً ففؤادي بالخيف أمسى معارا

---

(١) الأغاني ١ / ١١٢، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر (دار الكتب المصرية) ١٣٨٣هـ .

(٢) نفس المصدر ١ / ١٩٠ .

(٣) نفس المصدر ١ / ١٩٥ .

(٤) نفس المصدر ١ / ١٦٠ .

(٥) نفس المصدر ١ / ١٦٦ .

وتستدعي فتيات من بني أمية حاجّات عمر في الحج ليمازحنه، فيأخذن معه في مجون قبيح ويأخذ معهنّ بمجون أقبح ولا نريد أن نذكره هنا[١].

ويتشبب بنوار في مِنى[٢]، وبفاطمة بنت محمد الأشعث الكندية[٣] ويلتقي بها[٤] في أجواء الموسم والمشاعر ويتشبب في الحج بزينب بنت موسى الجمحية[٥].

ويواعد فتيات من قريش في وادي العقيق ويحضر الموعد معهنّ في مجلس ماجن خليع[٦] ويفرش للخليفة الوليد بن عبد الملك بظهر الكعبة، ويجلس بظهر الكعبة ويستمع إلى شعر عمر بن أبي ربيعة ويطرب[٧].

ويتشبب بلبابة بنت عبد اللّه بن العباس زوجة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان وهي تطوف البيت الحرام[٨] وبعائشة بنت طلحة وهي تطوف[٩] ويستمر في ملاحقتها ومتابعتها بمرأى ومسمع من الناس حتى يتعرّض لها وهي ترمي الجمار سافرة ويُسمعها شعره فيها وتشبيبه بها[١٠].

ويتعرّض لليلى بنت الحارث في المسجد الحرام فتقول له: يابن ربيعة حتى متى لاتزال سادراً في حرم اللّه تتشبب بالنساء بذكرهن أما تخاف اللّه؟ فيقول لها: دعيني واسمعي ماقلت:

إن حبّي آل ليلى قاتلي ... ظهر الحب بجسمي وبطن
يا أبا الحارث قلبي طائر ... فائتمر أمر رشيد مؤتمن

---

(١) المصدر السابق ١ / ١٦٩ .
(٢) نفس المصدر ١ / ١٥٨ / ١٥٩ .
(٣) نفس المصدر ١ / ٨٤ .
(٤) نفس المصدر ١ / ٨٩ .
(٥) نفس المصدر ١ / ٩١ - ٩٤ .
(٦) نفس المصدر ١ / ١٥٠ .
(٧) نفس المصدر ١ / ١١٩ .
(٨) نفس المصدر ١ / ٢٠٧ .
(٩) نفس المصدر ١ / ١٩٩ - ٢٠٠ .
(١٠) نفس المصدر ١ / ٢٠٠ .

علق القلب وقد كان صحا من بني بكر غزالاً قد شدن[١]

ويتشبب برملة بنت عبد الله بن خلف الخزاعية في الحج ويتعرض لها[٢] وبامرأة في الطواف يقول عنها التاريخ ـ شريفه ولا يسمّونها ـ فتدعو عليه فيهلكه الله[٣]، ترى من هو عمر بن أبي ربيعة ـ ومثله من شعراء الهوى والمجون في جهاز بني أمية كثير ـ الذي يحوّل الموسم الذي أراده الله تعالى ليكون ذكراً له سبحانه وخشوعاً وعبادة، إلى موسم للمجون والخلاعة بهذه الصورة التي ينقل أبو الفرج الأصفهاني الينا طرفاً منها؟ ومن هو هذا الشاعر الخليع الماجن الذي يتعرض لأعراض المسلمين في الطواف ومنى وأثناء الازدحام عند العقبة الأولى والثانية والكبرى ويتواعد معهن سراً ويشهّر بهنّ ويتشبب بهنّ جهاراً، وفيهنّ أميرات القصر الأموي من بنات الخلفاء وزوجات أمراء القصر الأموي في الشام.

ويتحدث الناس بأحاديث مجونه وخلاعته في الحج.. فلا يتعرض له أحد ولا يمنعه أحد من المسلمين من التعريض بأعراض المسلمين و(التشهير) بهن في موسم الحج.

أما أنا فلا أكاد أصدّق عفوية ذلك، ولا أصدّق أن عمر بن أبي ربيعة قادر على شيء من ذلك إن لم يكن قصر الخلافة في الشام يدعمه ويسنده، بل ويدفعه إلى ذلك ويشجعه، وإن لم يكن الخليفة نفسه يفرش له على ظهر الكعبة ويجالسه ليسمع إلى شعره الماجن الخليع ويطرب له وهو في المسجد الحرام على ظهر الكعبة، وإن لم يكن الخليفة نفسه يجاريه، وهو ذاهب للحج، ويماشيه، ويستغرق معه في حديث طويل عن (الزنا) ويضحك لأحاديثه.

لقد كان بنو أمية إذن يعملون لإشاعة المجون والخلاعة في الحرمين الشريفين ويشجّعون ذلك.

يقول المسعودي في تاريخ يزيد بن معاوية: (وفي أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة،

---

(١) المصدر السابق ١ / ١٥٧ .
(٢) نفس المصدر ١ / ٢١٤ - ٢١٦ .
(٣) نفس المصدر ١ / ٢٤٧ .

واستعملت الملاهي واظهر الناس شرب الشراب)[١].

ويضع الشيخ عبد اللّه العلائلي إصبعه بدقة على موضع الجرح العميق في أيام بني أمية فيقول: (وشجع الأمويون حياة المجون في مكة والمدينة إلى حد الإباحة، فقد استأجروا طوائف من الشعراء والمغنين من بينهم عمر بن ابي ربيعة لأجل أن يمسحوا عاصمتين (مكة والمدينة) بمسحة لاتليق بجعلهما صالحتين للزعامة الدينية. وقد قال الأصمعي: دخلت المدينة فما وجدت إلا المخنثين ورجلاً يصنع الأخبار والطرائف)[٢].

التضييق الاقتصادي على الحرمين الشريفين

والضغوط المادية طريقة أخرى كان يستعملها بنو أمية لارضاخ الحرمين الشريفين واقناعهما بالطروحات الأموية في الخلافة.

فقد حبس معاوية عطاء أهل المدينة عندما وقفوا موقفاً سلبياً من مبايعة يزيد بولاية العهد.

كما أن سعر الحنطة الرسمي عند أهل المدينة كان يختلف عن سعر الحنطة في الشام. ولما تولّى يزيد بن معاوية الخلافة هدد أهل المدينة بالقتل الذريع والدمار إذا خرجوا عن أمره وسلطانه، وأغراهم بأن يعيد إليهم عطاءهم الذي حبسه أبوه عنهم، ويساوي بينهم وبين أهل الشام في سعر الحنطة، إذا رضخوا لأمره واقتنعوا باستحقاقه للخلافة. ويبعث يزيد ـ فيما يرويه ابن قتيبة ـ إلى أهل المدينة عهداً يغريهم به للإنقياد لحكومته وعدم الخروج عليه: (ولهم عليّ عهد أن أجعل الحنطة عندهم كسعر الحنطة عندنا (أي في الشام) والحنطة عندهم سبع أصُع بدرهم، والعطاء الذي يذكرونه أنه احتُبس عنهم في زمان معاوية فهو عليّ أن أخرجه لهم

---

(١) مروج الذهب للمسعودي ٣ / ٦٧ .
(٢) سموّ المعنى في سموّ الذات ٣٠ .

وافراً كاملاً)[١].

وقد بلغ من تضييق بني أمية على الأنصار خاصة أن معاوية لما قدم إلى المدينة لم يكن لرجالهم وشخصياتهم دواب يستقبلون معاوية عليها.

(قال عبد الله بن محمد بن عقيل: قدم معاوية المدينة فلقيه أبو قتادة الأنصاري، فقال معاوية: تلقّاني الناس كلهم غيركم يامعشر الأنصار، قال: لم يكن لنا دواب. فقال: فأين النواضح؟

قال: عقرناها في طلبك وطلب أبيك يوم بدر)[٢].

نظرة بني أمية إلى الأنصار

كان بنو أمية ساخطين على الأنصار سخطاً واضحاً، وكان بعض أسباب هذا السخط موقف الأنصار من معاوية في خلافه مع الإمام(ع) وفي صفين. فلم يكن مع معاوية من الأنصار إلا النعمان بن بشير أما سائر الأنصار فقد كانوا مع الإمام علي(ع).

وكان يزيد بن معاوية قد طلب من كعب بن الجعيل أن يهجوا الأنصار، فقال له: أرادّي أنت إلى الكفر بعد الإسلام؟ أأهجو قوماً آووا رسول الله(ص) ونصروه؟ قال: أما اذا كنت غير فاعل فارشدني إلى من يفعل ذلك. قال: غلام منّا خبيث الدين نصراني، فدلّه على (الأخطل)[٣] فدعاه (يزيد) فقال له: أهج الأنصار. فقال: أفرق من أمير المؤمنين (أي معاوية).

قال: لا تخف شيئاً أنا بذلك لك، فهجاهم فقال:

---

(١) الإمامة والسياسة ١ / ٢٠٧، ط ١٣٨٨هـ ١٩٦٩م، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر.

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ١٨٨، ويقول اليعقوبي في تاريخه ٢ / ٣١١، ط النجف ١٣٩٤: وقال لهم (أي قال معاوية للأنصار) مافعلت نواضحكم؟، قالوا: أفنيناها يوم بدر لما قتلنا أخاك وجدك وخالك، لكننا نفعل ما أوصانا به رسول الله(ص)، قال: ما أوصاكم به؟ قالوا: أوصانا بالصبر. قال: فاصبروا. ثم أولج معاوية الى الشام ولم يقض لهم حاجة.

(٣) الأغاني ١٦ / ٣٧ - ٣٨، دار الكتب.

خلّوا المكارم لستم من أهلها وخذوا مساحيكم بني النجار
إن الفوارس يعرفون ظهوركم أولاد كل مقبّح أكار
ذهبت قريش بالمكارم والعلا واللؤم تحت عمائم الأنصار

فبلغ ذلك النعمان بن بشير (الأنصاري)، فدخل على معاوية فحسر عمامته عن رأسه، وقال: يا أمير المؤمنين أترى لؤماً؟ قال: بل ارى كرماً وخيراً فما ذاك؟

قال: زعم الأخطل إن اللؤم تحت عمائم الأنصار. قال: أو فعل ذلك؟ قال: نعم قال: لك لسانه[1]. فلما أحضر معاوية الأخطل ليعاقبه تدخّل يزيد في أمره فخلّى معاوية سبيله[2] وأرضى النعمان بن بشير.

ولما قدم معاوية إلى المدينة استقبله وفد من الأنصار (فاغلظ لهم في القول، وقال لهم: مافعلت نواضحكم؟ فردّه الأنصار رداً قوياً (قالوا: أفنيناها يوم بدر لما قتلنا أخاك وجدك وخالك... ثم أولج معاوية إلى الشام ولم يقض لهم حاجة)[3].

وألقى عمرو بن العاص إلى معاوية الغاء لقب الأنصار بصورة رسمية وطلب منه أن يردّهم إلى أنسابهم التي كانوا ينتسبون إليها في الجاهلية.

وكان يريد بذلك، كما هو مفهوم، أن يسلبهم الموقع الذي يمنحهم عنوان الأنصار.

واستجاب له معاوية في خوف وحذر إلا أن الأنصار انتبهوا للمؤامرة الأموية وأبطلوها في وقتها.

يقول أبو الفرج الأصفهاني: حضرت وفود الأنصار باب معاوية بن ابي سفيان فخرج اليهم حاجبه.. فقالوا: استأذن للأنصار، فدخل إليه وعنده عمرو بن العاص فاستأذن لهم. فقال له عمرو: ما هذا اللقب يا أمير المؤمنين؟ أُردد القوم إلى أنسابهم، فقال معاوية: إني أخاف من ذلك الشّنعة فقال (على طريقته العاصيّة):

---

(١) الأغاني ١٦ / ٣٥ - ٣٦، راجع طبقات الشعراء ٣٩٢ .
(٢) نفس المصدر ٦ / ٣٦ .
(٣) تاريخ اليعقوبي ٢ / ٢١١، ط النجف سنة ١٣٩٤هـ .

هي كلمة تقولها إن مضت عضّتهم ونقصتهم، وإلا فهذا الاسم راجع إليهم.

فقال له: أُخرج فقل: من كان ههنا من ولد عمرو بن عامر فليدخل.. فدخل ولد عمرو بن عامر كلهم إلا الأنصار. فنظر معاوية إلى عمرو نَظَراً منكراً (وكأنه يقول: ألم أقل لك) فقال له: باعدت جداً (هات بنسب أقرب منه).

فقال: أُخرج فقل: من كان ههنا من الأوس والخزرج فليدخل فخرج فقالها. فلم يدخل أحد.

فقال له معاوية: اخرج فقل: من كان ههنا من الأنصار فليدخل. فخرج فقالها. فدخلوا يقدمهم النعمان بن بشير وهو يقول:

ياسعد لاتعد الدعاء فما لنا	نسب نُجيب به سوى الأنصار
نسب تخيّره الإله لقومنا[1]	اثقل به نسباً على الكفار[2]
إن الذين ثووا ببدر منكم	يوم القليب هم وقود النار[3]

الأمويون يسمّون المدينة بالخبيثة

وكان من سخط الأمويين على المدينة المنوّرة وأهلها أنهم كانوا يسمّون المدينة

---

(١) التسمية بالأنصار وردت في آيتين من القرآن الكريم قرنت اسم الأنصار باسم المهاجرين في الآية ١٠٠ من سورة التوبة ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتّبعوهم باحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾، وفي الآية ١١٧ من نفس السورة ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتّبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم﴾.

(٢) يقول المؤرخون برز رشيد الفارسي وهو مولى من المسلمين لابن عويف من المشركين في معركة أحد فضربه على عاتقه فقطع الدرع حتى جزله باثنتين وقال لابن عويف خذها وأنا الغلام الفارسي فقال له رسول الله(ص) وهو يراه ويسمعه: ألا قلت أنا الغلام الأنصاري، فلما سقط ابن عويف اقبل أخ لابن عويف يعدو كأنه كلب وهو يقول: أنا ابن عويف فضربه رشيد ايضاً على رأسه وعليه المغفر ففلق رأسه وقال: خذها وأنا الغلام الأنصاري. فتبسّم رسول الله(ص) وقال: أحسنت يا أبا عبد الله، فكنّاه رسول الله(ص) يومئذٍ ولا ولد له. شرح النهج لابن أبي الحديد ١٥ / ٥٤ .

(٣) الأغاني ١٦ / ٤٢، دار الكتب المصرية.

المنوّرة ـ التي أسماها رسول اللّه بـ«الطيبة» ـ بـ«الخبيثة»، وقد ورد هذا المعنى في مجموعة من المصادر التأريخية وكان مما أنكره الناس على بني أمية.

يقول ابن أبي الحديد: (ومما كفّر الناس به يزيد بن معاوية أنه سمّاها (خبيثة) مراغمةً لرسول اللّه(ص)[1]. ويروي ابن قتيبة عن أبي معشر: قال لي رجل بينا أنا في بعض أسواق الشام، إذا برجل ضخم، فقال لي: ممن أنت؟ قلت: رجل من أهل المدينة. قال: من أهل الخبيثة؟ قال: فقلت: سبحان اللّه رسول اللّه(ص) سماها طيبة، وسمّيتها خبيثة)[2]، وساق الخبر إلى آخره.

الحيلولة بين الناس وبين زيارة مرقد رسول اللّه(ص)

وقد كان يغيظ بني أمية وعمّالهم إقبال المسلمين على زيارة مرقد رسول اللّه واحترامهم للتربة الطاهرة التي تؤوي الجثمان الطاهر ويعملون بشكل أو بآخر في الاسئاءة إلى رسول اللّه(ص).

وكان ذلك يظهر على فلتات لسانهم في ساعة الغضب والإنفعال بين حين وآخر.

يقول ابن أبي الحديد: (وخطب الحجاج بالكوفة فذكر الذين يزورون قبر رسول اللّه(ص) بالمدينة. فقال: تبّاً لهم إنما يطوفون بأعواد ورمّة بالية، هلا طافوا بقصر أمير المؤمنين عبد الملك ألا يعلمون أن خليفة المرء خير من رسوله)[3].

نقل منبر رسول اللّه(ص) من المدينة إلى الشام

وكان من جملة الخطط الأموية في كسر حرمة المدينة المنوّرة، ونقل المركز الديني إلى الشام في قُبال الحرمين الشريفين محاولة معاوية بن أبي سفيان لنقل

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ٩ / ٢٣٨ .
(٢) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ٢١٥ - ٢١٦، ط سنة ١٣٨٨هـ .
(٣) شرح النهج لابن أبي الحديد ١٥ / ٢٤٢ .

المنبر النبوي إلى الشام.

وقد أغضب الناس هذا الفعل.. وتراجع عنه معاوية، يقول ابن الأثير في حوادث سنة خمسين:

«وفي هذه السنة أمر معاوية بمنبر النبي(ص) أن يُحمل من المدينة إلى الشام (انتقاماً من أهل المدينة) وقال:

لايترك هو وعصا النبي(ص) بالمدينة، وهم قتلة عثمان وطلب العصا.. فحرّك المنبر فكُسفت الشمس حتى رُؤيت النجوم بادية فأعظم الناس ذلك فتركه..

وزاد فيه ست درجات واعتذر مما صنع»(١).

ونقل السمهودي: أن معاوية لما كُسفت الشمس اعتذر إلى الناس وقال: أردت أن أنظر ماتحته وخشيت عليه من الأرضة(٢).

وكأن ذلك كله لم يكن كافياً ليقلع بنو أمية عن محاولة نقل منبر رسول الله(ص) إلى الشام، فقد أعاد المحاولة عبد الملك بن مروان، ومن بعده الوليد.. فنصحهم الناس فكفّوا عن ذلك.

يقول ابن الأثير:

فلما ولّي عبد الملك بن مروان همّ بالمنبر، فقال له قبيصة بن ذؤيب، أذكرك الله أن تفعل، فتركه عبد الملك، فلما كان الوليد ابنه وحجّ همّ بذلك فأرسل سعيد بن المسيب إلى عمر بن عبد العزيز. فقال: كلّم صاحبك ألا يتعرض للمسجد، ولا للّه، والسخط له، فكلّمه عمر فتركه.

«ولما حجّ سليمان بن عبد الملك أخبره عمر بما كان من الوليد فقال سليمان: ما لنا ولهذا؟ أخذنا الدنيا فهي في أيدينا، ونريد أن نعهد إلى علم من أعلام الإسلام

---

(١) الكامل لابن الأثير ٣ / ٤٦٣ - ٤٦٤، ط ١٣٨٥هـ وقال اليعقوبي (وأراد معاوية أن يحمل منبر رسول الله(ص) فنال المنبر زلزلة حتى ظنّ أنه آخر الدنيا فتركه ثم زاد فيه خمس مراقي)، تأريخ اليعقوبي ٢ / ٢٢٥، ط النجف سنة ١٣٩٤هـ

(٢) وفاء الوفاء للسمهودي ١ / ٣٩٨ .

يوفد اليه (وهذا هو سر كل هذه المحاولات) فنحمله إلى ما قبلنا. هذا لايصلح»[١].

تضييع معالم قبور شهداء أحد

كانت قبور شهداء أُحد مزاراً للمسلمين يقصدونها لزيارة الشهداء ويسلّمون عليهم وقد كان رسول اللّه(ص) حريصاً على أن يدفن شهداء أُحد في الأرض التي فيها صرعوا ولا يدفنوا في المدينة.

قال ابن الأثير: واحتمل بعض الناس قتلاهم إلى المدينة، فأمر رسول اللّه(ص) بدفنهم حيث صرعوا وأمر أن يدفن الإثنان والثلاثة في القبر الواحد[٢].

ويروي الواقدي هذه القصة الرائعة لامرأة فقدت في الحرب زوجها وابنها وأخاها، يقول الواقدي: (وكانت عائشة زوج النبي(ص) خرجت في نسوة تستروح الخبر (عن أمر المعركة في أُحد) حتى إذا كانت بمنقطع الحرّة، وهي هابطة من بني حارثة إلى الوادي... لقيت هند بنت عمرو بن حزام، أخت عبد اللّه بن عمرو بن حزام، تسوق بعيراً لها عليه (جثمان) زوجها عمرو بن الجموح، وابنها خلّاد بن عمرو، وأخيها عبد اللّه بن عمرو بن حزام أبو جابر.

فقالت عائشة: عندك الخبر، فما وراءك؟

قالت هند: خيراً، أما رسول اللّه فصالح، وكل مصيبة بعده جلل[٣]، واتخذ اللّه من المؤمنين شهداء **﴿وردَّ اللّه الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى اللّه المؤمنين القتال وكان اللّه قوياً عزيزاً﴾**[٤].

قالت: من هؤلاء؟

---

(١) الكامل لابن الأثير ٣ / ٤٦٤ .

(٢) الكامل ٢ / ١٦٢ - ١٦٣، وروى ابن أبي الحديد رواية أخرى عن الواقدي قريبة من رواية ابن الأثير شرح النهج ١٥ / ٣٩ .

(٣) أي هيّـن

(٤) سورة الأحزاب ٢٥ .

قالت: أخي، وابني خلّاد، وزوجي عمرو بن الجموح.

قالت: فأين تذهبين بهم؟

قالت: إلى المدينة أقبرهم فيها.. حَلْ[1] تزجر بعيرها.. ثم برك بعيرها.

فقلت: لما عليه؟ (أي انما برك البعير لثقل الأجساد عليه) قالت: ما ذاك به. لربما حمل مايحمل البعيران، ولكني أراه لغير ذلك، فزجرته فقام.

فلما وجّهت به إلى المدينة برك، فوجهته راجعة إلى أُحد فأسرع.

فرجعت إلى النبي(ص) فأخبرته بذلك. فقال رسول اللّه(ص): فإن الجمل مأمور. هل قال شيئاً؟

قالت: إن عمرو لما توجّه إلى أُحد استقبل القبلة، وقال: اللّهم لاتردني إلى أهلي خزيّاً، وارزقني الشهادة.

قال رسول اللّه(ص): فلذلك الجمل لايمضي. إن منكم-يامعشر الأنصار من لو أقسم على اللّه لأبرّه، منهم عمرو بن الجموح. ياهند مازالت الملائكة مضللةً على أخيك من لدن قُتل إلى الساعة ينظرون أين يدفن. ثم قلت: يارسول اللّه(ص) حتى قبرهم؟

ثم قال: ياهند، قد ترافقوا في الجنة جميعاً عمرو بن الجموح وابنك خلّاد وأخوك عبد اللّه.

قالت هند: يارسول اللّه ادع اللّه عسى أن يجعلني معهم)[2].

وأمر رسول اللّه(ص) يوم أُحد أن يدفن عبد اللّه بن عمرو بن حزام وعمرو بن الجموح في قبر واحد. وكان قبرهما مما يلي السيل في وادي أُحد فدخل السيل عليهما.

فحفر الناس قبرهما لينقذوا جسديهما من السيل فوجدوهما (وعليهما نمرتان،

---

(١) كلمة تقال لزجر البعير.

(٢) المغازي للواقدي ١ / ٢٦٥ - ٢٦٦، تحقيق الدكتور مارسدن جوشي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات. وروى ابن أبي الحديد في شرح النهج رواية الواقدي باختصار ١٥ / ٣٧ .

وعبد الله قد أصابه جرحٌ في وجهه، فيده على وجهه، فأميطت يده عن جرحه فشخب الدم[١] فردّت إلى مكانها فسكن الدم).

(قال جابر فرأيت أبي في حفرته فكأنه نائم وما تغيّر من حاله قليل ولا كثير. فقيل له: أفرأيت أكفانه؟ فقال: إنما كُفن في نمرة خمّر بها وجهه وعلى رجليه الحرمل. فوجدنا النمرة كما هي والحرمل على رجليه على هيئته، وبين ذلك وبين وقت دفنه ست وأربعون سنة. فشاورهم جابر في أن يطيّب بمسك، فأبى ذلك أصحاب النبي وقالوا: لاتحدثوا فيهم)[٢].

كذلك كان أمر الله تعالى في شهداء أُحد أن لايخرج الناس بأجسادهم عن مضاجعهم التي صُرعوا فيها، فتمنّع الجمل عن الحركة إذ وجّه نحو المدينة، وكذلك أمر رسول الله(ص) باعادة الشهداء إلى أُحد.

... وهكذا وجدوا أجساد شهداء أُحد بعد ست وأربعين سنة غضاضاً كأنهم دفنوا أمس، ولم تتغيّر الحرمل على رجلي أبي جابر رحمه الله، ويريد جابر أن يطيب جثمان والده بالمسك فيأبى ذلك أصحاب رسول الله(ص) لئلا يكونوا قد أحدثوا في مقابر شهداء أحد أمراً.

وكان رسول الله(ص) يزور شهداء أُحد في كل حول ويرفع صوته بالسلام عليهم، وكذلك الخلفاء من بعده[٣].

ويروي ابن أبي الحديد عن الواقدي أن: (فاطمة بنت رسول الله(ص) «كانت» تأتيهم بين اليومين والثلاثة فتبكي عندهم، وتدعو).

وكان سعد بن أبي وقاص يذهب إلى ماله بالغابة فيأتي من خلف قبور الشهداء. فيقول: السلام عليكم ثلاثاً، ويقول: لايسلم عليهم أحد إلا ردّوا عليه السلام يوم القيامة.

---

(١) شخب الدم: جرى. النهاية ١ / ١٢٨، لابن الأثير.
(٢) كتاب المغازي للواقدي ١ / ٢٦٧ .
(٣) شرح النهج ١٥ / ٤٠ .

قال: ومرّ رسول اللّه(ص) على قبر مصعب بن أبي عمير فوقف عليه، ودعا، وقرأ ﴿من المؤمنين رجالٌ صدقوا ماعاهدوا اللّه عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً﴾[1]، ثم قال: (إن هؤلاء شهداء عند اللّه يوم القيامة، فاتوهم فزوروهم وسلموا عليهم، والذي نفسي بيده لا يسلّم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردّوا عليه، وكانت أم سلمة رحمها اللّه تذهب فتسلّم عليهم في كل شهر مرة، فتظل يومها...)[2].

... وهكذا أصبحت مقابر شهداء أُحد مزاراً للمسلمين بتوجيه من رسول اللّه(ص) وأهل بيته وصحابته حتى جاء معاوية إلى الحكم، وانفرد بالسلطان فأمر بإجراء قناة من الماء (كظامة) في المنطقة التي دفن فيها شهداء أُحد. وكان مجرى القناة يمر بقبور شهداء أُحد، فتهيّب عامل معاوية من نبش وإخراج أجساد الشهداء فكتب إلى معاوية بذلك. فأمره بنبش القبور وتنفيذ مشروع القناة، يقول ابن سعد في الطبقات:

(لما أراد معاوية أن يجري عينه التي بأحد، كتبوا اليه: إنا لانستطيع أن نجريها إلا على قبور الشهداء، فكتب: إنبشوهم. قال فرأيتهم (أي أجساد الشهداء) يحملون على أعناق الرجال كأنهم قوم نيام وأصابت المسحاة طرف رجل حمزة بن عبد المطلب فانبعث دماً)[3].

وقال الواقدي في المغازي: ويقال: إن معاوية لما أراد أن يجري (كظامة) - والكظامة عين أحدثها معاوية - نادى مناديه بالمدينة من كان له قتيل بأُحد فليشهد، فخرج الناس إلى قتلاهم، فوجدوهم طرايا يتثنّون، فأصابت المسحاة رجلاً منهم فشخب دماً.

قال أبو سعيد الخدري: لاينكر بعد هذا منكرٌ أبداً... ولقد كانوا يحفرون

---

(١) سورة الأحزاب ٢٣ .
(٢) شرح النهج لابن أبي الحديد ١٥ / ٤٠ .
(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ / ١١، دار صادر، بيروت.

التراب فلكما حفروا فِتراً من تراب فاح عليهم المسك[١].

ذلك اجمال القصة التي يشير إليها المؤرخون من اعتداء معاوية على قبور شهداء أُحد بعذر إجراء كظامة (قناة) على أرض أُحد.. وقد جرى ماجرى من انتهاك حرمة الشهداء ونبش قبورهم حمل اجسادهم على الأعناق وتجاوز مشاعر المسلمين تجاه قبور الشهداء.

وقد جرى كل ذلك تحت غطاء هذه الكظامة المزعومة وسكت عنها المؤرخون.

أما نحن فنكاد نطمئن إلى أن في الأمر سراً، وراء هذه الكظامة التي اهتم بها معاوية بهذه الدرجة التي بعثته أن يكاتب عامله في المدينة من الشام ويعاود الكتابة اليه.

إنني أرى ان اهتمام المسلمين بزيارة شهداء أُحد كان يتنامى في أيام معاوية بشكل خاص، وكان يحمل في طياته معنى سياسياً خاصاً، فهؤلاء الشهداء ومن بينهم حمزة بن عبد المطلب قتلوا على أيدي المشركين بقيادة أبي سفيان والد معاوية وبزعامة اسرة معاوية، وقد لاكت أُم معاوية هند كبد حمزة(ع) في عمل وحشي ينم عن حقد عميق تجاه الاسلام والمسلمين.

وكان وادي أُحد، ومعركة أُحد، وشهداء أُحد يشكلون صفحة سوداء من جرائم بني أمية...

وكانت زيارة المسلمين وأهل المدينة بشكل خاص، وتنامي مظاهر هذه الزيارة تعبيراً عن سخط المسلمين على بني أمية ورفضهم لسلطان بني أمية وحكمهم.

وحاول معاوية أن يعالج الموقف بهذه الصورة فأمر بحفر القناة لتضييع معالم قبور شهداء أُحد، وتنتهي بها هذه التظاهرة السلبية السياسية تجاه حكم بني أمية وخلافتهم... فكان ولكن ﴿يأبى اللّه إلا أن يُتم نوره﴾[٢].

---

(١) كتاب المغازي للواقدي، ١ / ٢٦٨، وأورد القصة الإمام الحافظ عبد الله بن المبارك في كتاب الجهاد ٨٤، تحقيق نزيه حمّاد، بيروت، دار السفر، ١٣٩١هـ، وابن أبي الحديد في شرح النهج ١٤ / ٢٦٤ .

(٢) سورة التوبة آية ٣٢ .

- ٩ -

وقعة الحرَّة





مجزرة الحرّة في مدينة رسول اللّه(ص)

وفي هذه المجزرة الرهيبة التي تمت بأمر يزيد بن معاوية في مدينة رسول اللّه(ص) استباح فيها بنو أمية حرم رسول اللّه(ص) وانتهكوا حرمة مدينته.

وقد (كان سعيد بن المسيب يسّمي سنيّ يزيد بن معاوية بالشؤم:

في السنة الأولى: قتل الحسين بن علي(ع) وأهل بيت رسول اللّه(ص).

وفي الثانية: استُبيح حرم رسول اللّه(ص) وانتهكت حرمة المدينة.

وفي الثالثة: سفك الدماء في حرم اللّه وحرقُ الكعبة)[١].

وكان من قصة الحرّة التي استباح فيها يزيد حرمة رسول اللّه(ص): أن جماعة من وجوه أهل المدينة من أبناء الصحابة وفدوا إلى الشام للقاء يزيد بن معاوية، منهم: عبد اللّه بن حنظلة الأنصاري غسيل الملائكة، وعبد اللّه بن أبي عمرو بن حفص، والمنذر بن الزبير، ورجالٌ من أشراف أهل المدينة قدموا يزيد.

يقول الطبري: (فأكرمهم وأحسن اليهم وأعظم جوائزهم، ثم انصرفوا من عنده وقدموا المدينة.. فأظهروا شتم يزيد وعيبته. وقالوا: قدمنا من عند رجل ليس له دين يشرب الخمر ويعزف بالطنابير، ويضرب عنده القيان ويلعب بالكلاب ويسامر

(١) تاريخ اليعقوبي ٢ /٢٤٠، منشورات المطبعة الحيدرية في النجف الأشرف.

الحزاب والفتيان)[١].

فخلعوا طاعة يزيد وبيعته، وخرجوا عليه وطردوا عامله في المدينة عثمان بن محمد بن أبي سفيان.

(وكان عبيد الله بن حنظلة الغسيل يقول: والله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن نُرمى بالحجارة من السماء.

رجل ينكح الأمهات والبنات والأخوات، ويشرب الخمر، ويدع الصلاة، ويقتل أولاد النبيين)[٢].

وكتب يزيد إلى أهل المدينة كتاباً، أمر عثمان بن محمد أن يقرأه عليهم، وهذا هو الكتاب:

أما بعد: فإني قد نفستكم حتى أخلفتكم ورفعتكم حتى أخرقتكم، ورفعتكم على رأسي ، ثم وضعتكم، وايمُ الله لئن آثرت أن أضعكم تحت قدميّ لأطأنكم وطأةً أقل منها عددكم وأترككم أحاديث تتناسخ كأحاديث عاد وثمود، وأيمُ الله لايأتيكم مني أولى من عقوبتي فلا أفلح من ندم[٣].

ثم أرسل يزيد إلى المدينة مسلم بن عقبة لعنه الله، وكان بفلسطين فاستدعاه ووجّهه إلى مدينة رسول الله في جيش كثيف من أهل الشام لمحاربة أهل المدينة فأباحوا مدينة رسول الله(ص) ثلاثاً، وقتلوا اشراف المسلمين وبقية الصحابة من الأنصار والمهاجرين وأقاموا فيها ثلاثاً يقتلون الرجال وينهبون الأموال ويهتكون الحرمات في قصة مؤلمة مشجية لاتحتملها القلوب فإنا لله وإنا اليه راجعون.

قال سبط ابن الجوزي:

وذكر المدائني في كتاب (الحرّة) عن الزهري قال: كان القتلى يوم الحرّة سبعمائة من وجوه الناس من قريش والأنصار والمهاجرين ووجوه الموالي. وأما من

---

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبري ٧ / ٤٠٣، ط ليدن / ١٩٥، دار الفكر بيروت.

(٢) تذكرة الخواص، لسبط ابن الجوزي، ص ٢٥٩، مؤسسة أهل البيت، بيروت ١٤٠١هـ وتاريخ الخلفاء للسيوطي ١ / ١٩٥، دار الفكر بيروت.

(٣) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ١ / ٢٠٧، ط مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر.

لم يعرف من عبد أو حر أو امرأة فعشرة الاف، وخاض الناس في الدماء حتى وصلت الدماء إلى قبر رسول اللّه(ص) وامتلأت الروضة والمسجد. قال مجاهد التجأ الناس إلى حجرة رسول اللّه ومنبره والسيف يعمل فيهم[١].

وقال ابن قتيبة: (ذكروا أنه قتل يوم الحرّة من اصحاب النبي(ص) ثمانون رجلاً، ولم يبق بدريّ بعد ذلك، ومن قريش والأنصار سبعمائة، ومن سائر الناس من الموالي والعرب والتابعين عشرة آلاف)[٢].

وقد ذكر اليعقوبي في قصة الحرّة: أن أبكار المدينة ولدنَ ولا يُعرف مَن أولدهنّ. وفي هامش الأصل من النسخة (ولدت الف امرأة من وقعة الحرّة من غير أزواج فلعنة اللّه والملائكة والناس أجمعين على من استحلّ ذلك في حرم رسول اللّه)[٣].

(وذكر أبو الحسن المدائني، عن أم الهيثم بنت يزيد قالت: رأيت امرأةً من قريش تطوف بالبيت فعرض لها أسود فعانقته وقبّلته. فقلت لها: ماهذا منك؟ قالت: هذا ابني من يوم الحرّة)[٤].

وروى السيوطي في تأريخ الخلفاء قصة الحرّة فقال: قُتل فيها خلق من الصحابة(رض) ومن غيرهم ونهبت المدينة، وافتضت فيها الف عذراء فإنا للّه وإنا اليه راجعون[٥].

وينقل ابن قتيبة الدينوري (٢١٣ - ٢٧٦هـ) صوراً من هذه الواقعة الأليمة المفجعة التي اقترفتها أيدي بني أمية ننقل فيما يلي شطراً منها:

«وخرج يومئذ عبد اللّه بن زيد بن عاصم صاحب رسول اللّه(ص) والخيل تسرع في كل وجه قتلاً ونهباً فقيل له: لو علم القوم باسمك وصحبتك لم

---

(١) تذكرة الخواص ٢٥٩، مؤسسة أهل البيت بيروت.
(٢) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ١ / ٢١٦، مطبعة مصطفى البابي الحلبي.
(٣) تاريخ اليعقوبي ٢ / ٢٣٧، منشورات المطبعة الحيدرية النجف الأشرف.
(٤) تذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي ٢٥٩، ط مؤسسة أهل البيت بيروت ١٤٠١هـ.
(٥) تاريخ الخلفاء للسيوطي ١٩٤، دار الفكر بيروت.

يهيجوك، فلو أعلنتهم بمكانك. فقال: واللّه لا أقبل لهم أماناً، ولا أبرح حتى أُقتل، لا أفلح من ندم، وكان رجلاً أبيض طويلاً أصلع، فأقبل عليه رجل من أهل الشام وهو يقول: واللّه لا أبرح حتى أضرب صلعتك وهو حاسر، فقال عبد اللّه: شر لك خير لي، فضربه بفأس فيده، فرأيت نوراً ساطعاً في السماء، فسقط ميتاً. وكان يومه ذاك صائماً، رحمه اللّه...

قال: فجعل مسلم يطوف على فرس له ومعه مروان بن الحكم على القتلى، فمر على عبد اللّه بن حنظلة، وهو مادّ إصبعه السبابة، فقال مروان: أما واللّه لئن نصبتها ميتاً فطالما نصبتها حياً. ومرّ على إبراهيم بن نعيم، ويده على فرجه، فقال: اما واللّه لئن حفظته في الممات لقد حفظته في الحياة. ومرّ على محمد بن عمرو بن حزم وهو على وجهه واضعاً جبهته بالأرض، فقال: أما واللّه لئن كنت على وجهك في الممات لطالما افترشته حياً ساجداً للّه. فقال مسلم: واللّه ما أرى هؤلاء الا من أهل الجنة. ومرّ على عبد اللّه بن زيد وبين عينيه أثر السجود، فلما نظر إليه مروان عرفه، وكره أن يعرّفه لمسلم فيحزّ رأسه فقال له: مسلم من هذا؟ فقال: بعض هذه الموالي وجاوزه، فقال له مسلم: كلّا، وبيت اللّه لقد نكبت عنه لشيء فقال له مروان: هذا صاحب رسول اللّه(ص) عبد اللّه بن زيد فقال: ذاك أخزى ناكث بيعته، حزّوا رأسه»[1].

ولزم أبو سعيد الخدري بيته، فدخل عليه نفر من أهل الشام فقالوا: أيها الشيخ من أنت؟ فقال: أنا أبو سعيد الخدري صاحب رسول اللّه(ص) فقالوا: مازلنا نسمع عنك، فبحظك أخذت في تركك قتالنا، وكفك عنا، ولزوم بيتك ولكن أخرج إلينا ماعندك، قال: واللّه ماعندي مال، فنتفوا لحيته، وضربوه ضربات ثم أخذوا كل ما وجدوه في بيته حتى الصواع، وحتى زوج حمام كان له.

وكان جابر بن عبد اللّه يومئذٍ قد ذهب بصره فجعل يمشي في بعض أزقّة المدينة، وهو يقول: تعس من أخاف اللّه ورسوله، فقال له رجل: ومن أخاف اللّه ورسوله؟

---

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة الدينوري ٢١٢ - ٢١٣ .

فقال: سمعت رسول اللّه(ص) يقول: من أخاف المدينة فقد أخاف مابين جنبيّ، فحمل عليه رجل بالسيف ليقتله، فترامى عليه مروان فأجاره[١].

(ثم أمر مسلم بالأسارى، فغُلّوا بالحديد، ثم دعا إلى بيعة يزيد، فكان أول من بايع مروان بن الحكم، ثم أكابر بني أمية، حتى أتى على آخرهم ثم دعا بني اسد، وكان عليهم حنقاً، فقال: أتبايعون لعبد اللّه يزيد بن معاوية أمير المؤمنين ولمن استخلف عليكم بعده، على أن أموالكم ودماءكم وأنفسكم خول له، يقضي فيها ماشاء، فقال يزيد بن عبد اللّه بن زمعة: إنما نحن نفر من المسلمين لنا مالهم وعلينا ماعليهم، فقال مسلم: واللّه لا أقبلك، ولا تشرب البارد بعدها أبداً، فأمر به فضربت عنقه، ثم أتى بمعقل بن سنان، وكان معقل حاملاً لواء قومه يوم الفتح مع رسول اللّه(ص)، فلما دخل قال له: أعطشت يامعقل؟ قال: نعم اصلح اللّه الأمير، قال: حيّسوا له شربة من سويق اللوز الذي زودنا به أمير المؤمنين فلما شربها قال له: رويت؟ قال: نعم. فقال مسلم: أما واللّه لاتبولها من مثانتك أبداً، فقدم فضرب عنقه، ثم قال: ماكنت لأدعك بعد كلام سمعته منك تطعن به على إمامك، وكان معقل قد طعن بعض الطعن على يزيد قبل ذلك فيما بينه وبين مسلم، على الإستراحة بذلك، ثم أمر بمحمد بن أبي الجهم، وجماعة من وجوه قريش والأنصار، وخيار الناس والصحابة والتابعين)[٢].

قال أبو معشر: دخل رجل من أهل الشام على امرأة من نساء الأنصار ومعها صبي لها، فقال لها: هل من مال؟ قالت: لا، واللّه ماتركوا لي شيئاً، فقال: واللّه لتخرجنّ إليّ شيئاً أو لأقتلنّك وصبيّك هذا، فقالت له: ويحك إنه ولد ابن أبي كبشة الأنصاري صاحب رسول اللّه(ص)، ولقد بايعت رسول اللّه(ص) معه يوم بيعة الشجرة، على أن لا أزني، ولا اسرق، ولا أقتل ولدي، ولا آتي ببهتان افتريه، فما أتيت شيئاً، فاتق اللّه. ثم قالت لابنها: يابني واللّه لو كان عندي شيء

---

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة الدينوري ٢١٣ - ٢١٤ .

(٢) نفس المصدر ٢١٤ .

لافتديتك به، قال: فاخذ برجل الصبي[١]، فجذبه من حجرها، فضرب به الحائط فانتشر دماغه في الأرض، قال: فلم يخرج من البيت حتى اسود نصف وجهه، وصار مثلاً[٢].

وقفة مع عبد الله بن عمر

روى البخاري، عن أيوب، عن نافع قال: لما خلع أهل المدنة يزيد بن معاوية جمع ابن عمر (أي عبد الله بن عمر) حشمه وولده فقال: إني سمعت النبي(ص) يقول: (ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة) وإنا قد بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله وإني لا أعلم غدراً أعظم من أن يبايع رجل على بيع الله ورسوله ثم ينصب له القتال، وإني لا أعلم أحداً منكم خلعه ولا بايع[٣] في هذا الأمر إلا كانت الفيصل بيني وبينه[٤].

وكان ابن عمر قد امتنع أولاً عندما رشّح معاوية ابنه يزيد لولاية العهد عن البيعة وقال: إنه لايبايع لأميرين في وقت واحد[٥].

وهو جواب ضعيف وموقفه أضعف منه فان معاوية لم يطلب منه أن يبايع يزيد أميراً وانما طلب منه أن يبايعه ولياً للعهد.

ولم يكن عبد الله ليملك القوة والجرأة الكافية التي تمكنه من اتخاذ موقف قوي تجاه البيعة ليزيد فقد كان أمر يزيد في فسقه وشربه أشهر من أن يخفى على أحد، وكان أولى بابن عمر أن يردّ معاوية عن هذا الأمر ويعلن امتناعه عن البيعة ليزيد بما يعرفه فيه عامة الناس من فسوق وفجور.

الا أن ابن عمر لم يكن يملك هذه الجرأة والشجاعة، ولم يكن يريد أن يسرع

---

(١) قد يكون الصبي من بعض أحفادها لتستقيم الرواية.
(٢) الإمامة والسياسة لابن قتيبة الدينوري ٢١٤ .
(٣) قرأه الأكثر (ولا تابع في ذلك) وهو أقرب الى مضمون الرواية.
(٤) صحيح البخاري ٤ / ١٨٨، ط مصر ١٢٨٦هـ .
(٥) فتح الباري ١٣ / ٦٠ .

في البيعة قبل غيره من رجال المسلمين، فاعتذر لمعاوية بهذا الجواب الضعيف. فأرسل اليه معاوية بمائة ألف درهم فاخذها فدسّ اليه رجلاً فقال له: مايمنعك أن تبايع؟

فقال: إن ذاك لذاك (يعني عطاء ذلك المال لأجل المبايعة) إن ديني عندي إذن لرخيص(١).

ولم يرو لنا التأريخ انه ردّ المال أو أنكر على معاوية هذا الاسلوب الملتوي الماكر في أخذ البيعة ليزيد، ولم يزد عبد الله على أن قال بعد أن ادرك المؤامرة: إن ديني عندي إذن لرخيص(٢).

(فلما مات معاوية كتب ابن عمر إلى يزيد ببيعته)(٣).

ثم ما بال ابن عمر الذي عجز أن يتخذ موقفاً قوياً من يزيد بن معاوية في حياة معاوية وبعد وفاة معاوية.. يتخذ هذا الموقف القوي الحاسم من الخارجين على يزيد بن معاوية من المهاجرين والأنصار ومن أبناء المهاجرين والأنصار، وفيهم الصالحون المقيمون للصلاة الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر.. فيعلن موقفه السلبي من الخروج على يزيد بهذه الصورة الحاسمة: (وأني لا أعلم أحداً منكم خلعه، ولا بايع في هذا الأمر إلا كانت الفيصل بيني وبينه) والفيصل هنا البراءة الكاملة، ألم يكن يزيد أولى بهذه البراءة والفيصل من أبناء المهاجرين والأنصار ومنهم عبد الله بن حنظلة غسيل الملائكة رحمه الله وخيار التابعين وعامة المسلمين من حرم رسول الله(ص)؟

ولم ينقل لنا التأريخ أن عبد الله بن عمر غيّر رأيه في يزيد حتى بعد مجزرة الحرّة الرهيبة التي أمر فيها يزيد باباحة حرم رسول الله(ص) ثلاثاً فقتل فيها (حنظلة وأباح مسلم بن عقبة المدينة ثلاثاً، فقتل جماعة من بقايا المهاجرين والأنصار وخيار التابعين وهم ألف وسبعمائة، وقتل من أخلاط الناس عشرة آلاف سوى النساء

(١) فتح الباري ١٣ / ٦٠ .
(٢) نفس المصدر.
(٣) نفس المصدر.

والصبيان وقتل بها جماعة من حملة القرآن، وقتل جماعة صبراً منهم معقل بن سنان ومحمد بن أبي الجهم بن حذيفة، وجالت الخيل في مسجد رسول اللّه(ص)، وبايع الباقون كرهاً على أنهم خول ليزيد)[١].

كل ذلك ومن قبله جريمة يزيد في قتال ريحانة رسول اللّه الحسين(ع) لم يزحزح شيئاً من ولاء عبد اللّه بن عمر ليزيد وبراءته من الخارجين عليه، وبقي الفيصل بينه وبين الخارجين على يزيد.

وإليك هذا النص الذي يرويه مسلم لتعلم أن عبد اللّه بن عمر لم يغيّر رأيه من البيعة ليزيد حتى بعد وقعة الحرّة الأليمة وبعد استشهاد سيد الشهداء الحسين(ع) على يد بني أمية في خلافة يزيد: وروى مسلم، عن زيد بن محمد، عن نافع قال: جاء عبد اللّه بن عمر إلى عبد اللّه بن مطيع[٢]، حين كان من أمر الحرّة ما كان زمن يزيد بن معاوية، فقال: إطرحوا لأبي عبد الرحمن وسادة، فقال: إني لم آتك لأجلس، أتيتك لأحدثك حديثاً، سمعت رسول اللّه(ص) يقول: من خلع يداً من طاعة لقي اللّه يوم القيامة لا حجّة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتةً جاهلية[٣].

ثم أليس عبد اللّه بن عمر، هو الذي يروي فيما يروي عن البخاري في كتابه الصحيح عن النبي(ص): (السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحبّ وكره مالم يؤمر بمعصية فاذا أُمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة)[٤].

وهل يشك عبد اللّه بن عمر في أن يزيد بن معاوية كان يعصي اللّه تعالى في أكبر ما حرّمه اللّه تعالى وينتهك حرمات اللّه.

أما نحن فمهما شككنا في شيء فلا نشك أن عبد اللّه بن عمر كان يعرف

---

(١) إرشاد الساري للقسطلاني ١٠ / ١٩٩ .

(٢) كان عبد الله بن مطيع على قريش يوم الحرة وقد فرّ واختبأ عند امرأة في رفّ لها وجرت له قصة وهو الذي يقول: أنا الذي فررت يوم الحرة. تهذيب التهذيب ٦ / ٣٦. وراجع العقد الفريد ٥ / ١٣٨.

(٣) صحيح مسلم ٦ / ٢٢، كتاب الإمارة باب الأمر بلزوم الجماعة، دار الفكر بيروت .

(٤) صحيح البخاري ٤ / ١٩١، ط مصر ١٢٨٦ هـ .

جيداً أن يزيد فاسق، فاجر، منتهك لحرمات اللّه، يأمر بالمحرمات وينهى عن المعروف، ويقتل النفوس المؤمنة البريئة، ويتجاوز حدود اله من غير تردد ولا حرج. فكيف يريد أن يوفّق عبد اللّه بن عمر - ياترى - بين رأيه هذا الذي يريد أن يبرر به موقفه الضعيف من بيعة يزيد وبين حديث رسول اللّه(ص) والذي يرويه هو بنفسه؟

إن من حقّنا أن نسمح لأنفسنا بالشك في موقف عبد اللّه بن عمر الجريء الحاسم الأخير، وفي موقفه الإستسلامي قبله من البيعة ليزيد بعد وفاة معاوية من دون اعتراض أو تردد، وفي موقفه الضعيف الأول من قبول هدية معاوية والإعتذار اليه بأنه لايريد أن يبايع لأميرين في وقت واحد.

وإن من حقنا أن نحتمل أن معاوية قد استطاع أن يستغل ضعف عبد اللّه اسوأ استغلال ويليّن عوده للبيعة ليزيد ويروّضه على ذلك بأساليبه الماكره الملتوية المعروفة، والتي لم تخف حتى على عبد اللّه بن عمر نفسه، بما عرف من بساطة وسذاجة في المسائل السياسية حتى قال: (إن ذاك لذاك، إن ديني عندي إذن لرخيص).

وأعجب من هذا وذاك رأي حملة العلم والسنّة النبوية من بعد عبد اللّه بن عمر... فقد يكون لعبد اللّه بن عمر عذر - في ظروفه السياسية الصعبة - أن يحمل هذا الرأي ويعلن عنه في ولائه ليزيد بن معاوية وبراءته من الخارجين عليه، ولكن ما عذر ابن حجر العسقلاني ونظرائه من لعلماء وحملة السنة النبوية أن يفرضوا هذا الموقف الاستسلامي الضعيف على السنة النبوية المطهّرة الآمرة بالمعروف والناهية عن السكوت عن الظالمين.

يقول ابن حجر العسقلاني في شرح هذه الرواية: (وفي هذا الحديث وجوب لطاعة الإمام الذي انعقدت له البيعة والمنع من الخروج عليه، ولو جار في حكمه وأنه لاينخلع بالفسق)[1].

(١) فتح الباري ١٣ / ٦١ .

إن شيئاً من ذلك ليس من الإسلام قط، وليس من روح الإسلام وأصوله وتعاليمه ان يسمح بمثل هذا الرضوخ للظلم والاستسلام لحاكم فاسق من مثل يزيد.

ورحم اللّه عبد اللّه بن حنظلة الغسيل حيث كان يقول: (واللّه ماخرجنا على يزيد حتى خفنا أن نُرمى بالحجارة من السماء، رجل ينكح الأمهات والبنات والأخوات، ويشرب الخمر، ويدع الصلاة، ويقتل أولاد النبيين)[1].

ان الإسلام في الوقت الذي يأمر بالطاعة والتسليم للّه ولرسوله ولأولياء الأمور يحذّر من الطاعة والتسليم في معصية اللّه ولمن يأمر بالمعصية، وتسقط الطاعة للعصاة وتتحول إلى ذنب يستحق عليه صاحبه العقاب.

والحديث التالي الذي يرويه البخاري عن الإمام علي بن ابي طالب(ع) عن رسول اللّه يكشف بوضوح عن هذا الاتجاه وأصالته في السنّة النبوية، روى البخاري في كتابه الصحيح، عن أبي عبد الرحمن، عن عليّ(رض) قال: بعث النبي(ص) سرية وأمّر عليها رجلاً من الألصار وأمرهم أن يطيعوه، فغضب عليهم، وقال: أليس قد أمر النبي(ص) أن تطيعوني؟ قالوا: بلى، قال: عزمت عليكم لما جمعتم حطباً وأوقدتم ناراً ثم دخلتم فيها فجمعوا حطباً فأوقدوها، فلما همّوا بالدخول فقام ينظر بعضهم إلى بعض، فقال بعضهم: إنما اتبّعنا النبي(ص) فراراً من النار، افندخلها؟ فبينما هم كذلك اذ خمدت النار، وسكن غضبه، فذكر للنبي(ص)، فقال: «لو دخلوها ماخرجوا منها أبداً، إنما الطاعة في المعروف»[2].



(١) تذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي، ص ٢٥٩، ط مؤسسة أهل البيت ١٤٠١هـ ، وبرواية أحمد بن عبد ربه في العقد الفريد ٥ / ١٢٦، لما قدم عبد الله بن حنظلة المدينة (من الشام في وفد الى يزيد) اتاه الناس فقالوا ما وراءك قال: أتيتكم من عند رجل والله لو لم أجد إلا بنيّ هؤلاء لجاهدته بهم. قالوا: فإنه قد بلغنا إنه أكرمك وأجازك وأعطاك. قال: قد فعل وما قبلت ذلك منه الا أن أتقوى به عليه.

(٢) صحيح البخاري ٤ / ١٩١، ط مصر ١٢٨٦هـ كتاب الأحكام باب السمع والطاعة مالم تكن معصية.

- ١٠ -

خلاصة عن نتائج خلافة بني أمية



خلاصة عن نتائج خلافة بني أمية

استعرضنا إلى هنا نماذج وصوراً من أعمال بني أمية في فترة ولايتهم على المسلمين، ووجدنا عمق التخريب والتحريف الذي جرى في جهاز الخلافة الاسلامية وفي مساحة العالم الاسلامي على أيدي الحكام من بني أمية في هذه الفترة.

وبعض هذا يكفي لكي نعرف عمق المأساة التي حلّت بالمسلمين بعودة هذه الأسرة العريقة في الجاهلية إلى موقع القيادة ومركز الولاية في المجتمع الإسلامي، بعد ان انتزع منهم الإسلام مواقعهم ونفوذهم وسلطانهم.

وفميا يلي نستعرض خلاصة عن نتائج هذه الفترة العسيرة من تاريخ المسلمين في النقاط التالية:

١ - عودة القيادات والشخصيات الجاهلية إلى مراكز النفوذ والسلطان في المجتمع الإسلامي، بعد أن حاربوا الإسلام طويلاً وأقصاهم الإسلام عن مراكزهم في المجتمع واستبدل بهم أُناساً آخرين من المؤمنين الأشداء في ذات اللّه من أمثال: أبي ذر وعمار وبلال.

وقد كان بنو أمية يحرصون كل الحرص على استعادة أمجادهم ومواقعهم ونفوذهم في الإسلام كالتي كانوا يملكون في الجاهلية. وسمعنا نصيحة أبي سفيان لعثمان بن عفان (أدرها كالكرة واجعل أوتادها بني أمية فإنما هو الملك، ولا أدري ماجنّة ولا نار) فصاح به عثمان وزجره.

وقد تولت في هذه الفترة من تاريخ الإسلام فئة مُترفة، بعيدة كل البعد عن روح الإسلام من بني أمية وغيرهم، طغوا في البلاد واشاعوا فيها الفساد، من أمثال مروان بن الحكم - الذي صحّ عن رسول اللّه(ص) لعنه - ومعاوية ويزيد ابن معاوية والحجاج بن يوسف الثقفي وغيرهم. وقد كان لوجود هذه الطبقة في مراكز النفوذ والحكم أثر بليغ في إفساد المجتمع الإسلامي واشاعة الظلم والفساد وانحلال المجتمع. وترى مايؤول اليه أمر هذا المجتمع الناشئ عندما يتولى حماية الإسلام والقيم الإسلامية فيه ذات الطبقة التي كانت تحارب الإسلام من قبل وتعلن في وجهه العداء، أو امتداد هذه الطبقة.

٢ - تحريف الفكر الإسلامي عن طريق وضع الحديث واستخدام (الحديث الموضوع) في تغيير المفاهيم والأفكار والتصورات والقيم الإسلامية، واختلاق المناقب والفضائل للخط الذي تتبناه السلطة، اختلاق المثالب للخط الذي تعاديه السلطة.. وهكذا امتد الوضع إلى كل القضايا والشؤون والفكر والأشخاص، وأصبحت ظاهرة الوضع ظاهرة خطرة تهدد وجود الإسلام تهديداً حقيقياً. وقد لاحظنا كيف اتّسعت رقعة الوضع في أيام بني أمية، وكيف كان حكام بني أمية ابتداءً من معاوية يعملون على تشجيع وضع الحديث على لسان رسول اللّه(ص).

وقد طغى الوضع طغياناً واسعاً وكبيراً وامتد حتى إلى آفاق التوحيد والنبوّة ويطول بنا الحديث لو أردنا ان نستقصي التصورات والأفكار المنحرفة التي دخلت في الإسلام على يد بني أمية عن طريق انتحال الحديث.

٣ - وبدأ الإلحاد يشيع في الحواضر الإسلامية نتيجة ضعف وتفكك التوجيه الديني وشيوع الفساد في المجتمع، وقد كان في اعماق نفوس بني أمية ميل إلى هذه الظاهرة، ظاهرة الإلحاد تبرز على السنتهم تارة وتختفي تارة أخرى. وعدا ما سمعنا من كلمات معاوية وابنه يزيد يروي المؤرخون أن الوليد ومروان بن محمد كانا لايخفيان ميلهما إلى الإلحاد وكانت هذه الظاهرة تبرز على أحاديثهما بين فترة[1] وأخرى.

(١) الفهرست لابن النديم ٤٧٢ .

وقد أحاطت بحكام بني أمية طائفة من أصحاب الميول الإلحادية نذكر منهم على سبيل المثال: مطيع بن إياس الشاعر الخليع المعروف الذي مدح عمر بن يزيد بن عبد الملك فأجازه بعشرة الاف، وقدّمه لأخيه الوليد فانقطع اليه.

ويجد القارئ تفصيل أخباره في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني.

وقد تفاقمت هذه الظاهرة فيما بعد - ايام بني العباس - حتى بلغت ايام المهدي العباسي ذروتها وشعرت الدولة العباسية بالخطر يهدد كيانها وعملت على مكافحتها، والقضاء عليها، وملاحقة اصحابها.

٤ - النيل من رسول اللّه(ص) والإنتقاص من مكانة النبوّة حتى كان القائل يقول: ان خليفة أحدكم خير من رسوله! مشيراً إلى ان الخليفة أفضل من رسول اللّه(ص) وكان الحجاج بن يوسف يؤاخذ المسلمين على زيارة قبر رسول اللّه(ص) ويطلب منهم ان يستبدلوا زيارة قصر الخليفة في الشام بزيارة المرقد النبوي الشريف والطواف حوله.

وقد عمل خلفاء بني أمية كثيراً في الإنتقاص من مكانة رسول اللّه(ص) والنيل من قدسيته في نفوس المسلمين، وكان معاوية وابنه يزيد ينظران إلى رسول اللّه(ص) من زاوية الخلاف التاريخي القديم بين هاشم وامية، ولم يتمكّنا أن يتخلصا حتى آخر ايامهما من رواسب هذا الخلاف العائلي بين هذين الفخذين من قريش.

٥ - محاربة خط أهل البيت(ع).

وهو الخط الأصيل في الأمة الذي جعله رسول اللّه(ص) ردفاً للقرآن في حديث الثقلين المعروف الذي يرويه (مسلم) وجمع غفير من المحدثين من الشيعة والسنة.

وقد تفنّن بنو أمية في محاربة أهل البيت(ع) والتضييق عليهم وعلى شيعتهم، ومحاصرتهم اقتصادياً وتطويقهم بالعيون والمراقبة الدقيقة، وشل حركتهم في المجتمع وقتلهم وسجنهم ومطاردتهم والتنكيل بهم بكل الوسائل.

٦ - ترويض الأمة، وقد استخدم بنو أمية وسائل كثيرة لتطويع الأمة

وإخضاعها وسلب ارادتها، ليتمكّن الجهاز الحاكم من حكم الناس بالشكل الذي يريد من غير أن يواجه عصياناً، أو خروجاً على الطاعة. ونعتقد أن أعمال بني أمية في هذه النقطة كانت تصدر عن مخطط سياسي دقيق ولم تكن أعمالاً عفوية غير موجهة.

ومن هذه الوسائل التي استخدمها بنو أمية لترويض الأمة للسمع والطاعة والإنقياد المطلق: إذلال الأمة، وقد قرأنا فصلاً عن وسائل بني أمية في إذلال المسلمين والختم على أيديهم كما يختمون على أيدي العبيد، وإرغامهم على الإعتراف بأنهم خول وعبيد للخليفة، كما حدث بالنسبة إلى أهل المدينة بعد مجزرة الحرّة.

ومن هذه الوسائل: الإرهاب والبطش وإشاعة الخوف والرعب فيما بين الأمة لشلّ حركتها وتعطيل دورها وفعاليتها. وقد كان الحكام الأمويون يحرصون على توظيف الارهابيين من أمثال زياد بن أبيه والحجاج وبُسر بن أرطأة وغيرهم في أعمالهم وعلى الولايات للقضاء على الخارجين على الطاعة والمعارضة السياسية وبشكل خاص شيعة أهل البيت(ع). وقد ذكرنا جملة من الشواهد والنماذج على ذلك في هذه الدراسة.

ومن هذه الوسائل تبنّي المرجئة الجبرية، وتكريس فكرة الجبر والحتمية وسلب حرية الإرادة عن الإنسان، وقد كان لهذا التوجه الفكري أسوأ الأثر في المجتمع الإسلامي في هذه الفترة، واستفاد حكام بني أمية من هذا الاتجاه الفكري كثيراً في ترويض الناس وتطويعهم، وفي القضاء على حركات التحرر والثورة التي كانت تبرز بين حين وآخر هنا وهناك، وعلى العموم كان بنو أمية يحرصون على تبيين وإشاعة هذا الإتجاه الفكري، ويجد القارئ نماذج كثيرة من دفاعهم وتبنيهم لهذا الرأي وأصحابه في الموسوعات التاريخية.

٧ - القضاء على مراكز المقاومة والوعي في العالم الإسلامي والتضييق على هذه المراكز والبطش بها، وإفسادها والنيل من قدسيتها كالحرمين الشريفين، مكة والمدينة، وكذلك الكوفة، وقد استعرضنا بشيء من التفصيل أعمال بني أمية

التخريبية في مكة والمدينة والكوفة، والكوارث التي حلت بهذه البلاد وأهلها على يد حكام بني أمية.. وكيف كان يزيد يسمّي المدينة المنورة بالخبيثة في مقابل تسمية رسول اللّه(ص) لها بالطيّبة.

وقد كان حكام بني أمية يستعملون أساليب كثيرة للقضاء على هذه المراكز التي كانت تضم أبناء المهاجرين والأنصار والتابعين وخيار المسلمين وشيعة أهل البيت، كالارهاب والتخريب، والمجازر الواسعة، والنيل من قدسيتها، وإشاعة الفساد فيها.. كل ذلك ليطمئنوا على دولتهم من ناحية المعارضة التي كانت تنطلق وتخرج من هذه البلاد.

٨ - اثارة النعرة القومية فيما بين المسلمين والتمييز فيما بين المسلمين العرب وغير العرب من الموالي، ومحاولة طرد المسلمين من غير العرب من الساحة السياسية بل من حواضر العالم الإسلامي أحياناً، كما حدث في عهد معاوية والحجاج، وعدم الإعتراف بإسلامهم لئلا تسقط عنهم الجزية.

وقد قرأنا رأي معاوية للأحنف بن قيس وسمرة بن جندب عن المسلمين من غير العرب: (اني رأيت هذه الحمراء (يعني الموالي) قد كثرت وأراها قد طغت على السلف وكأني أنظر إلى وثبة منهم على العرب والسلطان، فقد رأيت أن أقتل شطراً وأدع شطراً لإقامة السوق وعمارة الطريق).

وكانوا يقولون: لايقطع الصلاة الا ثلاثة كلب أو حمار أو مولى.

ولم يقتصر إفساد بني أمية بهذا الصدد في هذه المساحة فقط، فقد حاولوا اثارة الخلاف بين القبائل العربية، وبين أبناء الأنصار وأبناء المهاجرين وتقريب فئة المسلمين وإقصاء فئة أخرى.. والحديث يطول في هذا المجال وقد ذكرنا نماذج من هذه الأعمال في الفصول السابقة.

٩ - الإفساد المالي: استخدم بنو أمية بيت المال لتنفيذ أهدافهم السياسيه بشكل واسع، فوسّعوا على جماعة إلى حد التبذير، وضيقوا على جماعة إلى حد التقتير، وسّعوا على أهل الشام لولائهم لبني أمية، وضيّقواعلى أهل العراق لرأيهم في بني أمية، وأجازوا من يريدون كسب ولائه للمحور الحاكم ومنعوا عطاء من

يشكّون في ولائه وموقفه ورأيه في بني أمية من المعارضة وقادتها. وكانوا يرون أن هذا المال مال اللّه وأنهم خلفاء اللّه في أرضه يحق لهم أن يضعوا هذا المال أينما يريدون، وأسرفوا اسرافاً قبيحاً في صرف المال في لهوهم ومجونهم وفي جوائز الشعراء الذين كانوا يتملّقون إلى الحكام من بني أمية.

وقد أثّرت هذه السياسة المالية تأثيراً بليغاً في الوضع الإقتصادي العام للمنطقة الإسلامية، واضطرّ الخلفاء إلى الضغط على عمّالهم، والعمال إلى الضغط على المسلمين في جباية الأموال الضرائب، وهكذا تدهورت الحالة الإقتصادية إلى حالة سيئة والحالة السياسية إلى أسوأ.

١ - افساد المجتمع بإشاعة اللّهو والطرب والغناء والشرب وما يتصل بذلك من ألوان المنكرات.

وكان أقبح مافي هذه السياسة أن هذه المنكرات كانت تنحدر من قصر الخلافة وقصور الحكام والولاة إلى الشارع، ولم تكن تصعد من الشارع إلى قصور الخلفاء والحكام.

فكان الخلفاء يضربون أسوأ المثل للمسلمين في هذا المجال، وبلغ الأمر في شيوع اللّهو والغناء والسكر والمجون حداً يتحرّج الانسان من ذكر جملة واسعة من نماذجها. ودونكم الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني الأموي سجلاً حافلاً بمجون الخلفاء من بني أمية وسكرهم ولهوهم وابتذالهم.




- ١١ -

الامام الحسن(ع) والخيار الصعب



الإمام الحسن(ع) والخيار الصعب

قدمنا فيما مضى صورة مصغرة عن الفترة التي حكم فيها بنو أميه المجتمع الاسلامي، وما أدخلوا في هذه الفترة من الإنحراف والفساد عليه.

وكان أخطر ما في هذا الأمر: أن الانحراف يجري في المجتمع الإسلامي ويصدر من موقع الشرعية، فقد استطاع معاوية، خلال هذه الفترة بأساليبه الخاصة أن يفرض نفوذه على المجتمع من خلال موقع الخلافة الإسلامية، كما استطاع ان يروّض الناس للطاعة والإنقياد، وأن يدخل ما أدخل إلى هذا المجتمع من الفساد والتحريف من خلال هذا الموقع.

كما استطاع أن يرغم الكثيرين، ممن كانوا يعارضون سلطانه وحكمه على قبول الأمر الواقع في ولايته وولاية ابنه يزيد من بعده.

وفي مثل هذه الحالة عندما يكون النظام مسيطراً على الساحة سيطرة تامة، ويتمتع بالشرعية.. فإن اي انحراف في هذا النظام لايقتصر مفعوله على المجتمع الإسلامي والساحة السياسية والإجتماعيه الاسلامية، وإنما يتجاوزه إلى الإسلام فكراً وفقهاً وعقيدةً وهذا ماحدث بالضبط.

فقد ورث معاوية من الخلفاء السابقين عليه ميراث الشرعية في الحكم ونصب نفسه أميراً للمؤمنين، وأعدّ لهذه الشرعية ماتتطلبه من تأييد الصحابة والتابعين ورجال المسلمين، وكان معاوية يعرف جيداً أن سلطانه لم يكتسب شرعية خلافة

رسول اللّه(ص) في نظر المسلمين، فلا يستطيع أن يدوم ولا يقوى على مواجهة التحديات والصعوبات التي تواجهه من قبل المعارضين لسلطانه.

ولذلك فقد حرص حرصاً شديداً على توفير الشرعية بكل متطلباتها لسلطانه. وقد رأينا حرصه في سابق هذا الحديث، على استقطاب وإغراء من يمكن إغراؤه من الصحابة والتابعين بالمال والسلطان لتأييد حكمه وسلطانه، ووجدنا أنه لم يكن يتحرّج من انتحال الحديث على رسول اللّه(ص) إذا كان تثبيت دعائم حكمه وسلطانه يتوقف على انتحال الحديث.

وقد أفلح معاوية إلى درجة كبيرة في تطويع الرأي العام لقبول هذه الشرعية والرضوخ لها.

وعمل ثانياً لإسكات المعارضة وارغامها على السكوت والتخلّي عن الخلاف والمعارضة بالإرهاب غالباً - وهو السلاح الذي كان يستعمله معاوية كثيراً مع هذه المجموعات - وبالاغراء أحياناً... وكان كل ذلك يجري وفق مخطط دقيق ينفّذه معاوية بدهائه المعروف من غير ان يثير لغطاً او صخباً كثيراً في الشارع.

وبذلك عزل معاوية المعارضة عن الساحة، وهي تكوّن مساحة بشرية واسعة يومذاك وارغمها على السكوت وإيثار العافية والإبتعاد عن الأجواء السياسية... ولم نسمع خلال هذه الفترة التي أعقبت هدنة الإمام الحسن(ع) مع معاوية صوتاً للمعارضة يرتفع في الساحة الإسلامية إلا ماشذّ وندر بين حين وآخر.

وكان علينا أن نذكر حقيقة أن المعارضة لم تنحلّ ولم تبدّل رأيها في معاوية وخلافة بني أمية، ولكنها خلدت إلى عزلة كاملة عن الساحة وما يجري فيها من بدع ومنكرات لم يألفها المسلمون حتى ذلك اليوم وآثرت السكوت والعافية.

وبذلك فقد خلت الساحة لمعاوية ولم يبق في المنطقة الاسلامية يومذاك سلطان لأحد إلا سلطان بني أمية المطلق، والذي كان يتمتع بشرعية الحكم والخلافة.

وهذه الحالة مكّنت بني أميّة من تسريب كل الإنحرافات التي كانوا يحملونها والتي أشرنا إلى بعضها في هذا الحديث إلى الإسلام في الصميم وإلى صلب

العقيدة والشريعة، وكادت تمكّنهم بذلك من تحريف رسالة اللّه وتضييع مواريث الأنبياء والمرسلين.

الحسنان يلغيان الشرعية الأموية

فلم يعد أمر هذا الخطر الذي دهم المسلمين يقتصر على الساحة الاسلامية فقط وانما كان يهدد الإسلام ايضاً. ولو كان الأمر يمضي على هذه الطريقة إلى نهاية العهد الأموي، بما رأينا من الانحرافات القبيحة التي جرت على أيدي الخلفاء - ولا نستثني منهم أحداً غير عمر بن عبد العزيز - لانقلب الإسلام إلى شيء آخر غير ما أنزله اللّه تعالى على رسوله(ص) ولانقلبت هذه المحنة إلى كارثة على الإسلام والمسلمين معاً.

وهذا ما أحسّ به ريحانتا رسول اللّه(ص) وولداه الحسن والحسين(ع) اللذان قدر اللّه تعالى لهما أن يعايشا مرارة ظروف هذه الردة بما استتبعت من انحراف وفساد وتخريب في صفوف المسلمين.

فقد لمس الحسنان(ع) عن كثب ضخامة هذا الإنحراف، وعرفا ما يؤول اليه هذا الإنحراف من انحرافات أخرى أعمق وأكثر في كل شؤون الحياة، وشاهدا عودة الجاهلية إلى الحياة الإسلامية بأبعادها المختلفة، وعرف سبطا رسول اللّه(ص) أن هذه الجاهلية سوف تنعكس على الإسلام وتشوّه معالمه وأصوله ورؤاه وتصوراته وطريقته وأخلاقه.

لقد عايش الحسن والحسين(ع) هذه الفترة المظلمة والصعبة من تاريخ الإسلام بعد شهادة أبيهما الإمام أمير المؤمنين(ع) بكل سلبياتها، وتبعاتها السيئة على الإسلام والمسلمين، وكانا يشعران بمرارة بعمق المأساة، ويشعران بعمق الخطر الذي يهدد الإسلام وبضرورة العمل لإنقاذ الرسالة من هذا الخطر، وايقاظ ضمير الأمة، وإيجاد حركة في وسط الأمة لوعي الخطر ومواجهته.

وقد شاء اللّه تعالى أن يتشاطر ابنا رسول اللّه(ص) الحسن والحسين هذا العمل الجبار في مرحلتين ودورين مختلفين، ينهض الإمام الحسن(ع) بالدور الأول

وينهض الإمام الحسين(ع) بالدور الثاني، فيتمخّض عن هذا وذاك إبطال شرعية الخلافة الأموية، وكسر الإطار الشرعي الذي كان يمكّن حكام بني أمية من إدخال التحريفات التي كانوا يمارسونها من داخل قصورهم وعلى أيدي عمّالهم وقضاتهم إلى الإسلام، واعادة الضمير والإرادة المسلوبين إلى الأمة من جديد.

لقد عايش الحسن والحسين(ع) محنة هذه الردة الجاهلية في ظرفين مختلفين تماماً من الناحية السياسية والعسكرية.

فقد تولى الإمام الحسن(ع) الإمامة ومسؤولية مواجهة الفتنة الأموية بعد شهادة أبيه(ع) في ظروف مواجهة عسكرية مع معاوية، حيث كان الإمام الحسن(ع) يقود جيش العراق لمواجهة جيش الشام، بينما لم يكن الحسين(ع) في مثل هذا الموقع العسكري والسياسي، وانما كان خروج الإمام الحسين على يزيد يعتبر إقداماً على تضحية مؤثرة ومأساوية لتحريك ضمير الأمة وإيجاد هزّة قوية في وجدانها.

وفرق كبير بين ظرف الحسن(ع) ومتطلبات هذا الظرف، وظرف الإمام الحسين(ع) ومتطلباته في مواجهة الفتنة.

لم يتمكن الإمام أمير المؤمنين(ع) في حياته أن يجتث الفتنة من جذورها، ولقيَ مصرعه على يد عبد الرحمن بن ملجم الخارجي والفتنة قائمة، وتولى من بعده ابنه الحسن الزكي(ع) إمامة المسلمين في ظروف صعبة وحرجة.

وكان تقدير الإمام للظروف السياسية والعسكرية التي تولّى فيها إمامة المسلمين من جانبه وفي مواجهة بني أمية هو خسارة المعركة ووقوع الهزيمة في جيش العراق الذي كان يقوده وخروج معاوية منتصراً من هذه الحرب، وكان تقدير الإمام لهذه النتيجة تقدراً موضوعياً ودقيقاً. وكان الإمام(ع) يقدّر أيضاً ان معاوية سوف يستثمر فرصة انتصاره على جيش العراق في استئصال كل من يعارض سلطانه وحكمه من شيعة الإمام، ويلاحقهم ويقوم بتصفية واسعة لهم حتى تخلُص له الساحة من كل خط سياسي وفكري معارض.

ولذلك كان الإمام الحسن(ع) مهتماً بتفويت هذه الفرصة على معاوية حتى يقلل مساحة الخسارة قدر الإمكان، ولا يعطي لابن ابي سفيان الفرصة التي يطلبها

في تصفية شيعة الإمام لتخلص له الساحة.

كان الإمام يقدّر أن المرحلة القادمة لبني أمية على كل حال، ولا يمكن حسب التقادير السياسية والعسكرية المفهومة الحيلولة دون هذه النتيجة.

فلابد إذن أن لايعطي الإمام(ع) لمعاوية فرصة الإجهاز الكامل على شيعة الإمام، الذين كانوا يمثلون الخط الإسلامي السليم يومذاك، والذين كانوا يحملون لواء المعارضة لسياسة بني أمية وسلطانهم، لتبقى هذه العصابة المؤمنة والسائرة على خط أهل البيت محتفظةً بخط الإسلام الصحيح في خضم الفتنة التي أوجدها بنو أمية في المجتمع الإسلامي يومذاك.

تلك كانت غاية الإمام الحسن، بعد تقدير دقيق وموضوعي لنتيجة الحرب مع معاوية، ولذلك فقد آثر الامام(ع) أن يهادن معاوية ويوقف القتال، للإبقاء على شيعته.

ونحن لانستطيع أن نفهم فهماً دقيقاً قرارا الإمام الحسن(ع) والدور الصعب الذي نهض به الإمام(ع) يومذاك، رغم كل مرارته على نفسه وعلى شيعته الا من خلال هذا التحليل.

ولكي نستطيع ان ننتهي إلى نتائج دقيقة في هذا البحث لابد لنا أولاً: أن نتأمل في الظروف السياسية والعسكرية الصعبة التي رافقت إمامة الإمام الحسن(ع) بعد أبيه أمير المؤمنين.

وثانياً: نتأمل فيما كان يمكن أن يختار الإمام(ع) من الخيارات الصعبة التي كان يواجهها في تلك الظروف السياسية والعسكرية، وما كانت تمليه مصلحة الإسلام التي هي فوق كل اعتبار - عند الإمام(ع) - يومذاك.

التحليل السياسي والعسكري لقرار الإمام

وفيما يلي نقدم تحليلاً سريعاً للظروف التي واجهها الإمام(ع) بعد استشهاد أبيه أمير المؤمنين(ع) واضطراره لإيقاف القتال، ضمن مجموعة من النقاط:

١ - هبوط المعنويات في جيش الإمام الحسن

تولى الإمام الحسن عليه السلام الإمامة بعد أبيه واتضح للإمام منذ أول يوم بايعه الناس أن جند العراق لم يعودوا يملكون المعنويات التي يتطلبها صراعه الطويل مع حاكم الشام معاوية بن أبي سفيان.

واتضح له أن جند العراق يؤثرون العافية والراحة على متاعب الحرب.

فقد أتعبتهم حروب الجمل وصفين والنهروان وصد الغارات التي كان يشنها ابن أبي سفيان على أطراف العراق واليمن والحجاز أيما تعب، ولم يعد هذا الجيش يرغب في القتال، وأصبح يعاني من هبوط شديد في المعنويات.

وعندما يفقد الجيش معنوياته فلا يستطيع القائد مهما أوتي من القوة والحكمة أن يقاتل بهذا الجيش، وكان هذا الجيش مصدر معاناة كبيرة للإمام الحسن(ع)، كما كان من قبل مصدر معاناة لأبيه أمير المؤمنين(ع)، ولنقرأ نماذج من حالة التخاذل والهبوط المعنوي في جيش العراق:

أ - التقى الإمام الحسن أول ما التقى تخاذل جنده ورغبتهم عن القتال يوم البيعة في أول يوم من ولايته بعد أبيه.

يقول ابن الأثير: كان الحسن يشترط عليهم (في البيعة): إنكم مطيعون تُسالمون من سالمت، وتحاربون من حاربت، فارتابوا بذلك. وقالوا: ماهذا لكم بصاحب، وما يريد هذا إلا القتال[١].

ب - لما عرف الإمام عليه السلام بخروج معاوية إلى العراق دعا الناس إلى حربه في اجتماع عام وخطب في أمر الجهاد والخروج للقتال والدفاع، وهو كما يقول أبو الفرج: يخاف من خذلان الناس من حوله (فسكت الناس فما تكلم أحد ولا بحرف)[٢].

---

(١) الكامل لابن الأثير ٣ / ٤٠٢ .
(٢) مقاتل الطالبيين لأبي الفرج الاصفهاني ٣٩، والبحار ٤٤ / ٥٠، وشرح النهج لابن أبي الحديد ١٦ / ٣٨، وأنساب الأشراف للبلاذري في قسم الإمام الحسن ٣٢ تحقيق الشيخ المحمودي.

فقام عدي بن حاتم الطائي رحمه اللّه، وأنّب الناس على تخاذلهم عن إمامهم وأعلن عن توجهه إلى القتال، ثم تكلم بعده قيس بن سعد بن عبادة ومعقل بن قيس وزياد بن صعصعة، فاستجاب الناس لدعوة الإمام بعد تردد وتخوّف وصمت.

ج - لما تأكد الإمام من التخاذل في جيشه وقادة جيشه خطب في جمعهم، وقال كلاماً يرويه ابن الأثير: «الا وإن معاوية دعانا لأمر ليس فيه عزّ ولا نَصفة، فإن أردتم الموت رددنا عليه وحاكمناه إلى اللّه عزوجل بظُبى السيوف، وإن أردتم الحياة قبلناه وأخذنا لكم الرضى.

فناداه الناس من كل جانب: البقيّة البقيّة[1].

وروى المجلسي عن الخرائج: إن الحسن(ع) أخذ طريق النخيلة فعسكر عشرة أيام، فلم يحضره إلا أربعة الاف فانصرف إلى الكوفة فصعد المنبر[2].

والأخبار من هذا القبيل كثيره تؤكد تثاقل أهل العراق عن نصرة الإمام والخروج إلى عدوه، وتخاذلهم عنه، وترددهم في الاستجابة له، ورغبتهم في العيش بعيداً عن الحرب ومشاكل الحرب.

وهذه النماذج على نحو الإجمال تعطينا صورة عامة عن معنويات الجيش الذي كان يقاتل الإمام به عدوّه وقدراته وكفاءاته.

٢ - عناصر الجيش

من المفيد بعد أن عرفنا شيئاً عن معنويات جيش العراق أن نعرف شيئاً من العناصر التي كانت تكوّن هذا الجيش.

وأمامنا نصّان نعتقد أنهما يلقيان الضوء بقدر كافٍ على طبيعة التركيب

(١) الكامل لابن الأثير ٣ / ٤٠٦، وتذكرة الخواص ١٨١، ط مؤسسة أهل البيت، وباختلاف يسير بحار الأنوار ٤٤ / ٢١ - ٢٢، وابن الأثير الجزري في أُسد الغابة ٢ / ١٣ سنة ١٤٠١هـ .

(٢) بحار الأنوار ٤٤ / ٤٤ .

البشري والمذهبي لجيش العراق الذي خرج به الإمام الحسن لمحاربة معاوية.

أحد هذين النصين للإمام الحسن(ع) نفسه وهو دقيق في تشخيص عناصر جيشه، يرويه ابن طاووس: (وكنتم في مسيركم إلى صفين ودينكم أمام دنياكم، وأصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم، وأنتم بين قتيلين: قتيل بصفين تبكون عليه وقتيل بالنهروان تطلبون منا ثأره، فأما الباقي فخاذل وأما الباكي فثائر)[1].

وفي هذا النص يقسّم الإمام جيشه إلى ثلاث فئات: فئة من خاصته وشيعته وهم الباكون الثائرون لشهداء صفّين، والصنف الثاني هم الخوارج الذين يطلبون من الإمام ثار قتلاهم بالنهروان، وهؤلاء وإن كانوا ناقمين على معاوية إلا أنهم ينقمون بنفس المقياس على الإمام الحسن(ع)، وأما الطائفة الثالثة فهم خليط من أصحاب الأهواء وضعاف النفوس والمرتزقة الذين تذهب بهم رياح الدنيا كل مذهب، وهم الذين يعنيهم الإمام بقوله (فأما الباقي فخاذل).

والنص الثاني للشيخ المفيد بنفس التشخيص.

يقول الشيخ: (وخفّ معه - أي الإمام - أخلاط من الناس بعضهم شيعة له ولأبيه، وبعضهم محكّمة - أي خوارج - يؤثرون قتال معاوية بكل حيلة، وبعضهم أصحاب فتن وطمع بالغنائم، وبعضهم شكاك، وبعضهم أصحاب عصبية، اتبعوا رؤساء قبائلهم لايرجعون إلى دين)[2].

والخوارج وان كانوا يؤثرون قتال معاوية بكل حيلة كما يقول شيخنا المفيد رحمه اللّه ولكنهم ينقمون على الإمام، كما ينقمون على معاوية، ويستغلون كل فرصة ممكنة للنيل من الإمام وتفريق الناس من حوله، وهم الذين سحبوا البساط من تحت أقدام الإمام وطعنوه في ساباط المدائن وحرّضوا الناس عليه، وهم كانوا

---

(١) الملاحم والفتن لابن طاوس ١٤٢، عن الخرائج: لقد رسمنا طاوس هكذا وتكفي واو واحدة كما في داود من باب التخفيف.

(٢) الارشاد للمفيد ١٦٩، ونقل هذا النص الأربلي في كشف الغمة ١٦٥. دار الكتاب الإسلامي بيروت ٤٠١، وقريباً من هذا النص المجلسي في البحار ٤٤ / ٢١ عن أعلام الدين للديلمي وابن الأثير الجزري في أسد الغابة ٢ / ١٣ .

مصدر أكثر الشغب في جيش الإمام.

فلم يكن الخوارج يؤمنون بولاية الإمام وقيادته، ولم يخفوا حقدهم على الإمام، ولم يكن حقدهم على الإمام بأقل من حقدهم على معاوية. وكانوا لايترددون في اغتيال الإمام، وطعنه، والقضاء عليه كلّما سنحت لهم الفرصة بعامل الحقد والإنتقام، وكانوا يرون أنهم بذلك يقضون على أحد عدوين لهم، ريثما تسنح الفرصة لهم بعد ذلك للقضاء على العدو الآخر.

وكانت معاناة الإمام من هذه الفئة مرة وقاسية، وكان تخريب هذه الفئة في جيش الإمام واسعاً كبيراً، ومحاولة اغتيال الإمام في المدائن تمت على يد هذه الفئة بالذات وإلى هؤلاء يشير الإمام(ع) بقوله: (وقتيل بالنهروان يطلبون منا ثأره) وقد قدّر للإمام الحسن(ع) أن يقاتل معاوية بهذه الفئة، فماذا ترى يستطيع أن يصنع في حرب معاوية اذا كان جزء من جيشه وجنده من هذه الفئة الناقمة والحاقدة على الإمام وعلى أبيه من قبل بالذات؟

والطائفة الأخرى هم اصحاب المطامع والمرتزقة وهواة الدنيا، الذين لايهمهم شيء من أمر الإمام أو أمر معاوية، وإنما تهمهم دنياهم فقط، وعندما وجدوا أن الدنيا مقبلة على معاوية ومُعرِضة عن الإمام تفرقوا عن الإمام وانضموا إلى معاوية، وأعلنوا عن استعدادهم لتسليم الإمام إلى معاوية، إمعاناً في التزلّف إلى معاوية...

ويبدو أنّ عدة هذه الطائفة كانت أكثر من الطائفتين الأخريين وهم يكوّنون المساحة الكبرى من جيش الإمام، ويشير إلى هذا المعنى النص الذي يرويه المجلس عن الخرائج (وكتب أكثر أهل الكوفة إلى معاوية: فإنّا معك وإن شئت أخذنا الحسن وبعثناه اليك)[1].

وإلى هذه الطائفة الواسعة المنتشرة في جيش الإمام من هواة الدنيا وأصحاب المطامع والذين تخلّوا عن الإمام في أحرج الساعات يشير الإمام في حديثه لزيد بن وهب الجهني، ويقول: (والله لو قاتلت معاوية لأخذوا بعنقي

(١) بحار الأنوار ٤٤ / ٤٥ .

حتى يدفعوني اليه سلماً[1].

لقد كان جيش الإمام يتألف من هذا الخليط العجيب من الحاقدين وأصحاب المطامع والأهواء والإنتهازيين، وكان على الإمام أن يقاتل بهذا الجيش معاوية في جيشه الغفير الكبير المنسجم الذي ينقاد لابن أبي سفيان على باطله وزيفه.

وقد كان في جيش الإمام طائفة من شيعته والموالين له، من المخلصين، وأصحاب الصلاح والتقوى، ولكن ترى ماذا يستطيعون أن يصنعوا في وسط هذا الخليط من الخوارج الناقمين والمرتزقة، أصحاب المطامع من هواة الدنيا الذين يحبون أن يسلكوا الطريق إلى الدنيا من أقرب المسالك وأيسرها.

٣ - الفارق الكمّي بين جيش الإمام وجيش معاوية

يقدّر ابن أعثم في الفتوح[2] جيش معاوية بستين ألفاً خرجوا مع معاوية إلى (مسكن على الفرات) وهو في نظري تقدير متوسط ومعتدل لجيش الشام، وتختلف الروايات في تقدير جيش الإمام الحسن، وفي جو التثاقل والتردد الذي قرأناه لانكاد نطمئن إلى عدد غير المقدمة التي بعثها الإمام إلى (مسكن) لمواجهة معاوية بقيادة عبيد الله بن عباس وأربعة آلاف بقوا معه بدير عبد الرحمن. وهذا هو أسلم الإحتمالات الذي يختاره الشيخ راضي آل ياسين رحمه اللّه[3]، وعليه فإن جيش الإمام في أوسط التقادير لايزيد عن ثلث جيش معاوية، إن كان لايقل عن الثلث.

وإذا أضفنا إلى هذه الملاحظة الكمية هبوط المعنويات بالشكل الذي تقدم، والتركيبة الغريبة لجيش الإمام من الناحية الكيفية، استطعنا أن نقدر درجة كفاءة جيش الإمام من الناحية العسكرية في مقابل جيش الشام، ودرجة احتمال فوز

---

(١) بحار الأنوار ٤٤ / ٢٠ عن الإحتجاج للطبرسي ١٤٨ - ١٤٩ .
(٢) الفتوح لابن الأعثم ٤ / ١٥٣، ط حيدر آباد دائرة المعارف العثمانية.
(٣) صلح الحسن للشيخ راضي آل ياسين ١٢٣ .

جيش الإمام في هذه المعركة.

٤ - التخاذل في قادة ووجوه الجيش

أرسل الإمام عبيد اللّه بن عباس ابن عمه على مقدمة جيشه في اثني عشر ألفاً لمواجهة معاوية، وأوصاه ألا يبدأ معاوية بالقتال فإذا بدأ معاوية القتال قاتله، وأمره أن يستشير في أعماله قيس بن سعد وسعيد بن قيس، فسار عبيد اللّه بالجيش على الفرات، حتى بلغ مسكن (موضع على نهر الدجيل) حيث التقى بجيش الشام.

وانطلق الإمام(ع) بما تبقى من الجيش، وفي أغلب الظن كان لايزيد على أربعة آلاف إلى (ساباط المدائن)[١].

فأرسل معاوية إلى عبيد اللّه بن عباس يغريه بالإلتحاق به بألف ألف درهم، يعجّل له بالنصف ويؤخر النصف الآخر إلى حين دخول الكوفة، فأنسلّ عبيد اللّه ليلاً إلى معسكر معاوية ووفى له معاوية بالوعد فأصبح الناس ينتظرون ان يخرج اليهم عبيد اللّه ليصلي بهم فلم يخرج، وطلبوه فلم يجدوه فصلى بهم قيس، وأعلمهم بخبر عبيد اللّه، وتبرأ منه وشتمه[٢].

وقد كان لانتشار خبر التحاق عبيد اللّه بمعسكر معاوية أسوأ الأثر في جيش الإمام، فقد وسّع من دائرة التخاذل داخل الجيش وأسقط معنويات المعسكر إلى حد كبير، وشاع في الجيش جو من سوء الظن، وكثرت الإشاعات الكاذبة من جانب عيون معاوية ورسله.

فخرج بسر بن أرطأة، فصاح إلى أهل العراق: وَيْحكم هذا أميركم عندنا قد بايع وإمامكم الحسن قد صالح (ولم يكن قد صالح معاوية قطعاً) فعلام تقتلون أنفسكم؟[٣].

---

(١) راجع شرح النهج لابن أبي الحديد ١٦ / ٤٠ .
(٢) نفس المصدر ١٦ / ٤٢ .
(٣) نفس المصدر.

وكانت نتيجة هذه الخيانة الكبيرة من عبيد اللّه، وما استتبعها من انتشار الإشاعات الكاذبة، والتخاذل وسوء الظن، وهبوط المعنويات أن انسلّ ثمانية الاف من مجموع الاثني عشر ألفاً إلى معسكر معاوية وتصدعت بذلك مقدمة الإمام[١] ولم يعد قيس بن سعد الأنصاري رحمه اللّه يستطيع أن يعمل شيئاً في إعادة الجيش إلى تماسكه بعد هذا الصدع الكبير الذي أحدثه عبيد اللّه في مقدمة جيش الإمام.

ولم يعد أثر هذه الخيانة ينحصر فقط في دائرة مقدمة المعسكر وفي حدود التخاذل والهروب من صف الإمام إلى صف معاوية، وإنما تجاوز ذلك إلى القطع العسكرية التي كانت ترافق الإمام نفسه، واتسعت دائرة التسلل من صف الإمام إلى جانب معاوية، من قبل قادة الجيش ووجوه وزعماء قبائل العراق.

يقول البلاذري: (وجعل وجوه اهل العراق يأتون معاوية فيبايعونه، فكان أول من أتاه خالد بن معمّر فقال: أبايعنّك عن ربيعة كلها ففعل، وبايعه عفاق بن شرحبيل بن أبي رهم التيمي، فلذلك يقول الشاعر:

معاوي أكرم خالد بن معمّر فانك لولا خالد لم تؤمّر

وبلغ ذلك الحسن فقال: (يا أهل العراق أنتم الذين أكرهتم أبي على القتال والحكومة ثم أختلفتم عليه. وقد أتاني أن أهل الشرق منكم قد أتوا معاوية فبايعوه فحسبي منكم لاتغروني في ديني ونفسي)[٢].

والنص الذي يرويه ابن الأعثم أبلغ في الإنهيار الذي أصاب جيش الإمام عقيب التحاق عبيد اللّه بمعاوية يقول: (وجعل أهل العراق يتوجّهون إلى معاوية قبيلة بعد قبيلة، حتى خفّ عسكره. فلما رأى ذلك كتب إلى الحسن بن علي يخبره بما هو فيه، فلما قرأ الحسن الكتاب ارسل إلى وجوه اصحابه فدعاهم، ثم قال: يا أهل العراق ما اصنع بجماعتكم معي، وهذا كتاب قيس بن سعد يخبرني

(١) راجع تاريخ اليعقوبي ٢ / ٢٠٣، ط النجف ١٣٩٤هـ.
(٢) أنساب الأشراف للبلاذري، حياة الإمام الحسن ٣ / ٣٩، دار التعارف للمطبوعات بيروت، تحقيق المحمودي.

بأن أهل الشرق قد صاروا إلى معاوية، أما واللّه ماهذا بمنكر منكم لأنكم أنتم الذين أكرهتم أبي يوم صفّين على الحكمين، فلما امضى الحكومة وقبل منكم اختلفتم)[١].

ويقول الشيخ المفيد في كلام طويل له: وكتب جماعة من رؤساء القبائل إلى معاوية بالسمع والطاعة له في السرّ واستحثّوه على المسير نحوهم، وضمنوا له تسليم الحسن(ع)[٢].

٥ - حرب الإشاعات في جيش الإمام

ووجد معاوية في هذا الجو المتصدع خير فرصة للقيام بعملية واسعة في نشر الإشاعات وترويجها، أو مايسمى اليوم (بحرب الاشاعات) وما كانت هذه الإشاعات لتعطي مفعولها بهذه القوّة لولا هذا الصدع الذي اصاب جيش الإمام على يد قادته، ووجوهه ورموزه، وما استتبع ذلك من سوء الظن، وفقدان الثقة والتشاؤم، وميل اصحاب الدنيا والمطامع إلى معاوية، وكثرة اللّغط داخل الجيش.

وقد استثمر معاوية - وهو المعروف بدهائه في السياسة - هذه الفرصه استثماراً جيداً وبعث عيوناً ورسلاً لبث الإشاعات واللغط في صفوف جيش الإمام(ع).

ونؤكد مرة أخرى أن هذه الفرصة وحدها هي التي مكّنت ابن أبي سفيان من استعمال هذا السلاح استعمالاً على درجة كبيرة من النجاح، ولولا هذه الفرصة لم يكن معاويه قادراً على القيام بهذه الحرب النفسية في صفوف جيش الإمام بهذه الدرجة من النجاح.

ومن هذه الإشاعات مايرويه ابن أبي الحديد أنّ بسر بن أرطأة كان يصيح (إنّ امامكم الحسن قد صالح فعلام تقتلون أنفسكم)[٣].

---

(١) الفتوح لابن الأعثم ٤ / ١٥٧ .
(٣) الإرشاد للمفيد ١٧٠، والبحار للمجلسي ٤٤ / ٤٧ .
(٣) شرح النهج لابن أبي الحديد ١٦ / ٤٢ ، ومقاتل الطالبيين لأبي الفرج الاصفهاني ص ٤٢، ط النجف.

ويقول اليعقوبي [٢٩٣هـ]: (كان معاوية يدسّ إلى عسكر الحسن من يتحدث أن قيس بن سعد قد صالح معاوية وصار معه، ووجّه إلى عسكر قيس من يتحدث أن الحسن قد صالح وأجابه)(١).

وبهذه الصورة المزدوجة كان معاوية يبث الإشاعات في الجيش الذي كان مع الإمام في المدائن: أن قيساً (قائد المقدمة بعد خيانة عبيد اللّه) قد انحاز إلى معاوية.

ثم يقول اليعقوبي: (ووجّه معاوية إلى الحسن المغيرة بن شعبة وعبد اللّه بن عامر بن كريز وعبد الرحمن بن أمّ الحكم، وأتوه وهو بالمدائن نازل في مضاربه، ثم خرجوا من عِنده وهم يقولون، ويُسمعون الناس: ان اللّه قد حقن بابن رسول اللّه الدماء، وسكّن به الفتنة وأجاب إلى الصلح، فاضطرب العسكر ولم يشك الناس في صدقهم)(٢).

وهذه الحالة تستوقف الإنسان طويلاً فلا يمكن أن تحدث مثل هذه الحالة في جيش نظامي.. إلا أن يكون هذا الجيش قد بلغ حداً مخيفاً من الإنهيار الداخلي.

هذا الجو، وهذه الحالة، هي التي استطاع ان يستثمرها ابن أبي سفيان في توسيع رقعة الحرب النفسية مع الإمام(ع) واستثمارها في تسجيل الفوز عليه في هذه الحرب.

٦ - التمرّد

وانتهت هذه المقدمات التي استعرضناها في هذه الدراسة إلى نتيجة حتمية، لم تكن لتتخلّف عنها، وهي التي كان يسعى اليها معاوية من وراء هذه السلسلة من المؤامرات، والتي مهدّت لها الظروف والأقدار السيئة التي أحاطت الإمام الحسن(ع).

فبدأت عناصر من الجيش بالتمرّد على الإمام وأخذت رقعة التمرد تتّسع،

(١) تاريخ اليعقوبي ٢ / ٢٠٣ .
(٢) نفس المصدر.

ويفقد الجيش نظامه وتماسكه، وتفقد القيادة سيطرتها على الجيش، وهذه الحالة في العرف العسكري هي نهاية القوة العسكرية الحتمية.

ونحن لانشك أن الخوارج هم الذين بادروا إلى التمرّد، وهم الذين كانوا يتحيّنون هذه الفرصة منذ وقت سابق بفارغ الصبر، ويعملون المستحيل للتمهيد لها وإعلان التمرّد على الإمام، وانحلال الجيش، واغتيال الإمام، والثأر، والإنتقام منه، وأخيراً التخلّص من عليّ وابنه الحسن ليفرغوا لمعاوية بعد ذلك انْ ساعدهم الحظ. وقد تبع الخوارج - في التمرّد على الإمام - رعاع الناس وعامتهم الذين يجرون مع كل ريح.

والذي يدعونا إلى الإطمئنان أنّ الخوارج هم الذين كانوا يخطّطون من داخل جيش الإمام للتمرّد على الإمام، ويمهّدون له، ويُعدّون الناس لذلك اعداداً، هي الطريقة التي تمّ بها التمرد، فهي طريقة خارجية معروفة.

فصيح أحدهم (كفر والله الرجل)[1] ويصيح الآخر (الله أكبر ياحسن أشركت كما أشرك أبوك من قبل)[2].

وبعد نجاح معاوية في بثّ الإشاعة بقبول الإمام للصلح - كما يقول اليعقوبي[3] - أو بعد خطاب الإمام - كما يقول أبو الفرج الأصفهاني [٣٥٦هـ] - تنادى الناس (وهم في أغلب الظن الخوارج) بالتمرّد على الإمام (وشدّوا - والكلام لأبي الفرج - على فسطاطه فانتهبوه، حتى أخذوا مصلّاه من تحته ثم شدّ عليه عبد الرحمن بن عبد الله بن جعال الأزدي فنزع مطرفه عن عاتقه.. فقال(ع): ادعو لي ربيعة وهمدان، فدعوا له فأطافوا به ودفعوا الناس عنه، ومعهم شوب من غيرهم (أي خليط من غير ربيعة وهمدان) فقام اليه رجل من بني أسد يقال له الجراح بن سنان فلما مرَّ في مظلم ساباط قام اليه فأخذ بلجام بغلته وبيده معول، فقال: (الله أكبر ياحسن أشركت كما أشرك أبوك من قبل)، ثم طعنه فوقعت الطعنة في فخذه فشقّته، حتى بلغت أربيته، فسقط الحسن إلى الأرض،

---

(١) و(٢) مقاتل الطالبيين ٤١ .
(٣) تاريخ اليعقوبي ٢ / ٢٠٣ .

بعد أن ضرب الذي طعنه بسيف كان بيده، فوثب عبد اللّه بن الخطل، فنزع المعول من يد جراح بن سنان فخضخضه به وأكبّ ظبيان بن عمارة عليه.. حتى قتلوه)[1].

هذه صورة واحدة من حالة التمرد التي انتهى اليها امر جيش الإمام. ونحن لانشك أن الخوارج هم الذين ألهبوا نار التمرّد وعملوا على توسيع دائرته بكل ما أوتوا من حول وقوة.

ولا نشك أن طبيعة جيش الإمام، والعناصر المكوّنة له، والمعنويات الهابطة لهذا الجيش، والوقت الذي خرج فيه هذا الجيش بالمقابلة مع جيوش الشام، والخيانة القبيحة التي ارتكبها عبيد اللّه بن عباس كانت تؤدي لامحالة إلى هذه النتيجة.

وقد يساورنا بعض الشك في أن ينتهي جيش الإمام إلى هذه النتيجة المأساوية لولا خيانة عبيد اللّه بن عباس. أما بعد أنْ التحق عبيد اللّه بن عباس بجيش معاوية فقد أصبح واضحاً لكل من يُلمُ بظروف المعركة، أن هذه المعركة سوف تنتهي إلى مثل هذه النتيجة.

وهكذا كانت نهاية جيش الإمام في هذه الحرب نهاية حتمية لايمكن التخلص منها بحال من الأحوال.

وأيّما يكون القائد، ومهما تكن كفاءاته القيادية والعسكرية، فلا شك أن نهاية هذه الحرب سوف لاتكون إلا لصالح جيش ابن أبي سفيان، ولا يمكن تغيير نتائج المعركة حسب التقديرات العسكرية المألوفة الا بمعجزة خارقة للطبيعة.. أما على المقاييس العسكرية المألوفة فمهما يشك الإنسان في شيء فلا يشك في أن هذه المعركة سوف تنتهي إلى فوز ساحق لمعاوية وللجيش الأموي.

والتشخيص الذي نقرأه لشيخنا المفيد لتركيبة الجيش، وتخاذل وجوه الجيش وقياداته والنتائج المترتبة على ذلك تشخيص دقيق وواقعي. يقول الشيخ رحمه اللّه:

---

(١) مقاتل الطالبيين ٤١، وراجع المسعودي ٢ / ٤٣١، واليعقوبي ٢ / ٢٠٣، والفتوح ٤ / ١٥٥، والبلاذري في الأنساب ٣ / ٣٥، وغير ذلك من المصادر.

(وازدادت بصيرة الإمام الحسن(ع) بخذلان القوم له وفساد نيّات المحكّمة (الخوارج)، بما أظهروه من السبّ والتكفير له، ونهب أمواله، ولم يبق معه من يأمن غوائله إلا خاصة من شيعته وهم جماعة لاتقوم لأجناد الشام)[1].

كل العوامل التي أشرنا إليها في ضمن النقاط السابقة في ظروف الإمام السياسية والعسكرية، والتي أدت إلى ظهور التمرّد والإنحلال في جيش الإمام كانت خارجة عن قدرة الإمام وقبضته كقائد سياسي وعسكري.. وكانت الأحداث والأقدار التي تحيط بالإمام تسير سيراً قهرياً لصالح معاوية، ولم تكن ظروف الإمام تسمح بتغيير شيء من هذا الواقع السيئ الذي كان يحيط بجيشه.

الخيارات الثلاثة التي واجهها الإمام الحسن(ع)

وتجاه هذه الحتمية التي واجهها الإمام(ع) وجهاً لوجه.. وجد نفسه أمام ثلاثة خيارات، لا رابع لها وكان عليه ان يختار واحداً منها:

١ - الصلح مع معاوية قبل القتال.

٢ - الصلح مع معاوية بعد القتال.

٣ - الاستمرار في القتال ورفض الصلح حتى الشهادة.

والخيار الأول هو الذي اختاره الإمام الحسن(ع) والخيار الثالث هو الذي اختاره الامام الحسين(ع) من بعده.

وأما الخيار الثاني فليس من سبيل لاختياره.

فإذا كان لابدّ للإمام أن يقبل بالصلح ويتخلّى عن حرب معاوية... فليصنع ذلك في البدء، وقبل إراقة الدماء، وليفرض هو شروط الصلح على معاوية، دون أن يجبره معاوية على ذلك اجباراً وليستجيب لطلب معاوية بعزّة - ما أمكن - قبل أن تدفعه أمواج الفتنة العارمة المشتعلة في جيشه إلى طرف معاوية.

---

(١) الإرشاد للمفيد ١٧٠، وينقل النص المجلسي في البحار ٤٤ / ٤٨ .

ويُملي على معاوية شروطه للصلح من موقع المقاتل، وإن كان معاوية سوف يغدر ويتحلل من كل التزاماته وتعهداته والإمام يعرف ذلك جيداً.. ومع ذلك فإن الإمام إذا كان مضطراً للصلح فمن الخير له ولجنده وللمسلمين أن يقبل بالصلح قبل القتال، وقبل أن ينحلّ جيشه بالكامل، وتتّسع دائرة التمرد في جيشه فيسلّمه الرعاع من جنده إلى معاوية تسليماً، كما يقول الإمام الحسن(ع) او كما كاتب رؤساء الجيش بذلك في السر، أو يضطر هو أن يصالح معاوية من موقع الهزيمة فيُملي معاوية على الإمام كلما يريد ويتعامل مع الإمام من موقع المنتصر في المعركة.. ثم بعد أن يراق دم كثير من الطرفين من دون أن يحقق هذا الدم أي نتيجة ايجابية في ساحة المعركة لصالح الإسلام والإمام.

والإمام(ع) يشخّص هذه الحقيقة ويذكرها بألم وشجى عميقين لزيد بن وهب الجهني لما طعن(ع) بالمدائن، يقول زيد: أتيته بالمدائن وهو متوجّع، فقلت له: يا ابن رسول اللّه إن الناس متحيّرون فقال(ع): (واللّه لو قاتلت معاوية لأخذوا بعنقي حتى يدفعوني اليه سلما، فو اللّه لئن أُسالمه وأنا عزيز خير من أن يقتلني وأنا أسيره، أو يمنّ عليّ فتكون سُبة على بني هاشم إلى آخر الدهر، ومعاوية لايزال يمُن بها وعقبه على الحيّ منّا والميّت)[1].

إذن فلم يكن للإمام سبيل إلى هذا الاختيار.

ولم يكن من الحكمة اطلاقاً ان يختار الإمام الصلح بعد القتال ومن موقع المقاتل المهزوم بل من موقع المقاتل الذي يملي مايمكنه من الشروط على خصمه وهو محتفظ بموقعه في ساحة المعركة، فإن الخسارة والضرر إن كان لابد أن تلحق بالإمام وجيشه وشيعته وخاصته فليعمل على تقليل هذه الخسارة ما أمكن.

فإذا كان الخيار الثاني اختياراً غير عقلاني في الخيارات الثلاثة التي واجهها الإمام(ع).. فلينظر في الخيار الثالث وهو الاستمرار في القتال بنفسه وبشيعته وخاصته حتى الشهادة، والإصرار على قتال معاوية مهما كانت نتائج المعركة إلى

---

(١) الإحتجاج للطبرسي ٢ / ١٠، ط النجف ١٣٨٦هـ ، وبحار الأنوار ٤٤ / ٢٠ .

أن يأتي جند الشام على الإمام وما تبقّى له من جنده من شيعته وأصحابه وأهل بيته بالتمام ويقتلوهم جميعاً وهو الخيار الذي اختاره الحسين(ع) في خروجه على يزيد.

فإذا كانت الظروف السياسية والعسكرية القاهرة حالت دون الإمام ودون الإنتصار على بني أمية، واذا كان الصلح مع معاوية بعد القتال وبعد فوز معاوية في الحرب أمراً مُذلاً للإمام ولشيعته وجيشه، فلماذا لم يقدم الإمام الحسن(ع) على ما أقدم عليه أخوه الحسين(ع) من الإصرار على القتال حتى الشهادة فيكون قد حقق بذلك إحدى الحسنيين؟

ومن الناس من لايناقش في الخيار الثاني من الخيارات الثلاثة التي واجهها الإمام، ولكن يرى أن الخيار الثالث كان أفضل للإمام وأعزّ له ولجنده ولشيعته وأدنى إلى اللّه من الخيار الأول، وأنه كان بوسع الإمام، وهو يعلم بما يؤول اليه أمر جنده ودولته أن يستبسل للقتال، هو ومن تبقّى له من شيعته وخاصته ويصبر على القتال حتى الشهادة.. وأكثر اعتراض أصحاب الإمام القريبين منه والموالين له كان ينصبّ على هذه النقطة بالذات، فلم يكن أحد من أصحاب الإمام يشك أنّ جيش الإمام غير قادر على المقاومة في وجه معاوية، ولكنّهم كانوا يعتبون على الإمامعدم المضيّ في القتال حتى الفوز بالشهادة.

إنّ نظرة سريعة إلى التركيبة التي شرحناها لجيش الإمام تكفي للاجابة على هذا السؤال.. فلم يبق في جانب الإمام الحسن بتأثير الفتن الهوجاء التي غزت العالم الإسلامي على يدّ بني أمية، إلا قلّة من المؤمنين من أصحاب المواقف السياسية الواضحة، والمقيمين على الخط الفكري والسياسي الإسلامي السليم، الذي خلّف رسول اللّه(ص) عليه أهل بيته من بعده في حديث الثقلين المعروف[1].

وكانت سياسة أهل البيت في هذه المرحلة بعد الردّة الجاهلية التي تمت على يد بني أمية، والتي شرحنا بعض ابعادها في هذه الدراسة، هي المحافظة على هذه الأقلّية الباقية وتنميتها، واعتمادها في مكافحة الردة الجاهلية ومعارضة سلطان بني

---

(١) يرويه عدد غفير من الصحابة والتابعين.

أميّة وتجديد حياة الإسلام، وإزالة ماعلق بالإسلام من أفكار ومفاهيم وأحكام وأخلاق جاهلية لاتمت للإسلام بصلة وتحريك وتوعية الأمة بهذا الاتجاه.

وهذه المهمة الثقيلة في التوعية والتحريك والجهاد، والمحافظة على الإسلام كانت ملقاة على عاتق هذه الأقلّية التي ظلّت محتفظة بخط وقيادة أهل البيت(ع) في وسط الأزمات الحادة وأمواج الفتن الهوجاء، التي غزت العالم الإسلامي في هذه الفترة.

وكان معاوية يتتبّع هذه الأقليّة المعارضة من شيعة الإمام في كل مكان ويأمر عمّاله بالتضييق عليهم، ومنع أرزاقهم، والتنكيل بهم وسجنهم، وتعذيبهم، بأقل شبهة أو ظِنّة، لغرض إبادتهم والقضاء عليهم.

وقد مرّ علينا حديث الإمام الباقر(ع) الذي يستعرض فيه محنة أهل البيت وشيعتهم أيام بني أميّة عامة، ومعاوية خاصّة: (ثم لم نزل أهل البيت نُستذل ونُقصى ونُمتهن ونُحرم ونُقتل ونخاف، ولا نأمن على دمائنا ودماء أوليائنا.. وكان عظم ذلك وكبره زمن معاوية بعد موت الحسن فقتلت شيعتنا بكل بلدة وقطعت الأيدي والأرجل على الظِنّة)[1].

والآن نعود إلى حديثنا الذي قطعناه.

افتراض مواصلة القتال

لو أن الإمام الحسن(ع) كان اختار الخيار الثالث من هذه الخيارات، وهو الخيار الذي اختاره أخوه الإمام الحسين(ع)، وأصر على الإستمرار في القتال بنفسه وشيعته وأهل بيته حتى الشهادة؟

لم يكن يبقى معه بالتأكيد في ساحة المعركة غير هذه الجماعة من شيعته، التي كان الإمام(ع) يدّخرهم لمقاومة سلطان بني أمية وتحريك الأمة وتوعيتها في

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ١١ / ٤٤، ورواه المجلسي عن ابن أبي الحديد في البحار ٤٤ / ٦٨ - ٦٩ .

المستقبل، ولأبادهم معاوية إبادة كاملة في ساحة المعركة وتتبّع - في زهو الانتصار - من تبقى منهم ومن عوائلهم خلف ساحة المعركة وأبادهم بشكل كامل، وبهذه الصورة كانت تخلو الساحة السياسية في العالم الإسلامي لبني أمية بشكل كامل ومقفل، ولا يبقى هناك من صوت للمعارضة ودعوة للعودة إلى الإسلام، وعمل لتحريك الساحة الإسلامية وتوعيتها، من دون أي نتيجة ايجابية تكتسبها الساحة الإسلامية بهذه المجزرة التي كانت تتم على يد معاوية في شيعة الإمام وأوليائهم.

ولم يكن يبقى في جو المعارضة غير الخوارج والخوارج لايؤلفون دعوة للعودة إلى الخط الإسلامي الصحيح أولاً، وطريقتهم المتشنّجة في مواجهة أعدائهم كانت كفيلة بانهائهم ثانياً.

إذن فقد كان الإصرار على القتال من جانب الإمام حتى الشهادة، يؤدي إلى الإبادة الكاملة لشيعته، وإلى كارثة واسعة على الإسلام، وتفريغ الساحة لمعاوية، وسائر حكّام بني أمية، من بعده، ليعبثوا بمقدرات هذه الأمة، وبأصول الإسلام، وأحكامه، وفروعه، من دون أن تواجههم أيّة معارضة، وفي ضوء الظروف والارهاب والإعلام الأموي نشك شكّاً قوياً في إمكانية ولادة معارضة جديدة على خط الإسلام الصحيح لو أنّ معاوية كانت تتهيأ له فرصة إبادة شيعة الإمام، ثم نشك أن تكون هذه المعارضة على فرض ولادتها قادرة على النمو والحركة والتحريك في ظل الظروف الإرهابية التي أوجدها حكّام بني أمية.

وعليه فإن مواصلة القتال حتى الشهادة وهو الخيار الثالث كان يترك أسوأ الآثار في تاريخ الإسلام، يعلم اللّه تعالى وحده أبعاد الخسائر والضياع والإنحراف الذي كانت تتركه هذه المجازفة التأريخية بمصير الأمة والإسلام.

ونحن لانقدم هذا التحليل السياسي، من عندنا، ومن استنباط الظروف السياسية التي كانت تحيط بالإمام في تلك الفترة، فقط، وانما نأخذه بصورة مباشرة ايضاً من كلمات الإمام الحسن(ع) نفسه في توجيه صلحه مع معاوية ومتاركته للقتال.. وقد كان الأمر واضحاً لا لبس فيه لدى الإمام في ترك هذا الخيار، وكان

ثقيلاً عليه وعلى شيعته ثقل الجبال، وتحمّل الإمام الحسن الزكي(ع) الكثير من النقد والعتاب المرّ القاسي من أصحابه وأوليائه وشيعته، الذين كانوا لايدركون أبعاد هذه المجازفة، وكان يثقل عليهم أن يضع ابن رسول اللّه(ص) يده في يد ابن هند آكلة الأكباد.. وكان بعض هذا العتاب يبلغ حدوداً قاسية من إساءة الأدب إلى الإمام ولكن الإمام كان يتحمّل كل ذلك بصدر واسع وصبر كبير للمحافظة على الأمانة التي ائتمنه اللّه تعالى عليها.

وأمامنا مجموعة من النصوص تشير بوضوح إلى هذا الفهم والتحليل الذي ذكرناه في متاركة الإمام للقتال مع معاوية نذكر جملة منها:

روى الشيخ الصدوق، عن أبي سعيد عقيصا قال: قلت للحسن بن علي بن أبي طالب: (يا بن رسول اللّه لم داهنت معاوية وصالحته وقد علمت أن الحق لك دونه، وأن معاوية ضالّ باغ؟

فقال: يا ابا سعيد ألستُ حجة اللّه تعالى ذكره على خلقه وإماماً عليهم؟ قلت: بلى.. علة مصالحتي لمعاوية، علة مصالحة رسول اللّه(ص) لبني ضمرة وبني أشجع ولأهل مكة حين انصرف من الحديبية، أولئك كفّار بالتنزيل، ومعاوية وأصحابه كفار بالتأويل.. سخطتم علي بجهلكم بوجه الحكمة فيه، ولولا ما أتيت لما ترك من شيعتنا على وجه الأرض أحد إلا قتل)[1].

ترى كيف ينظر الإمام إلى نتائج الاستمرار في القتال لو كان يصر على مواصلة القتال، وكيف كانت هذه المجازفة تعطي فرصة لمعاوية في ابادة الشيعة، فلا يترك شيعياً - على وجه الأرض كلها - إلا قتله.

ويروي البلاذري: أن الإمام الحسن(ع) قال لحجر بن عدي وهو من خيار أصحابه، عندما عاتبه على مصالحة معاوية عتاباً فيه قسوة وسوء أدب، رحمه اللّه وتجاوز عنه.. قال له الإمام: (وإنما فعلت ما فعلت إبقاءً عليكم)[2].

---

(١) علل الشرائع ٢١١، ط النجف ١٣٨٥هـ، ورواه المجلسي في البحار ٤٤ / ١ - ٢، أخذنا من النص موضوع الحاجة.

(١) أنساب الأشراف ٣ / ٤٥، ط بيروت تحقيق المحمودي، وبحار الأنوار ٤٤ / ٥٧ .

ترى لو أن حجراً، ولا يشك أحد في اخلاصه وسلامة نيته، وهو من خيار أصحاب الإمام، دعته فورة الغضب والإنفعال إلى هذه المجازفة الرهيبة، هل يصح للإمام ان يستجيب لها وهو يرى ماتؤدي اليه هذه المجازفة من كوارث في مستقبل الإسلام والمسلمين؟

وفي رواية يرويها الصدوق، عن أبي جعفر، وقد سأله سدير عن أمر الإمام الحسن(ع)، لِمَ أسلم الأمر إلى معاوية؟، فقال له الإمام أبو جعفر(ع): أسكت فإنه أعلم بما صنع، لولا ما صنع لكان أمر عظيم[1].

الإمام الحسن أمام الخيار الصعب

فلم يكن أمام الإمام إذن من سبيل إلا الخيار الأول وهو قبول دعوة الصلح من معاوية قبل بدء القتال.. وكان اختياراً شاقاً عسيراً على الإمام واصحاب الإمام وأهل بيته. وكان لابد للإمام من أن يأخذ القرار، ومن أن يتحمل العتاب واللوم من أقرب الناس اليه، الذين كانوا يصرون على الإمام بالمضي في حرب معاوية حتى الشهاده والذين كانوا لايرون الأبعاد البعيدة لهذه المجازفة كما يراها الإمام...

فقد كان يرى ما لايراه أصحابه وأهل بيته، الذين كانوا لايستطيعون أن يستسيغوا ماصنعه الإمام، وكانوا يؤثرون ان يشهروا سيوفهم ويقتلوا عن آخرهم، ولا يقدم الإمام على ما أقدم عليه من الصلح مع معاوية.

وكان حجر رحمه الله يقول للإمام: (أما والله لوددت إنك متّ في ذلك اليوم ومتنا معك ولم نر هذا اليوم)[2].

ولكن الإمام كان يرى ما لايراه أصحابه، وكان يؤثر أن يتحمل هذا الضيم في نفسه وشيعته على أن يجازف بمستقبل الإسلام والأمة في حركة انفعالية نعلم أولها ولا نعلم آخرها.

---

(١) علل الشرائع ٢١١، والمجلسي في البحار ٤٤ / ١ .
(٢) بحار الأنوار ٤٤ / ٥٧ .

إنه ثقل المسؤولية والتكليف الشرعي الذي قد يبتلي اللّه تعالى به عباده، وقليل من الناس من يستطيع أن ينهض بالمسؤولية الشرعية في مثل هذه الساعات الحرجة والعسيرة.

وسلام اللّه على أبي محمد الحسن في موقفه هذا وتضحيته الكبيرة وتحمّله وصبره.

وليت شيعة الإمام واصحابه الأدنين منه كانوا يرون مايراه الإمام.. إذن كانوا يعينون امامهم في تحمل أعباء هذه المسؤولية الثقيلة، ولم يكونوا يضيفون آلاماً إلى آلامه، ومعاناةً إلى معاناته. ولقد كان أيسر على الإمام أن يتحمّل من معاوية وأزلامه السبّ والشتم، من أن يتحمل من شيعته واصحابه اللوم والعذل.

وقد عمد الإمام قبل كل شيء إلى اعطاء صفة الهدنة ومتاركة القتال للصلح، فطلب من معاوية شروطاً فأرسل معاوية إلى الإمام ورقة بيضاء مختومة[1] ليشرط عليه فيها ماشاء من الشروط، فاشترط عليه الإمام أن لايسميه (امير المؤمنين، ولا يقيم عنده شهادة، وأن لايتعقب على شيعته شيئاً)[2].

وهذه المعادلة بهذه الصورة لاتزيد على أن تكون اتفاقية هدنة وإيقاف للقتال.

وليس فيها ايماءة أو تصريح بتسليم الإمرة والولاية الشرعية إلى معاوية. بل اشترط عليه الإمام ألا يسمّيه أمير المؤمنين وألّا يقيم عنده شهادة، وهو بمعنى عدم الإعتراف بولاية معاوية الشرعية على المسلمين، وعدم تنازل الإمام عن حقه الشرعي في الولاية.

وكان الإمام الحسن(ع) يعلن رأيه هذا اعلاناً، فخطب الإمام في أول الصلح بحضور جمع من المسلمين ومعاوية جالس فقال: (إنما الخليفة من سار بكتاب اللّه وسنة نبيه، وليس الخليفة من سار بالجور، ذلك رجل ملك ملكاً تمتع به قليلاً ثم تنخّمه، تنقطع لذته وتبقى تبعته ﴿**وان ادري لعله فتنة لكم ومتاع**

(١) تاريخ الطبري ٧ / ٥، وابن الأثير ٣ / ٤٠٥ .
(٢) علل الشرائع للصدوق ٢١٢، وبحار الأنوار ٤٤ / ٢ .

إلى حين﴾)(١).

وقد أعلن معاوية بعد ذلك بالنخيلة على الملأ من الناس غدره بالإمام وبكل ما اشترط عليه الإمام فقال: (ألا أن كل شيء أعطيته الحسن بن علي تحت قدميّ هاتين لا أفي به)(٢)، وقد كان أبو اسحاق يقول عن معاوية: (كان واللّه غدّاراً)(٣).

إلا أن معاوية لم يسجّل على الإمام اعترافاً بولايته عند اتّفاقية الصلح ولا بعد ذلك، ولم يزد مضمون الصلح في اصح الروايات على الإتفاق على ايقاف القتال والهدنة.

تعلميات الإمام لشيعته في ظروف الفتنة

ورسم الإمام لشيعته الموقف السياسي من حكومة بني أمية في تلك الفترة.. وهذه السياسة تنطلق وتنسجم مع قرار الإمام في الصلح.

وأهم نقاط هذا الموقف ثلاث:

١ – أن معاوية يريد استئصال الشيعة (الخط الموالي لأهل البيت) وأن موجة الإرهاب والتصفية والقتل سوف تواجه شيعة أهل البيت على يد معاوية وأزلامه وعماله، وليست لهم القدرة على مواجهة هذه الموجة العاتية.

فإن معاوية ينطلق من موقع قوي بجند الشام وأموال الشام، ويخطط للقضاء التام على شيعة أهل البيت، ويعلم أن الأمر لايستقيم له ولاسرته من بعده إلا باستئصال أهل البيت وشيعتهم، ولا تملك الأمة القدرة والوعي الكافيين لمواجهة هذه الفتنة العارمة.

٢ – ومن غير الصحيح في مثل هذه المرحلة التاريخية الحساسة أن تتحرك هذه

(١) سورة الأنبياء آية ١١١، والخطبة في شرح النهج لابن أبي الحديد ١٦ / ٤٩ .
(٢) مقاتل الطالبيين ٤٥، وأنساب الأشراف ٢ / ٥٥ .
(٣) مقاتل الطالبيين ٤٥ .

الفئة الموالية لأهل البيت من منطلق الإنفعال ورد الفعل، ومن الخطأ أن تواجه هذه الأقليّة موجة الفتن المقبلة من الشام بنفسها فقط، فهو الإنتحار الجماعي الذي يستتبع الكثير من الكوارث على الإسلام والمسلمين في المستقبل، ومعاوية سوف لايتردد في ضرب كل تحرك سياسي معارض أو خروج او تمرّد على سلطانه بضربات موجعة وقاتلة.

وإذا وجد معاوية مبرراً للمواجهة والقتال فسوف لايقف عند حد حتى يستأصل هذه المجموعة بالكامل، وليس من ورائهم من يخلفهم على المسيرة، فيصفو الجو لمعاوية، ومن بعده لبنيه وذريته، فلابد من تجنّب الاصطدام بهذه الموجة وعدم التعرّض لها. وتفويت هذه الفرصة على معاوية للإبقاء على هذه المسيرة الإسلامية الصحيحة التي لم تتأثر بالردّة الأموية والعاملين عليها.

٣ - فاذا هلك معاوية فالظرف والحكم يتغيّران تغيراً كبيراً.. ومن الممكن - وعلى درجة قوية من الإحتمال - أن تكون الظروف مناسبة ومهيّأة للخروج على سلطان بني أمية.

فإن معاوية لابد أن يُسفر عن وجهه الحقيقي وأهدافه الحقيقية[1] بما يساعد على تحريك وتوعية الأمة.

وإنّ بني أمية وعمّالهم سوف يمارسون من الظلم والتعسّف في حياة الناس في هذه الفترة مايهيئ الأمة للتحرك والمواجهة ولا سيما في العراق والحجاز.

وإن خليفة معاوية - وفي أغلب الظن كان الإمام يقدر أن يكون ابنه يزيد بن معاوية - سوف لايملك قدرة أبيه، وسلطانه، ونفوذه، ولا يملك دهاءه وعقله السياسي، ولا تظاهره بالدين.. فيكون الأمر في مواجهة خليفته من بعده أيسر وآمن، وأكثر ضماناً في استجابة الأمة وحركتها.

ولهذه العوامل وغيرها كان يرى الإمام إرجاء أيّ تحرّك سياسي، وأيّ محاولة

(١) خطب معاوية في النخيلة فقال: «إني والله ماقاتلتكم لتصلّوا ولا لتصوموا ولا لتحجّوا ولا لتزكّوا، إنكم تفعلون ذلك وإنما قاتلتكم لأتأمّر عليكم، وقد أعطاني الله ذلك وأنتم كارهون». مقاتل الطالبيين ٤٥، وشرح النهج لابن أبي الحديد ١٦ / ٤٦ .

للخروج على سلطان بني أمية إلى هلاك معاوية، وكان هذا هو رأي الإمام الحسين(ع) ايضاً من بعد وفاة أخيه الإمام الحسن[١].

وفي النصوص التي وصلت إلينا من الإمام عليه السلام بعد قصة الصلح نلتقي النص التالي، حول موقف الإمام الحسن(ع) ورأيه في التحرك السياسي والجهادي في المرحلة وما بعدها بصورة واضحة.

نروي النص عن البلاذري وابن قتيبة، وكلاهما من أعلام القرن الثالث الهجري:

روى ابن قتيبة الدينوري (واللفظ له) والبلاذري: أنّ جمعاً من وجهاء وزعماء الشيعة اجتمعوا بالإمام وفيهم سليمان بن صرد، وكان غائباً عن المعركة، وسيد أهل العراق، فحدّثوا الإمام بما يجيش في صدورهم من العتاب واللوم الذي لايخلو من قسوة.. فلمّا تكلّموا جميعاً أخذ الإمام بالكلام فقال بعد الحمد والصلاة: إنكم شيعتنا وأهل مودتنا، ومن نعرفهُ بالنصيحة والصحبة والإستقامة لنا، وقد فهمت ماذكرتم، ولو كنت بالحزم في أمر الدنيا وللدنيا اعمل وأنصب، ما كان معاوية بأبأس مني وأشدّ شكيمة، ولكان رأيي غير ما رأيتم، ولكني أُشهد اللّه واياكم أني لم أرد بما رأيتم الا حقن دمائكم وإصلاح ذات بينكم.

فاتقوا اللّه وارضوا بقضاء اللّه، وسلّموا الأمر للّه، والزموا بيوتكم وكفوا أيديكم حتى يستريح بر أو يستراح من فاجر، مع أن أبي كان يحدثني أن معاوية سيلي الأمر، فواللّه لو سرنا اليه بالجبال والشجر ما شككتُ أنه سيظهر، ان اللّه لامعقّب لحكمه، ولا رادّ لقضائه.

(١) لما استشهد الإمام الحسن اجتمع شيعة أهل البيت في الكوفة في دار سليمان بن صرد فكتبوا الى الحسين بالتعزية ورأي أهل الكوفة وحبهم لقدومه ورأيهم في معاوية وعدائهم له وولائهم لآل بيت رسول الله(ص)، فكتب اليهم الحسين(ع): (إلصقوا بالأرض، واخفوا الشخص، واكتموا الهوى، واحترسوا من الأخطاء ما دام ابن هند حياً، فإن يحدث به حدث وأنا حي يأتكم رأيي إن شاء الله)، أنساب الأشراف ٣ / ١٥١ - ١٥٢، تحقيق المحمودي، وترون أن هذا هو رأي الامام الحسن(ع) بالذات كما سوف يأتي في رواية البلاذري وابن قتيبة الدينوري.

وأما قولك يامذلّ المؤمنين، فواللّه لئن تذلّوا وتعافوا أحب إلي من أن تعزّوا وتقتلوا.. فليكن كل رجل منكم حِلساً من أحلاس بيته مادام معاوية حياً، فإن يهلك ونحن وأنتم أحياء سألنا اللّه العزيمة على رشدنا، والمعونة على أمرنا، وأن لايكلنا إلى أنفسنا فإن اللّه مع الذين اتقوا والذين هم محسنون)[1].

والنص الذي رويناه يضع مجموعة نقاط تساهم في رسم الموقف الذي شرحناه من قبل بشكل واضح:

١ - إن معاوية يستعمل في إحراز الفوز أساليب ملتوية وغير شرعية (دنيوية)، كان بإمكان الإمام أن يستعملها، ويحقق بها الفوز والنصر كما يريد أصحابه، ولكن لايرى مسوّغاً لاستعمال الأساليب التي يستعملها معاوية ويرتفع عنها، ولو كان يطلب الدنيا لحارب معاوية بسلاحه الذي يستعمله هو ولانتصر عليه.

٢ - ان معاوية يفوز في هذه المعركة حتماً ولو سار اليه الإمام بالأشجار والجبال.

٣ - وإنه لو قاتل معاوية لأعطى لمعاوية فرصة لإبادة شيعته ابادة كاملة وقد حقن الإمام دماءهم بهذا الصلح.

٤ - وفي هذه المرحلة يجب تجنّب الاصطدام بأمواج الفتن المقبلة من الشام للمحافظة على هذه القاعدة الإسلامية من شيعة أهل البيت ولئن يذلّوا ويعافوا خير من أن يعزّوا ويقتلوا، ولا يخلفهم أحد من بعدهم في حراسة وحماية وتقويم الخط الإسلامي الصحيح.

٥ - واذا هلك معاوية فلكل حادث حُكم.

فإذا كانت الفرصة مؤاتية، وكان الإمام حياً فسوف يأمر بالخروج على خلفاء معاوية.

---

(١) الإمامة والسياسة ١٦٤، وروى جزء من هذا النص البلاذري في أنساب الأشراف ٣ / ٤٩ .

استشهاد الإمام الحسن(ع) والبيعة ليزيد

بعد هذه الجولة في أسباب وخلفيات صلح الإمام الحسن والظروف القاهرة التي دعته إلى متاركة القتال مع معاوية.. نعود إلى الحديث عن الحسين عليه السلام وموقفه ورأيه بعد موت معاوية.

لقد كان رأي الحسين(ع) في الخروج على معاوية هو رأي اخيه الحسن(ع).

إذ يروي البلاذري: أن زعماء الشيعة اجتمعوا بعد وفاة أخيه(ع) في دار سليمان بن صرد وكتبوا اليه برأي أهل الكوفة فيه وولائهم له وبراءتهم من معاوية وأفعاله، يطلبون قدومه إلى الكوفة فكتب اليهم الحسين(ع) (إلصقوا بالأرض، واخفوا الشخص، واكتموا الهوى، واحترسوا من الأخطاء مادام ابن هند حياً، فإن يحدث به حدث وأنا حيّ يأتكم رأيي إن شاء اللّه)[1].

وعليه فقد كان رأي الحسنين عليهما السلام رأياً واحداً في مسألة الخروج على بني أمية وتوقيته بموت معاوية وما يستجد من الظروف حينذاك، فإن كانت الظروف مؤاتية وصالحة أقدما على الخروج على سلطان بني أمية.

وكان معاوية يعرف هذا الأمر جيداً، ويعلم أن الذي يلي الأمر من بعده سوف يلاقي الكثير من المتاعب والمشاكل، وأنّ هذه المتاعب والمشاكل يمكن أن ترقى إلى تهديد سلطان بني أمية، وقد كان معاوية عازماً على أن يعهد بالخلافة إلى ابنه يزيد من بعده، وكان يتخوّف كثيراً من إعلان رأيه هذا، لما يعهد في ابنه من تهتّك وخروج سافر على الأعراف والأخلاق والإلتزامات الإسلامية.

وكان أكثر ما يشغل بال معاوية في هذا الأمر، هو الإمام الحسن(ع) فقد اشترط عليه الإمام من شروط الصلح أن لايخلف أحداً في مكانه.

ولم يكن معاوية يعبأ كثيراً بعهوده، فقد نقضها علانية، وبملأ من المسلمين، ولكنّه كان يخشى أن يتمسك الإمام الحسن(ع) وشيعته بشرطه عليه، ويخرجوا

---

(١) أنساب الاشراف ٣ / ١٥١ - ١٥٢، تحقيق المحمودي.

على يزيد من بعده، فلا يستطيع أن يقاوم الحسن(ع) فلا هو يملك دهاء أبيه وقوته، ولا هو يملك قدرة أبيه على ضبط النفس والتظاهر بالالتزام والتخلّي عن تهتّكه، ولا هو يملك رصيد أبيه من الصُحبة وخؤولة المؤمنين وما انتحله له المرتزقة الذين من حوله من مناقب وفضائل.

فكان أكثر ما يخشاه على سلطان بني أمية من بعده من الحسن(ع) ولذلك فقد خطّط معاوية للتخلّص من الإمام بطريقته المعروفة التي استعملها في التخلّص من محمد بن أبي بكر عامل الإمام علي بن أبي طالب(ع) على مصر من قبل، فدسّ اليه سمّاً على يد زوجته جعدة، وتولّت جعدة تنفيذ هذه المهمة بالشكل الذي يريد معاوية.

يقول أبو الفرج: (وأراد معاوية البيعة لابنه يزيد فلم يكن شيء أثقل من أمر الحسن بن علي وسعد بن أبي وقاص، فدسّ اليهما السمّ فماتا)[1].

وبعد أن خلت الساحة من وجود الإمام بدأ معاوية يفكّر بصورة جدّية في إعلان ولاية العهد لابنه يزيد، ولكنه كان يتهيّب كثيراً من الإقدام على هذا الأمر الخطير، كما ذكرنا، لما يعرف في يزيد من التهتّك، والتجاهر بالفسق، مما كان لايخفى أمره عل أحد من المسلمين.

فكان متردداً في هذا الأمر يقدّم خطوة ويؤخر أُخرى، حتى قدم عليه المغيرة بن شعبة (عامله على الكوف) يحمل اليه اقتراحاً بترشيح يزيد من بعده خليفة على المسلمين، ويخبره أنه قد سعى في ذلك في الكوفة، ويقدّم اليه استعداده للسعي في هذه المهمة.

والقصة معروفة في التاريخ، يرويها السيوطي: (كان المغيرة عامل معاوية على الكوفة، فكتب اليه معاوية: اذا قرأت كتابي فأقبل معزولاً، فأبطأ عنه فلما ورد عليه قال: ما أبطأ بك؟ قال: أمرٌ كنت أُوطئه وأهيئه، قال: وما هو؟ قال: البيعة ليزيد من بعدك.

(١) مقاتل الطالبيين ٤٧ - ٤٨، وراجع أنساب الأشراف للبلاذري ٢ / ٥٥، تحقيق المحمودي.

قال: أوَقد فعلت؟ قال: نعم قال: إرجع إلى عملك. فلما خرج قال له أصحابه: ما وراءك؟ قال: وضعت رِجل معاوية في غِرز غيّ لايزال فيه إلى يوم القيامة)[١].

وأجزل معاوية العطاء للشعراء ولوجوه الناس ليكسب أصواتهم لاستخلاف يزيد فارسل إلى عبد اللّه بن عمر مائة الف درهم فقبلها فلما ذكر البيعة ليزيد، قال ابن عمر: هذا أراد؟ إن ديني عندي اذن لرخيص[٢].

وأرسل معاوية مائة ألف درهم إلى عبد الرحمن بن أبي بكر، فامتنع من أخذها، وقال: لا أبيع ديني[٣].

وكتب معاوية إلى عمّاله في البلاد يطلب منهم الإعداد لمبايعة يزيد بولاية العهد، ولم يكن الأمر هيّناً على عمال معاوية. فقد كان فيهم من يطمح هو في ولاية العهد، مثل زياد ابن ابيه، الذي ثبّت دعائم حكم معاوية في العراقين.

ومثل مروان الذي كان يرى نفسه أولى بهذا الأمر من يزيد، ويرى أنه شيخ العشيرة وكبيرها.

فدعا زياد برجل من أصحابه يثق بفضله وفهمه، فقال: إني أريد أن أأتمنك على ما لم أأتمن عليه بطون الصحائف، إئت معاوية، وقل له: يا أمير المؤمنين انّ كتابك ورد عليّ بكذا، فما يقول الناس اذا دعوناهم إلى بيعة يزيد، وهو يلعب بالكلاب والقرود، ويلبس المصبغ ويدمن شرب الخمر، ويمسي على الدفوف، وبحضرتهم الحسين بن علي، وعبد اللّه بن عباس، وعبد اللّه بن الزبير، وعبد اللّه بن عمر، ولكن تأمره يتخلّق بأخلاق هؤلاء حولاً أو حولين فعسانا أن نموّه على الناس[٤].

إلا أن معاوية كان أوفر دهاءً، وكان زياد أذلّ عنده من أن تمر عليه مكيدته أو يعبأ بكلام ابن أبيه فقال: (ويلي على ابن عبيدة، لقد بلغني ان الحادي حدا له: أن

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ١٩١ - ١٩٢، ط دار الفكر.
(٢) الكامل ٣ / ٥٠٦، دار صادر بيروت.
(٣) البداية والنهاية لابن كثير ٨ / ٨٩ .
(٤) تاريخ اليعقوبي ٢ / ٢٠٨، الطبعة الرابعة، المطبعة الحيدرية في النجف.

الأمير بعدي زيلد، والله لأردنّه إلى أمه سميّة وإلى أبيه عبيد)[1].

ولقد جهد معاوية كثيراً في إعداد يزيد لهذه المهمة الصعبة وفي تأهيله لها على طريقته الخاصة.

وقد حاول معاوية أكثر من مرة أن يأخذ البيعة ليزيد من الحسين(ع) ونفر من وجوه الصحابة وأبناء الصحابة، منهم عبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن جعفر.. ولكن ولاته جميعاً باؤوا بالفشل، وواجهه الحسين(ع) وأولئك النفر بالصدود والرفض القاطع.. نذكر من هذه المحاولات كتاباً واحداً بعثه الإمام الحسين إلى معاوية جواباً لكتابه اليه، عندما اشتدت مطالبة معاوية له عليه السلام بالبيعة، برواية ابن قتيبة الدينوري. كتب الإمام الحسين(ع) إلى معاوية:

(أمّا بعد فقد جاءني كتابك تذكر فيه انه انتهت اليك عني أمور لم تكن تظنني بها، رغبة بي عنها، وإن الحسنات لايهدي لها، ولا يسدّد اليها الا الله تعالى، وأما ما ذكرت أنه رقى اليك عني، فإنما رقاه الملاّقون، المشاؤون بالنميمة، المفرّقون بين الجمع، وكذب الغاوون المارقون، ما اردت حرباً ولا خلافاً، وإني لأخشى الله في ترك ذلك من حزبك، القاسطين المحلّين، حزب الظالم، واعوان الشيطان الرجيم.

ألست قاتل حجر، وأصحابه العابدين المخبتين، الذين كانوا يستفظعون البدع، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر؟ فقتلتهم ظلماً وعدواناً، من بعد ما أعطيتهم المواثيق الغليظة، والعهود المؤكدة، جرأةً على الله واستخفافاً بعهده، أوَلست بقاتل عمرو بن الحمق، الذي أخلقت وأبلت وجهه العبادة؟ فقتلته من بعد ما أعطيته من العهود ما لو فهمته العصم لنزلت من شغف الجبال، أولست المدّعي زياداً في الإسلام؟ فزعمت أنه ابن أبي سفيان، وقد قضى رسول الله(ص) أن الولد للفراش، وللعاهر الحجر، ثم سلطته على أهل الإسلام، يقتلهم ويقطع أيديهم، وأرجلهم من خلاف، ويصلبهم على جذوع النخل، سبحان الله يامعاوية لكأنك لست في هذه الأمة، وليسوا منك؟

(١) المصدر السابق.

أوَلست قاتل الحضرمي الذي كتب اليك فيه زياد أنه على دين علي عليه السلام؟ ودين علي هو دين ابن عمه(ص)، [الدين] الذي أجلسك مجلسك الذي أنت فيه؟ ولولا ذلك كان افضل شرفك وشرف آبائك تجشم الرحلتين: رحلة الشتاء والصيف فوضعها الله عنكم بنا منّة عليكم:

وقلت فيما قلت: لاتردّ هذه الأمة في فتنة، وانّي لا أعلم لها فتنة أعظم من امارتك عليها.

وقلت فيما قلت: انظر لنفسك ولدينك، ولأمة محمد(ص) واني والله ما أعرف أفضل من جهادك، فإن أفعل فإنه قربة إلى ربي، وإن لم أفعل فاستغفر الله لديني، وأسأله التوفيق لما يحب ويرضى، وقلت فيما قلت: متى تكدني أكدك فكدني يامعاوية فميا بدا لك، فلعمري لقديماً يكاد الصالحون، وإني لأرجو أن لاتضرّ إلا نفسك، ولا تمحق الا عملك، فكدني ما بدا لك، واتق الله يامعاوية، واعلم ان لله كتاباً لايغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها، واعلم ان الله ليس بناسٍ لك قتلك بالظِنّة، وأخذك بالتُهمة، وإمارتك صبياً يشرب الشراب، ويلعب بالكلاب، ما أراك إلا وقد أوبقت نفسك وأهلكت دينك وأضعت الرعيّة والسلام)[١].

والتقى معاوية بالحسين(ع) وعبد الله بن عباس في المدينة في سفره الذي حاول فيه أن يمهّد الأمر ليزيد ابنه. وقد جرى بين الإمام الحسين ومعاوية حوار حول خلافة يزيد ننقل هنا بعض الفقرات من كلام أبي عبد الله الحسين(ع) لمعاوية، عن ابن قتيبة الدينوري:

قال الحسين عليه السلام لمعاوية: (هيهات هيهات يامعاوية فضح الصبحُ فحمةَ الدُجى، وبهرت الشمسُ أنوار السرج، ولقد فضّلت حتى أفرطت، واستأثرت حتى أجحفت، ومنعت حتى محلت، وجزت حتى جاوزت. مابذلت لذي حق من اسم حقه بنصيب حتى أخذ الشيطان حظّه الأوفر ونصيبه الأكمل.

---

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة الدينوري ١ / ١٨٠ - ١٨١، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٣٨٨هـ.

وفهمت ماذكرته عن يزيد من اكتماله وسياسته لأمة محمد(ص) تريد أن توهم الناس في يزيد، كأنك تصف محجوباً أو تنعت غائباً، أو تخبر عما كان مما احتويته بعلم خاص. وقد دلّ يزيد من نفسه على موقع رأيه.

فخذ ليزيد فيما أخذ فيه من استقرائه الكلاب المهارشة عند التهارش والحمام الأسبق لاترابهن، والقيان ذوات المعازف، وضرب الملاهي، تجده باصراً، ودع عنك ما تحاول فما أغناك أن تلقى اللّه من وزر هذا الخلق بأكثر مما أنت لاقيه، فواللّه مابرحت تقدح باطلاً في جور وحنقاً في ظلم، حتى ملأت الأسقية، وما بينك وبين الموت الا غمضة، فتقدم على عمل محفوظ في يوم مشهود ولات حين مناص)[١].



(١) المصدر السابق ١ / ١٨٦ .

- ١٢ -

أهداف ثورة الحسين(ع)



أهداف ثورة الحسين عليه السلام

إذن كان الإمامان الحسن والحسين عليهما السلام قد عقدا العزم على إعلان الخروج على سلطان بني أمية عندما تسمح الظروف بعد موت معاوية.

وقد أظهرا ذلك لشيعتهم أكثر من مرة، وكانت خطة الإمامين الحسن والحسين(ع) في ذلك واحدة - كما رأينا فيما روينا من أحاديث وتعلميات الإمامين(ع) لشيعتهما - ولا واقع إطلاقاً لما ينتحله البعض من خلاف في الرأي بين الإمامين في الموقف من حكومة بني أمية.

وقد رأينا أن مجاميع من شيعة العراق كتبوا إلى الحسين(ع) بعد صلح الإمام الحسن(ع) يدعونه للخروج على معاوية وإعلان الثورة، رافضين موقف الإمام الحسن من الصلح، فكتب اليهم الحسين عليهم السلام: (صدق أبو محمد، فليكن كل رجل منكم حِلساً من أحلاس بيته، مادام هذا الإنسان [معاوية] حياً)[1].

وشاء اللّه تعالى أن ينفذ غدر معاوية في الإمام ويستشهد الإمام قبل هلاك معاوية وتولى الحسين(ع) الإمامة وقيادة المعارضة ومسؤولية الثورة والحركة من بعد أخيه.

فكان موقف الحسين(ع) بعد وفاة المجتبى هو استمرار موقف أخيه الحسن من قبل تجاه معاوية.

---

(١) الأخبار الطوال ٢٢١ .

فكتب اليه أهل العراق أن يخرج بهم على معاوية فلم يستجب الإمام الحسين لرأيهم وكتب اليهم: (أما أخي فارجوا أن يكون اللّه قد وفّقه وسدّده فيما يأتي، وأما أنا فليس رأيي اليوم ذلك، فالصقوا رحمكم اللّه بالأرض واكمنوا في البيوت واحترسوا من الظنة ما دام معاوية حياً)[1].

إلا أن تحركاً سياسياً كان يجري في الحجاز في الكتمان في جو المعارضة يقوده الإمام الحسين(ع) ويوجّهه لتأليب المسلمين ضد سلطان بني أمية وتمهيد الأجواء للخروج عليهم بعد موت معاوية.

فقد كان الإمام على اتّصال بوجوه المسلمين من العراق والحجاز، يزورونه ويأخذون برأيه، ورغم أن هذه الإجتماعات كان يغلب عليها طابع السرية الا أنها كانت لاتغيب عن عيون بني أمية وجواسيسهم فكتب مروان عامل معاوية على المدينة إلى معاوية:

(أنّ عمر بن عثمان ذكر أنّ رجالاً من أهل العراق ووجوه أهل الحجاز يختلفون إلى الحسين بن علي، وأنه لايؤمن وثوبه، وقد بحثت عن هذا فبلغني أنه يريد الخلاف يومه هذا، فاكتب إلي برأيك)[2].

فكتب اليه معاوية أن يتجنّب مواجهة الحسين ما أمكنه ذلك.

ومهما يكن من أمر فقد كان الحسين(ع) قد عزم على الخروج على سلطان بني أمية اذا مات معاوية وكانت الظروف مؤاتية، وكان قد أعد شيعته لذلك.

لانشك في أن الإمام لم يكن يطلب في ثورته وخروجه على يزيد بن معاوية اسقاط النظام الأموي عسكرياً، والاستيلاء على السلطة. فلم يكن للإمام من أعوان يعتمد عليهم في حركته وخروجه في غير العراق. فقد كانت مصر والحجاز بعيدتين كان البعد عن ظروف الثورة والحركة وكانت الشام القاعدة المتينة التي ينطلق منها يزيد بن معاوية ويحتمي بها.

---

(١) المصدر السابق ٢٢٢ .
(٢) نفس المصدر ٢٢٤ .

ولم يكن هوى أهل العراق معه من غير شيعته.. فقد كان الإمام يعلم جيداً أنّ من غير الممكن الإعتماد على الكثرة من أهل العراق، فهم مع الطرف المنتصر، ومن الخير له ولثورته ألا يلتحقوا به فإنهم سوف ينفرطون من جيشه كما انفرطوا من جيش أخيه الحسن من قبل، أو أسرع وأيسر من ذلك، ويفتّون في عضده وعضد أصحابه وشيعته، ويتخلّون عنه في أحرج ساعات المعركة، ولا يبقى له في ساحة المعركة غير شيعته الذين ثبتوا من قبل في جيش أخيه الحسن(ع) وهم قلة لايكوّنون قوة عسكرية تصمد أمام جيوش الشام.

ولقد صدقت نبوءة الفرزدق للإمام حين التقى به في الشقوق[1]، وأقبل على الإمام وقبّل يده، فسأله الإمام كيف خلّفت أهل الكوفة؟

فقال: خلّفت الناس معك، وسيوفهم مع بني أمية. فقال له الحسين(ع): (صدقت وبررت، إنّ الأمر للّه يفعل مايشاء)[2].

ولم تكن تجربة الإمام الحسن(ع) بعيده عن الحسين، ولم يكن الإمام الحسين بأقدر من أخيه في تجميع قوة عسكرية لضرب سلطان بني أمية واسقاط النظام.. إن لم تكن ظروف الحسين(ع) أسوأ من ظروف أخيه الحسن. فقد استقر لبني أمية السلطان، وامتد نفوذهم، وعمل معاوية بدهائه المعروف في تحكيم أصول حكم بني أمية، وامتداد نفوذهم وشراء الضمائر ونشر الرعب والإرهاب في أجواء المعارضة، واكتساح الأكثرية، التي يتحكّم فيها الإرهاب والإغراء، ويميلون دائماً إلى الجهة المنتصرة القوية في الساحة.

فلم يحدث حدثٌ جديد في الساحة السياسية والعسكرية على ما عرفناه في عهد الإمام الحسن(ع) غير أمرين اثنين:

أحدهما: استحكام قواعد سلطان الأمويين وامتداد نفوذهم في البلاد.

والثاني: إنتشار الفساد في جهاز بني أمية إلى حد الإستهتار والإبتذال في حياة

---

(١) منزل بطريق مكة الى الكوفة. معجم البلدان ٥ / ٢٨٣ .

(٢) انظر الفتوح لابن الأعثم ٥ / ١٢٤، ومقتل الخوارزمي ١ / ٢٢٢ تحقيق الشيخ محمد السماوي .

يزيد وحكومته.

والأمر الأول: لم يكن لصالح الإمام في التفكير في تحرك عسكري لاسقاط النظام.. فقد كانت تجربة ألإمام الحسن بعد حيّةً في نفوس الشيعة، حيث لم يستطع جيش العراق أن يقاوم سلطان بني أمية، بعد وفاة الإمام أمير المؤمنين(ع). فما ظنك بهذه القوة العسكرية، بعد أن استحكم لبني أمية الحكم والسلطان، وامتدّ لهم النفوذ في البلاد واستتبّ لهم الأمر.

والأمر الثاني: وإن كان ينفع في تحريك الأقلية المعارضة الواعية من الشيعة، إلا أنه لم يكن ينفع - بالتأكيد - في تحريك الأكثرية التي ألِفت هذا الفساد واستسلمت له، بل وأعانت عليه.

فلم يكن يصفو - إذن - للإمام الحسين من القوة العسكرية غير ما صفا لأخيه الحسن(ع) من قبل، وهم الثابتون من شيعته ومواليه.. ولا يمكن أن يفكّر الإمام - بكل تأكيد - أن يجازف بهذه القوة المحدودة لاسقاط النظام الأموي الرهيب، بعد أن أخفقت محاولة اخيه الإمام الحسن، في ظروف أحسن من ظروفه، وبقوة عسكرية أقوى من الجيش الذي كان يعدّه له العراق بعد موت معاوية.

وهذا التشخيص ليس مما نضيفه نحن من عندنا إلى الظروف التي رافقت خروج الحسين(ع) وثورته، وإنما نجده عند كل الذين نصحوا الإمام بالإعراض عن الخروج إلى العراق، ممن كان يعز عليهم أن يواجه الإمام تجربة أخيه الإمام الحسن مرةً أخرى في العراق كعبد اللّه بن عباس وعبد اللّه بن جعفر بن أبي طالب وغيرهم.

ونجد هذا التشخيص بالذات في كلمات الإمام الحسين(ع) بصورة مؤكدة ومتكررة قبل الخروج إلى العراق وبعده.

ونذكر هنا نموذجين فقط من خطب الإمام التي توحي بصورة قوية ان الإمام كان مُقدماً على الشهادة والتضحية، ولم يكن يفكّر في عمل عسكري لاسقاط النظام عسكرياً.

أحدهما: في الحجاز قبل أن يفارق مكة إلى العراق، والثاني: في كربلاء.

أما الخطبة الأولى: فيرويها ابن طاووس. قال رحمه اللّه: روي أنه عليه السلام لمّا عزم على الخروج إلى العراق، قام خطيباً فقال: الحمد للّه، وما شاء اللّه، ولا قوة الا باللّه، وصلى اللّه على رسوله. خُطّ الموت على ولد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى اسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف. وخُيّر لي مصرع أنا لاقيه، كأني بأوصالي تقطّعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلا فيملأن مني أكراشاً جوفاً وأجربةً سغباً، لامحيص عن يوم خُط بالقلم رضا اللّه رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه، ويوفينا أجور الصابرين، لن تشذ عن رسول اللّه لُحمته، وهي مجموعة له في حظيرة القدس، تقرُّ بها عينه، وينجز بهم وعده، فمن كان باذلاً فينا مهجته وموطّناً على لقاء اللّه نفسه فليرحل معنا فإني راحل مصبحاً إن شاء اللّه[1].

ولسنا نحتاج إلى التعليق على هذه الخطبة فهي واضحة في أن الإمام(ع) كان يعدّ أصحابه لحركة مأساوية قوامها التضحية والدم، والشهادة، ولا يطمح فيها إلى أي نصر عاجل.

فها هو يبدأ خطابه مع أصحابه بالموت الذي يطوّق ابن آدم كما تطوّق القلادة جيد الفتاة. ثم يخبر عن مستقبل هذه الحركة المأساوية فيقول: كأني بأوصالي تقطّعها عسلان (ذئاب) الفلوات. ثم يطلب النصرة من المسلمين، ولكن بهذه الطريقة الفريدة: (فمن كان باذلاً فينا مهجته موطّناً على لقاء اللّه نفسه فليرحل معنا).

إن الإمام لايشير في هذه الخطبة إلى أي هدف عسكري بالمعنى المعروف في الأعمال العسكرية، وإنما يعد أصحابه لتضحية مأساوية دامية، ويطلب ممن يريدون مرافقته أن يُعدّوا أنفهسم للقاء اللّه ولبذل المهج في سبيل اللّه.

والخطبة الثانية خطبها الحسين(ع) بذي حسم من منازل العراق فقال: (ألا

---

(١) اللهوف للسيد ابن طاووس ص ٥٣، اصفهان ١٣٦٦. ولواعج الأشجان للسيد الأمين، ونَفَس المهموم للمحدّث القمي ١٦٣، مكتبة بصيرتي قم ١٤٠٥هـ ق ٧٠، مطبعة العرفان صيدا ١٣٣١ هـ ق.

ترون إلى الحق لايعمل به وإلى الباطل لايتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله محقاً، فإني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برماً)[١].

ولما سار الإمام بأصحابه من قصر بني مقاتل خفق خفقة ثم انتبه، وهو يقول: (إنا لله وإنا اليه راجعون) فأقبل عليه ابنه علي بن الحسين على فرس له فقال: يا أبتِ جعلت فداك، مِمَّ حمدت الله واسترجعت؟ قال: يابني إني خفقت برأسي خفقة فعنّ لي فارس على فرس، فقال: القوم يسيرون والمنايا تسير اليهم، فعلمت أنها أنفسنا نُعيت إلينا.

قال له: يا أبت لا أراك الله سوءاً، ألسنا على الحق؟

قال: بلى والذي اليه مرجع العباد.

قال: يا أبت، إذن لانبالي، نموت محقّين.

فقالك جزاك الله من ولد خير ما جزى ولداً عن والده[٢].

ولا يقتصر الأمر على هذه المنامات والخطب التي يرويها أصحاب السِّيَر كالطبري (وابن أعثم) و(السيد ابن طاوس) و(المفيد) وغيرهم بصورة متواترة، لاتقبل الشك.. فإن كل شيء في حركة الحسين(ع) إلى العراق يدل على أن الإمام لم يكن بصدد حركة عسكرية بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة لاسقاط النظام الأموي.

فالإمام إذن لم يكن يفكّر، ولا يمكن أن يفكّر في حركة عسكرية.. وإنما كان الإمام يقدم عن علم ووعي على تضحية مأساوية نادرة، بنفسه وأهل بيته واصحابه ليهزّ ضمير الأمة الخامل، ويبعث في نفوسهم الحركة وروح التضحية والإقدام.

ولعل في حديث الإمام مع أخيه محمد بن الحنفية رحمه الله عندما أراد الخروج من مكة إلى العراق مايشير إلى هذه الغاية. والرواية يرويها السيد ابن

---

(١) الطبري ٧ / ٣٠١ الطبعة الأوربية.

(٢) الطبري ٧ / ٣٠٦، الطبعة الأوربية، نقلنا من النص بمقدار الحاجة. وينقل الطبري مناماً آخر للامام بمضمون قريب من هذا المضمون في ٧ / ٣١٨ .

طاوس. يقول السيد رحمه الله: إن محمد بن الحنفية عندما عرف بخروج الحسين من مكة أتاه فأخذ زمام ناقته التي ركبها فقال: يا أخي ألم تعدني النظر فيما سألتك؟، وكان قد سأل الإمام أن يسير إلى اليمن، وينصرف عن العراق. قال: بلى. قال: فما حداك على الخروج عاجلاً؟ فقال: أتاني رسول الله (في المنام) بعدما فارقتك، فقال: ياحسين أخرج فإن الله شاء أن يراك قتيلاً.

فقال: له ابن الحنفية: (إنّا لله وإنّا إليه راجعون)، فما معنى حملك هؤلاء النساء، وأنت تخرج على مثل هذه الحال؟ فقال له: إن الله قد شاء أن يراهن سبايا. وسلّم عليه ومضى[1].

إذن فالنتيجة التي ننتهي اليها في هذه الجولة السريعة: أن الإمام الحسين كان يفكر في الإقدام على تضحية مأساوية دامية، ولم يكن يفكّر في عمل عسكري على الإطلاق لمواجهة سلطان بني أمية، وهذان نحوان من الخروج كل منهما يحقّق هدفاً محدوداً، والخلط بينهما يؤدي إلى الوقوع في أخطاء تأريخية كبيرة تشوّش علينا فهم الثورة الحسينية وغايتها ونتائجها.

والآن نتساءل عمّا كان يمكن أن يقصده الإمام من أهداف وغايات من وراء هذه التضحية المأساوية التي أقدم عليها الإمام عن علم ووعي.

١ - تحرير إرادة الأمة

يستخدم الطغاة عادة سلاحين مؤثرين في وجه تحرّك الأمة وتمرّدها ورفضها للظلم. وهما سلاح (الإرهاب) و(الإفساد) ومن خصائص هذين السلاحين أنهما يسلبان الأمة الإرادة والقدرة على التحرّك والوعي والإدراك.

ومن أولى مستلزمات كل حركة (الوعي) و(الإرادة)، وعندما يفقد الإنسان

(١) اللهوف للسيد ابن طاووس ٥٥، ط اصفهان، ونَفَس المهموم ص ١٦٤ - ١٦٥، ط قم ١٤٠٥هـ ق، وروى الفقرة الأخيرة المتعلقة بالنساء المسعودي في إثبات الوصية ص ١٤١، ط النجف المطبعة الحيدرية.

بصيرته وإرادته يفقد كل قدرة للتحرّك، ويستسلم للواقع الفاسد، ويتكيّف معه، وعند ذلك يسيطر الطاغية وفتته على ارادة الأمة ووعيها ومصيرها وحتى على ذوقها وأخلاقها وأعرافها، ويتم مسخ شخصية الأمة بصورة كاملة في كل أبعادها ويتحكم الطاغية في كل شيء في حياة الأمة، ولا تملك الأمة تجاه الطاغية غير الطاعة والإنقياد والإستسلام.

وإلى هذه الحقيقة يشير القرآن الكريم في علاقة فرعون بقومه وعلاقتهم بفرعون: ﴿**فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين**﴾[1].

إن فرعون تمكن من أن يستخف قومه وأن يسلبهم وعيهم وإرادتهم وقيمهم بالإرهاب والإفساد وبذلك تمكّن من أن يمسخ شخصيتهم مسخاً كاملاً، واستأصل من نفوسهم كل قدرة على الوعي والتفكير فضلاً عن الإرادة والمقاومة والرفض. وبهذه الصورة استطاع فرعون أن يكسب طاعتهم: (فأطاعوه).

وهذه الطريقة هي الطريقة المفضّلة لأئمة الضلال في اكتساب طاعة الناس وولائهم ويقوم هذا الولاء والطاعة عادة على حطام شخصية الأمة.

عند ذلك يعيش الحكام من أئمة الضلال في راحة تامة من ناحية الرعيّة لا يقلقهم شيء من جانبهم، ويتحوّل الناس إلى قطيع من المتملقين والمتزلفين والراضخين...

وينقلب في نفوسهم الوعي والإرادة إلى الاتجاه الذي يطلبه الحكّام فيرون الأشياء كما يحب الحكام، ويحبون ما أحبّوا ويريدون ما أرادوا، وهكذا تتم عملية المسخ والإنقلاب في شخصية الأمة. وبهذه الصورة تتكون في الأمة طبقتان:

١ - طبقة المستكبرين: وهم الحكّام من أئمة الضلال ومن يرتبط بهم ومن ينتفع منهم من (الملأ) الذين يستعلون على الناس، ويستكبرون في الأرض، ويتحكّمون في حياة الناس، وإرادتهم ومصيرهم وحتى أذواقهم وأخلاقهم، ويضعون أنفسهم في مركز السيادة والحاكمية من حياة الإنسان من دون الله،

---

(١) سورة الزخرف آية ٥٤ .

ويستعلون على الناس ويُفسدون في الأرض.. وهؤلاء هم الطاغوت[1] الذين يتجاوزون حدود العبودية والطاعة للّه تعالى إلى الاستكبار والسيادة والحاكمية من دون اللّه والإفساد في حياة الناس.

٢ - وطبقة المستضعفين: الذين يستخفهم الطاغوت (يسلبهم ثقلهم في موازين الإنسانية) ويستضعفهم (يسلبهم القدرات والإمكانات والكفاءات التي منحهم اللّه تعالى) وتتحول هذه الطبقة الواسعة إلى طبقة تابعة ومنقادة ومستسلمة للأمر الواقع، تفقد خصائصها وقيمها الإنسانية كافة، وتتحول إلى أداة طيّعة لتنفيذ كل مايمليه عليها الطاغوت.

وأوّل ما تفقد هذه الطبقة وعيها وإرادتها، ومن ثم تفقد كل شيء في حياتها مما منحها اللّه تعالى من القيم والكفاءات.

﴿ختم اللّه على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة﴾[2].

ولإنقاذ هؤلاء لابد من تحرير وعيهم وإرادتهم من أسر الطاغوت أولاً، فإن أول ما يسلبهم الطاغوت هو (الوعي) و(الإرادة) عن طريق (الإرهاب) و(الإفساد)، ولإنقاذهم من قبضة الطاغوت وأسره لابد من إعادة (الوعي) و(الإرادة) اليهم قبل كل شيء حتى ينظروا إلى الأمور والأشخاص بوعيهم الذي أعطاهم اللّه، لا من خلال مايحبّه الطاغوت ويكرهه، وحتى يتمكّنوا أن يأخذوا القرار لأنفسهم بأنفسهم، لا أن يتخذ الطاغوت القرار بالنيابة عنهم ولهم.

ولقد واجه الحسين(ع) واقعاً اجتماعياً وسياسياً سيئاً من مثل هذا الواقع، تمكّن فيه بنو أمية من مسخ شخصية الأمة مسخاً كاملاً ومصادرة قيمها وقدراتها ووعيها وإرادتها. وأسوأ ما كان في هذا المسخ والتحويل أن القدرة والقوة التي منحهم

---

(١) يقول الراغب في المفردات: الطاغوت عبارة عن كل مُتعدٍّ وكل معبود من دون الله ويستعمل في الواحد والجمع، قال: ﴿فمن يكفر بالطاغوت﴾، ﴿والذين اجتنبوا الطاغوت﴾، ﴿أولياؤهم الطاغوت﴾، ﴿يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت﴾، مفردات الراغب ٣٠٤ - ٣٠٥ .

(٢) سورة البقرة آية ٧ .

الإسلام تحوّلت في نفوس هؤلاء، وبفعل بني أمية، إلى قوة لمحاربة الإسلام، والسيف الذي سلّحهم به رسول اللّه لقتال أعداء الإسلام، تحوّل في أيديهم إلى أداة لمحاربة أبناء رسول اللّه وأوليائهم دون أعدائهم. وكان هذا هو جوهر المسخ الحضاري الذي تمّ على يد بني أمية في حياة الأمة.

وإلى هذا المعنى يشير الإمام الحسين(ع) في خطبته الثانية يوم عاشوراء أمام جمهور جيش ابن سعد: (سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم، وحششتم علينا ناراً اقتدحناها[1] على عدونا وعدوكم، فأصبحتم ألباً لأعدائكم على أوليائكم بغير عدل أفشوه فيكم ولا أمل أصبح لكم فيهم)[2].

فكيف جرت - ياترى - هذه الإنتكاسة الخطيرة في نفوس هؤلاءِ الناس، حتى شهروا سيوفهم التي مكّنهم الإسلام منها لمحاربة البغاة الظالمين في وجه ابن رسول اللّه(ص)، ولصالح سلطان ابن معاوية.

وكيف جرت - ياترى - هذه الإنتكاسة الخطيرة في حياة الناس، حتى تخالفت قلوب هؤلاء الناس وسيوفهم؟ كما قال الفرزدق الشاعر رحمه اللّه للحسين(ع): (إن قلوبهم معك وسيوفهم عليك).. ثم توافقت قلوبهم وسيوفهم على ابن رسول اللّه وأهل بيته وأصحابه المقيمين للصلاة والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر؟

وكيف تحوّلت هذه القوة التي منحهم الإسلام ايّاها، والمركزية والسيادة، والموقع الممتاز، الذي اكتسبوه بالإسلام إلى قوة ضاربة لصالح اعدائهم ضد أوليائهم؟

فقد جعل منهم الإسلام قوة كبرى بين الأمم، ومنحهم موقعاً ممتازاً على وجه الأرض، وأخرجهم من دائرة الخمول، وسلط عليهم الضوء.. ولكن لست أدري ماذا حلّ بهذه الأمة من سوء حتى تحوّلت هذه القوة والمركزية، كلها لصالح

---

(١) أي: أوقدتم علينا ناراً كنا قد اقتدحناها واستخرجناها نحن على عدوّنا وعدوّكم.
(٢) مقتل الحسين للسيد عبد الرزاق المقرّم ٢٦٢، ط النجف ١٣٧٦ .

أعدائهم على أوليائهم، وعاد من جديد أولئك الذين كانوا يحاربون هذا الدين إلى مراكزهم القيادية في المجتمع، مستفيدين من كل هذه القوة، والمركزية والنفوذ والسلطان الذي جاء به الإسلام، واصبح دعاة هذا الدين وقادته الذين حملوا هذا الدين في موضع الإتّهام، والمحاربة من قبل الأمة، تقاتلهم بالسيف الذي وضعه الإسلام في أيديهم.

وما أروع تعبير الإمام وأصدقه بهذا الصدد (سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم).

وذلك كله من غير أن ينقلب هؤلاء الذين كانوا يحاربون الإسلام في الأمس القريب عن مواقعهم العدائية من الإسلام ومن هذه الأمة. فلا زالوا يحملون بين جنبيهم روح الجاهلية، ويماسون أخلاقها وعاداتها ويعملون على استئصال القيم الإسلامية في هذه الأمة الناشئة ونشر الظلم والرعب والفساد (بغير عدلٍ أفشوه فيكم، ولا أمل أصبح لكم فيهم).

وكانت هذه الأمة في جاهليتها ضعيفة، مستضعفة، خاملة الذكر منسيّة راكدة لاتكاد تجد في حياتها حركة أو عزماً أو قوةً على المواجهة، فاستثار الإسلام كوامن الحركة والقوة والعزم والإنطلاق والبناء في نفوس هؤلاء الناس، واستخرج الإسلام كنوز القدرة والحركة والثورة في نفوسهم.

وتحوّلت هذه الأمة الراكدة إلى حركة حضارية على وجه الأرض في التاريخ، تحرق الجبابرة والطغاة، ولكن ما أسرع ما انتكست هذه الأمة، فتحوّلت هذه الحركة، والقوة والإنطلاقة التي استثارها الإسلام باتّجاه عكسي تماماً، للقضاء على حملة هذا الدين، ودعاته وأوليائه ولصالح الطبقة المترفة التي كانت تحارب هذا الدين بالأمس القريب، وتحمل حتى اليوم معها إلى الإسلام رواسب الجاهلية وافكارها وعاداتها وسلوكها.

(وحششتم علينا ناراً اقتدحناها على عدوّنا وعدوكم)[1].

ولا نعرف فيما يصيب الأمم من المآسي، مأساة آلم وأفجع من أن ينقلب

---

(١) حششتم: أوقدتم. إقتدح النار: حاول إخراج النار.

الإنسان على نفسه، فيؤثر ضُرّه على نفعه، وفساده على صلاحه، ويحارب أولياءه ويتحبّب إلى أعدائه.

ولقد أصاب المسلمين في هذه الفترة مأساة مثل هذه المأساة، والإمام يعبّر عن أله العميق بهذه الكلمة المشجية: (ويحكم أهؤلاء تعضدون، وعنا تتخاذلون)؟

إنّنا لانشك أن الأمة قد تعرّضت في هذه الفترة لردة حضارية عجيبة، من قبيل مايقول تعالى: ﴿أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾.

وآية هذه الردّة الحضارية التي تنتكس فيها الأمة هو أن يتحوّل الأولياء في حياة الأمة إلى موضع الأعداء، ويتحول الأعداء إلى موضع الأولياء.

وعندما يتبادل هذان القطبان: (الولاء والبراءة) في حياة الناس مواضعهما، ويأخذ كل منهما موضع الآخر فإن هذه الأمة تواجه امراً يختلف عن أي أمر آخر، وهذا الأمر هو الإنقلاب الحضاري الشامل (أو الردّة الحضاريّة اذا كان هذا الإنقلاب باتجاه رجعي).

والأمة في هذه الحالة تتنكّر لنفسها وتنقلب عمّا هي عليه إلى شيء آخر. فإن هوية الأمة وشخصيتها بالولاء والبراءة، وعندما يتحول الولاء إلى موضع البراءة والبراءة إلى موضع الولاء، فإن هذه الأمة تواجه حالة انتكاسة خطيرة. وهذا هو ما يشير اليه الإمام في خطابه لجند بني أمية يوم عاشوراء: (فأصبحتم ألبا لأعدائكم على أوليائكم).

وهذه هي الحالة التي يصح أن نعبّر عنها بأنّ الإنسان يتنكّر فيها لنفسه أو يعادي نفسه. فإن الإنسان يتودّد إلى عدوّه، ويساعده ويُعينه فإنما يعينه على نفسه.. ولا يمكن أن يقدم الإنسان على مثل ذلك إلا إذا تنكّر لنفسه ونسيَ نفسه.

والتعبير القرآني بهذا الصدد دقيق ومعبّر: ﴿ولا تكونوا كالذين نسوا اللّه فأنساهم أنفسهم﴾[1].

إن الذي ينسى اللّه يُنسيه اللّه نفسه، والذي يتنكّر للّه ينكر اللّه نفسه عليه.

---

(١) سورة الحشر آية ١٩ .

والإنسان في هذه الحالة، من السقوط والتردّي، إنما يخسر نفسه، وشر أنواع الخسارة ان يخسر الإنسان نفسه. فإذا خسر الإنسان نفسه يفقد كل رأس ماله، ولا يبقى له شيء بعد ذلك يرجو منه خيراً.

يقول تعالى: **﴿ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بإياتنا يظلمون﴾**(١).

ويقول عزّ شأنه: **﴿قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة﴾**(٢).

وخسارة النفس تختلف عن أية خساره أخرى، فإن الربح والخسارة هو الزيادة والنقصان فيما يملك الإنسان مع بقاء المحور: (الأنا). فكلما يكتسب الإنسان من فائدة مادية أو معنوية يدخل في حساب (الربح) وكلما يفقد الإنسان من المواهب المادية والمعنوية التي آتاه اللّه تعالى يدخل في حساب (الخسارة) وتزيد الخسارة كلما تهبط درجة الخسارة أكثر تحت الصفر.

ولكن في هذه الأحوال جميعاً يحتفظ الإنسان بـ(الأنا) الذي هو المحور الذي تدور حوله الأرباح والخسائر. فإذا خسر الإنسان هذا المحور أي: خسر نفسه، لا مايملك من مواهب مادية ومعنوية، وسقط هذا المحور كان هو الخسران الأكبر، الذي لاتشبهه خسارة أخرى.

وإلى هذا المعنى من الخسارة يشير القرآن الكريم بكلمة **﴿وخسروا أنفسهم﴾** في أكثر من آية(٣) ونلتقي في القرآن تعبيراً آخر عن هؤلاء الناس الذين يخسرون أنفسهم في الحياة الدنيا وهو (ظلم النفس).

وقد يستغرب الإنسان من هذه الكلمة، فهل يمكن أن يعادي الإنسان نفسه ويظلمها ويعتدي عليها؟ يجيب القرآن على هذا السؤال بالإيجاب: **﴿وما ظلمونا**

---

(١) سورة الأعراف آية ٩ .

(٢) سورة الزمر آية ١٥ .

(٣) لاحظ سورة الأنعام ١٢، سورة الأعراف ٩ و٥٣، سورة هود ٢١، سورة المؤمنون ١٠٣، سورة الزمر ١٥، وآيات أخرى من مثل هذه الآيات.

ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾[١].

والذين يعاقبهم اللّه بظلمهم، لم يظلمهم اللّه، وإنما كانوا هم الذين اقدموا على ظلم أنفسهم: **﴿وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾**[٢].

وأخيراً إن مآل الخير والشر هو النفس وإن الذي يهتدي فإنما يهتدي لنفسه، والذي يضل فإنما يضل على نفسه. **﴿فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها﴾**[٣].

أي يستقر الضلال والغيّ على نفسه، فإنهم يضلّون على أنفسهم، ويضلّ سعيهم وعملهم وتحرّكهم.

ذلك هو الخسار والضياع الكبير: أن يضل الإنسان على نفسه، ويضل سعيه وعمله **﴿الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا﴾**[٤].

﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل اللّه أضل أعمالهم﴾[٥].

فإن الإنسان اذا تنكّر لنفسه وظلمها وعاداها خسرها، وعندما يخسر الإنسان نفسه يضل سعيه وعمله ويذهب هباء كل جهدٍ وعملٍ له. وإلى هذه الخسارة يشير الإمام الحسين(ع) في خطابه الذي وجّهه إلى أصحاب الحُر في منزل البيضة: (فأنا الحسين بن علي وأمّي فاطمة بنت رسول اللّه، نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع أهلكم، ولكم فيّ أسوة.. وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم وخلعتم بيعتي من أعناقكم فحظّكم أخطأتم ونصيبكم ضيّعتم، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه[٦] وسيغني اللّه عنكم)[٧].

إن هذه الظاهرة من أغرب مايلتقيه الإنسان من ظواهر غريبة في حياته على

---

(١) سورة البقرة آية ٥٧ .
(٢) سورة النحل آية ١١٨ .
(٣) سورة يونس آية ١٠٨، وسورة الاسراء آية ١٥ .
(٤) سورة الكهف آية ١٠٤ .
(٥) سورة محمد آية ٨ .
(٦) يشير الإمام الى سنّة الله تعالى في المحق.
(٧) وفي هذه الفقرة يشير الى سنّة «الاستبدال» بعد «المحق»، تاريخ الطبري ٦ / ٢٢٩ .

ظهر الأرض.

إن الإنسان بهذا التحوّل الذي يشرح خطواته ومراحله القرآن الكريم يظلم نفسه ويتنكر لها فيخسرها ويعود شيئاً آخر يختلف اختلافاً كلياً عما كان عليه.. يمشي ويتحرّك بين الناس، ولكن من دون إرادة ووعي، بل بما يُملى عليه ويُراد منه.

يتحرك لا بإرادته وإنما بارادة الطاغوت الذي يستعبده ويحرّكه، لا بالاتجاه الذي ينفعه ويخدمه، وإنما بالإتجاه الذي يخدم عدوّه.

هؤلاء هم الذين تنتكس قلوبهم ويختم اللّه عليها، وصدق اللّه تعالى:

﴿ونقلّب أفئدتهم﴾[١].

﴿ختم اللّه على قلوبهم﴾[٢].

ولن تعود لهم إرادة ووعي وفهم ونور يتحركون به في الناس. وعندما يفقد الإنسان الوعي والنور والإرادة والعزم في حياته ينقلب إلى اداة طيّعة وسهلة بيد الطاغوت يستخدمه في تحقيق أطماعه بالشكل الذي يريد، ويوجّهه إلى ضرب أوليائه بأعدائه، وهذا التحول العجيب في حياة الناس هو الذي حدث في هذه الفترة من التأريخ على يد حكّام بني أمية في هذه الأمة وواجهه الحسين(ع) بمرارة وألم.

لقد جرى - بالتأكيد - تحوّل خطير في نفوس هؤلاء الناس، حتى عاد اسفلهم أعلاهم، وأعلاهم أسفلهم، في انتكاسة رهيبة يقل نظيرها في التأريخ، حتى يخرج ثلاثون ألفاً منهم أو أكثر من الكوفة عاصمة أمير المؤمنين لمحاربة سيد شباب أهل الجنة وابن رسول اللّه(ص) ونجل أمير المؤمنين(ع).

والتفسير الوحيد الذي يستطيع أن يفسر لنا سر هذه الإنتكاسة والمسخ الحضاري في شخصية الأمة - أو طائفة كبيرة من الأمة على أقل التقادير - يكمن في الجهد الذي بذله بنو أمية في إرهاب الناس، وإفسادهم المسلمين ومسخ معالم

---

(١) سوة الأنعام آية ١١٠ .
(٢) سورة البقرة آية ٧ .

شخصيتهم، حتى عادت ضمائرهم وإدراكاتهم وإراداتهم في قبضة بني أمية، يتحكّمون فيها بالطريقة التي تعجبهم، وتخدم أهدافهم.

وكان لابد من هزةٍ قوية عنيفة لضمير الأمة تُعيد إليها وعيها وارادتها وقيمها وتشعرها بعمق الكارثة التي حلّت بها، وتبعث الندم في نفوسهم، وحتى لو لم تكن هذه الهزة تنفع هذا الجيل، فقد كانت تُعتبر ضرورة من ضرورات المرحلة لإنقاذ الجيل الذي يأتي بعد هذا الجيل.

وكان لتضحية الحسين(ع) وتحرّكه المأساوي الدور الأكبر في هذه الهزة العميقة التي كانت تتطلبها ضرورات الساحة والحالة الإجتماعية.

لقد نبّهت فاجعة كربلاء ضمائر المسلمين، واشعرتهم بالندم، ومكّنتهم من أن يستعيدوا وعيهم وإرادتهم، من جديد، فيفكروا ويقرروا مصيرهم بأنفسهم.

لقد شعروا - بعد الإنتباه - بالكابوس الرهيب الذي كان يلقي بثقله على صدورهم وقلوبهم وعقولهم.. وشعروا بضخامة الجريمة وعمق الردّة والإنتكاسة في نفوسهم وحياتهم..

وسوف نستعرض إن شاء اللّه جوانب منها في الفصول القادمة من هذه الدراسة.

٢ - سلب الشرعية من النظام

رغم فداحة الخسائر التي لحقت بالمسلمين والإنحراف والإنحطاط الذي لزم المسلمين في هذه الفترة من حكم بني أمية.. فقد كان هناك خطر أكبر بكثير من كل ذلك يلحق الإسلام مباشرة وليس المسلمين فقط، وهو أن ينسحب هذا الإنحراف على الإسلام نفسه، ويتعرض الإسلام لما تعرض له المسلمون من تحريف.

وذلك ان هذا الإنحراف كان ينحدر من موقع الخلافة الإسلامية التي كانت تمتلك في نفوس المسلمين رصيداً كبيراً من الشرعيه والقدسية، وقد كان بنو أمية

يعتمدون كثيراً عنصر الشرعية في موقعهم السياسي والإجتماعي، وكانوا يوحون إلى الناس بطريقة أو أخرى أنّ موقع الخلافة أقوى من موقع الرسالة فيقول قائلهم: (إن خليفة أحدكم أفضل من رسوله).

وكانوا يرون في هذا الموقع أداةً لتنفيذ طموحاتهم ورغباتهم، بأيسر الطرق، وأسهلها.. فلذلك دأب معاوية على إحكام هذا الموقع الشرعي لنفسه ولابنه يزيد من بعده.

وكان هذا الموقع الشرعي الذي حرص عليه حكّام بني أمية من أكبر الأخطار التي لحقت الإسلام من جانب حكومة بني أمية. فقد كان الإنحراف ينحدر إلى الناس من قصور الخلفاء في اطار من الشرعية.

وكان هناك في قصور الخلفاء من يبرّر ويوّجه هذا الإنحراف، ويعطيه الصبغة الشرعية، من علماء البلاط.. وبالتالي كان هذا الإنحراف ينعكس وينسحب على الإسلام، ويفقد الإسلام أصالته ونقاءه على أوسع صعيد وهو وسط الأمة.

وقد حرص الإمام(ع) في حركته على كسر هذا الإطار الشرعي الذي كان يحتمي به حكام بني أمية، وسلب صفة الشرعية منهم وتجريدهم من القدسية والشرعية التي كان يخرص عليها بنو أمية كل الحرص. وبالتالي تفويت الفرصة على الحكم الأموي في تحريف الإسلام من موقع الشرعية والخلافة.

وقد كان الإمام يجهر بهذه الحقيقة اجهاراً ويعلن برايه في يزيد، وعدم أهليته للخلافة، وينال منه كلّما واتته فرصة.

وقد أعلن رأيه هذا في يزيد عندما دعاه الوليد بن عتبة للبيعة، ومروان حاضر فقال عليه السلام له بعد كلام طويل، وهو يريد أن يسمع مروان رأيه في يزيد، وموقفه من البيعة: (أيّها الأمير إنّا أهل بيت النبوّة ومعدن الرسالة ومُختلف الملائكة، ومهبط الرحمة، بنا فتح اللّه وبنا ختم، ويزيد رجل فاسق، شارب خمر، قاتل النفس، معلن بالفسق، فمثلي لايبايع مثله)[1].

(١) مقتل الحسين للخوارزمي (المتوفى ٥٦٨ هـ)، تحقيق الشيخ محمد السماوي ١ / ١٨٤ .

وقد كان لخروج الإمام على يزيد، ومحاربته لجيش ابن زياد بعد رفض البيعة ليزيد، واستشهاده و وأهل بيته وأصحابه بتلك الصورة المفجعة على يد جيش الخلافة.. كان لذلك كله أثر كبير في إسقاط شرعية الخلافة، وتجريدها من الشرعيه والقدسية التي كانت الخلافة تتمتع بها.

لقد أثار استشهاد الإمام الحسين، بالصورة المفجعة التي حدثت في كربلاء مشاعر المسلمين جميعاً (من الجيل الذي أعقب جيل القتلة في كربلاء) وفي جيل القتلة، على صعيد واسع، فاستشعروا جسامة الجريمة وبشاعتها في وجدانهم، وضمائرهم، ونقموا على يزيد، ومن لحقه من خلفاء بني أمية الذين خلفوا يزيد على السلطان والحكم، وسقطت القيمة الشرعية للخلافة ولم تعد الخلافة تكوّن موقعاً شرعياً يمتلك رصيداً من الشرعية والقدسية في نفوس المسلمين.

وكيف يمكن أن يتمتع هذا الموقع الرسمي بنفس القدسية والشرعية.. وقد تلوّث أصحابه بهذه الجريمة النكراء التي يقل نظيرها في التأريخ، حيث أقدموا على قتل ابن رسول الله، وسيد شباب أهل الجنة، والكوكبة المؤمنة الصالحة من أهل بيته وأصحابه المقيمين للصلاة، والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر.

ولا يمكن أن يشك أحد أنّ هذه الجريمة التي اقترفها جهاز الخلافة الأموية في عهد يزيد في العراق تركت أثراً عيمقاً في ضمائر المسلمين جميعاً (إن لم يكن في نفس الجيل ففي الجيل الذي أعقب هذا الجيل مباشرة)، وأسقطت مكانة الخلافة الأموية في نفوس المسلمين، وعادت الخلافة الأموية موقعاً سلطوياً يمتلكه الأقوى، كما في سائر المواقع التي يمتلكها أصحاب السلطة في دنيا الناس.

وعلاقة الناس بهذا الموقع لم تعد، كما كانت علاقة دينية خالصة نابعة من إيمان الناس بشرعيّة هذا الموقع.

ولذلك فلم يعد للانحرافات التي يرتكبها جهاز الخلافة الأموية تاثير تحريفي على الإسلام.

وسلم الإسلام من تحريفات الحكام بنسبة كبيرة، وأصبح المسلمون بعد هذا التاريخ يرجعون في أمور دينهم إلى طبقة أخرى غير طبقة الحكّام الذين يرجعون

اليهم في أمور دنياهم بحكم الضرورة والإضطرار.

ومن هذا التاريخ بدأ يتكوّن في المجتمع خط آخر غير خط الخلافة وهو خط الفقهاء والعلماء الذين يضع المسلمون ثقتهم الدينية فيهم.. وبقدر ما كان يبتعد هؤلاء الفقهاء والعلماء عن الحكّام والسلاطين كانت تزداد ثقة المسلمين بهم.

والذي يواكب قراءة التاريخ الإسلامي يجد فارقاً نوعياً واضحاً في موقع الخلافة قبل موقعة الطف وبعدها.. وجوهر هذا الفرق هو افتقاد الخلافة بعد معركة كربلاء للصيغة الشرعية والإطار الديني الذي كانت تمتلكه من قبل.

وبهذه الطريقة نستطيع أن نفهم كيف أن قيام الإمام الحسن(ع) بالحرب كان يؤدي إلى نتائج معاكسة تماماً لما أدّى إليه قيام الإمام الحسين(ع).

فقد ذكرنا أنّ مواصلة الإمام الحسن للحرب كان سيؤدّي إلى انتصار عسكري ساحق لجيش بني أمية، وإثارة نقمة بني أمية على شيعة أهل البيت، ويحملهم على القيام بتصفية واسعة في صفوف الشيعة وإنهاء البقية الباقية من هذا الخط الإسلامي الذي استعصى على عوامل الإنحراف والخضوع لسلطان بني أمية.

أما قيام الحسين(ع) فقد كان له أثر معكوس تماماً فقد آثار سخط المسلمين ضد سلطان بني أمية ودفع الناس للخروج على سلطان بني أمية ووسّع دائرة المعارضة.

وذلك لاختلاف طبيعة ظروف الإمام الحسن عن الإمام الحسين، واختلاف نوع وطبيعة قتال الإمام الحسن عن قتال الإمام الحسين.

فقد كان الإمام الحسن في مواجهة عسكرية مع معاوية، وقد تخلّى عنه أكثر جيشه، ولم يبق معه إلا شيعته الذين كانوا يعدون جزءاً ضئيلاً من جيش العراق وكانت نتيجة هذا القتال هزيمة عسكرية، تتيح الفرصة لمعاوية للقضاء على البقية الباقية من شيعة الإمام.

بينما كان قتال الحسين(ع) ليزيد (خروجاً) وليس (مواجهة عسكرية) تستهدف اسقاط النظام، وكان كل شيء من أوضاع العراق والشام يؤكد هذا المعنى.. ولم يكن يفكّر الحسين أن بإمكان العراق أن يقاوم الشام، ولا أن يصفو له العراق، ولا أن يقاوم أهل العراق إرهاب بني أمية وإغراءهم.. فما كلن ليصْفُو في

أحسن الأحوال للإمام من العراق غير قلّة قليلة من شيعته يخرج بهم على يزيد.

إذن لم يكن الإمام يطلب فتحاً عسكرياً، وإنما كان يطلب في خروجه تحريك ضمائر المسلمين وإثارة الضمائر والنفوس والعواطف والعقول بقوة بفعل المأساة المفجعة التي واجهها الحسين(ع) على يد جيش بني أمية في كربلاء. وكانت غاية الإمام الحسين في هذه المأساة الداميه والمفجعة هي تحريك المسلمين ضد سلطان بني أمية والنيل من شرعيه جهاز الخلافة الأموية وعزلهم سياسياً واجتماعياً في أوساط العالم الإسلامي، سيما في الحجاز والعراق اللذين كانا يعتبران حينذاك قلب العالم الإسلامي، وتجريدهم من الشرعية التي كانوا يحرصون عليها كثيراً، كل ذلك تمّ نتيجة اختلاف موقع الإمامين وظروفهما واختلاف ظرف معاوية عن يزيد.

فلم يكن معاوية قد أسقط الأقنعة كلها عن وجهه كما القى يزيد، ولم يكن معاوية قد كشف عن سرّه ونيته، واسفر عن وجهه كما فعل يزيد.

وبالتالي فقد كان تحريك المسلمين ضد سلطان بني أمية ومحاولة النيل من شرعيه الخلافة الأموية في عهد يزيد أمراً ممكناً وبالطريقة التي أقدم عليها الحسين(ع) بينما لم تكن هذه الظروف متوفّرة للإمام الحسن(ع) بالصورة التي توفّرت في عهد ابنه يزيد.

وأخيراً نتوقف عند هذا الحد من الحديث عن قضية الوارث العظيم لخط الأنبياء، على أن نواصل البحث في الأجزاء اللاحقة ان شاء اللّه تعالى.

۞ ۞ ۞

محتويات الكتاب



